شذرات

من كتب

ابن قيم الجوزية

مُنتقاة من ثلاثين كتابًا

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن مشعل العوفي

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع

شذرات

من كتب

ابن قيم الجوزية

دار الكتب والوثائق القومية
الشئون الفنية
إدارة الإيداع القانوني

عنوان المصنف: شذرات من كتب ابن قيم الجوزية
تأليف: عبد الرحمن بن مشعل العوفي
رقم الإيداع: ٢٠٤٠١/ ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: ٧-٠٨٠-٨٠٤-٩٧٧-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
(١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م)

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦١١٥٠٥٨ - ٠٠٢٠١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ ش المدرسة متفرع من ش البطار - خلف الجامع الأزهر الشريف. هاتف: ٠٢/ ٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com

شذرات

من كتب

ابن قيم الجوزية

مُنتقاة من ثلاثين كتابًا

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن مشعل العوفي

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

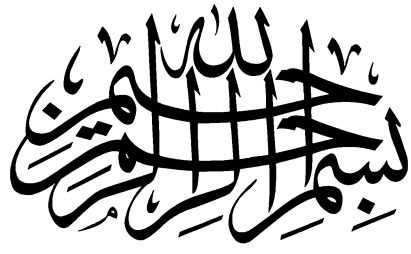

الإهداء

إلى سيدي الكريمين والديَّ العزيزين.

وإلى زوجتي الغالية (أم فرات) وابنتي الغالية (فرات).

وإلى الحبر الهمام ابن القيم الجوزية، الذي طالما أحببته، ورتعت في رياض علومه، متنقلاً بين درره، مستكشفاً لإلهاماته، مستخرجاً لخواطره.

وإلى طلاب العلم، وشداة المعرفة.

وإلى كل مسلم في أصقاع المعمورة.

وإلى كل من أهدى لي مقترحات، وصوب ونسق، وطبع ونشر، وكل من دعا لي بخير في ظهر الغيب.

المقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله معبود بحق إلا الله، وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله، وصفيه وخيرته من خلقه وخليله، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ما تعاقب الحدثان، وعلى آل بيته آل الكرم والعرفان، وصحابته أولي الشمم والإذعان، وزوجاته الطاهرات المطهرات من الريب والزور والبهتان، والتابعين لهم بإحسان، ومن تبعهم بإيمان، وسار على نهجهم، واقتفى أثرهم بإيقان، وسلم تسليماً كثيراً إلى حشر الناس في يوم التغابن وحين يظهر الفرقان بين يدي الملك الديان.

وبعد:

فإنه لا شرف يداني شرف من يبتغي الشرف بسلوك سبل السلف الأماجد الكرام لا الخلف، فهو على نور من ربه، وبصيرة من أمره، يجلي بها غواشي الظلم، وينفي عن القلب علل الجهل وأسقام اللمم، فيمتطي ركاب العلم، ويحدوه العمل لنيل العلم والفهم، بلا كلل أو سأم، في رياض الجنة مرتعه، بذكر ربه يصرعه، أعني الشيطان ولا يخدعه، فشأنه وهجيراه (الله)، و (الله وحده).

إذا أيقنت بهذه الحقيقة الراسخة؛ أفلحت في دنياك وأخراك، وأقبلت عليك وفود الخيرات وقوافل الطيبات تهيئك للمحل الأسنى، والمكان الأعلى، فعشت حميدا، ومت شهيدا، لا أقول في ساحات الوغى والحرب؛ بل في ساحات الكتب وطلب العلم، وأي طلب يداني هذا الطلب؟!

وهل العلة من الخلق إلا عبادته سبحانه وحده لا شريك له، على متابعة لسنة

الرسول الكريم محمد – عليه أفضل صلاة وأتم تسليم -، واقتفاء لأثر الغرر من سلف أمتنا الصالح المبرور؟!

وهل يتحقق عمل ويثمر ثمرته المرجوة بلا علم؟ وهل كل علم نافع؟

إن أجل العلوم علم القرآن والسنة، وإن أكمل الناس إيضاحا لهذين الأصلين العظيمين - الذين عليهما مدار سعادة الخلق أو شقوتهم -؛ هم السلف الصالح – من الصحابة وأرباب القرون الثلاثة المفضلة المعنيين بقول المعصوم ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم رسول الهدى، ومجلي الدجى، وهادي الورى بأبي هو وأمي ﷺ.

وإنني لا أكتمك سراً - أيها الموفق السني المبارك – بالتحاقي بـ (مشروع قراءة تراث ابن القيم) الذي تنظمه (جمعية معرفة بالمدينة) ضمن برنامج (فنون)، واخترت (المسار الأول- قراءة تراث ابن القيم كاملاً، بواقع خمسين صفحة يوميا، عدا الجمعة والسبت).

ولا أكتمك خبراً إن أفشيت لك مدى عظم تأثري بهذا الإمام النحرير، وهذا العالم المهدي، الذي حباه الله علماً قلَّ نظيره، وأسلوباً سلساً، وفصاحة وبياناً وبلاغة ولغة علمية رصينة، مع تحليقه في عالم الروح والملكوت العلوي، يذكر الدواء، ويشخص الداء، بعبارات جامعة، وطرح فذ، وذكاء متوقد، وألمعية ظاهرة، وصدق تشمه من خلال قراءتك لكتبه، كل ذلك من معين الكتاب والسنة، فحولها يدندن، ولها يقرر، وعنها يذب وينافح، فلله دره، لله أبوه، لله هو، ولا نزكي أحداً على الله، وغفر الله لنا وله، وللمسلمين جميعاً.

وأزيدك من الشعر بيتاً:

لا أكتمك إن قلت لك وأخبرتك بوقوفي على درر وجواهر لهذا العالم النحرير، وما أكثرها مبثوثة في كتبه، فارتأيت التقاط هذه الجواهر وتلك الدرر، على أن تكون قصيرة، في سطر أو سطرين، أو ما يقاربهما؛ ليسهل تحفظها أو نشرها وتناقلها في هذا الفضاء الرقمي، والعالم التقني، ولما رأيت من إقبال كثير من العامة والخاصة على هذا النوع من الكتابات، فالأشغال كثيرة، وهذه الوسائل التقنية – مثل المغرد، وهو ما يسمى بـ "تويتر"- لا تسمح بنقل كلام أكثر من مئة حرف تقريباً.

وقصدت أن أسمي هذا الكتاب المتواضع – الذي جمعته ورتبته من كلام ابن القيم المبثوث في كتبه – **(شذرات من كتب ابن القيم)**.

ومنهجي فيه كالتالي:

١- الاعتماد في ترتيب النقل من كتب ابن القيم – غالباً – على منهجية الشيخ د. علي العمران – وفقه الله – المنشورة على الشبكة العالمية الانترنت.
٢- ترتيب الفوائد على الكتب.
٣- أن تكون الفوائد قصيرة؛ في سطر أو سطرين، أو ما يقاربهما.
٤- نقل كلام ابن القيم بنصه وفصه، وإذا تصرفت فيه، فأبين ذلك، كل ذلك مشفوع برقم الصفحة والجزء أمام الكلام مباشرة.
٥- اعتمدت على طبعة (دار عالم الفوائد).
٦- وضعت فهارس للمصادر، وفهارس للعناوين.
٧- عزمت على كون الكتاب لا يزيد على مئتين صفحة، وغالباً أنقل من كل كتاب

عشر صفحات.

وعلى ما خطه المحقق الشيخ الفاضل الدكتور علي العمران – وفقه الرحمن – فإن مجموع مجلدات ابن القيم التي ذكرها في المنهجية القرائية لكتبه بلغت أربعة وستين مجلدا، بمجموع صفحات يقارب اثنتين وعشرين ألف صفحة، وقال بإمكان قراءتها في سنة كاملة بمعدل ستين صفحة يومياً.

أسردها كالتالي:

١- (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب).
٢- (الداء والدواء).
٣- (الفوائد).
٤- (كتاب الصلاة).
٥- (الرسالة التبوكية).
٦- (رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه).
٧- (رسالة في صيغ الحمد).
٨- (زاد المعاد في هدي خير العباد).
٩- (عدة الصابرين)
١٠- (التبيان في أيمان القرآن).
١١- (المنار المنيف في الصحيح والضعيف).
١٢- (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان).
١٣- (مفتاح دار السعادة).
١٤- (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح).

١٥- (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام).

١٦- (أعلام الموقعين عن رب العالمين).

١٧- (تحفة المودود بأحكام المولود).

١٨- (روضة المحبين ونزهة المشتاقين).

١٩- (إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان).

٢٠- (رفع اليدين في الصلاة).

٢١- (تهذيب سنن أبي داوود).

٢٢- (الكلام على مسألة السماع).

٢٣- (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية).

٢٤- (الفروسية المحمدية).

٢٥- (بدائع الفوائد).

٢٦- (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية).

٢٧- (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة).

٢٨- (الروح).

٢٩- (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

٣٠- (طريق الهجرتين وباب السعادتين)

٣١- (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين).

٣٢- (الطرق الحكمية).

٣٣- (أحكام أهل الذمة).

٣٤- (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى).

وما نقلته – أيها المبارك – من شذرات في هذا السفر – المبارك إن شاء الله -؛ لا يمثل سوى النزر اليسير من هذا البحر الخضم، فما هو إلا أقل من نقطة في بحر، أقول هذا عن معايشة مع تراث هذا الحبر الهمام، العجيب في همته، الصادق في دعوته، نحسبه كذلك، ولا نزكي أحدا على الله؛ فإن ربي هو أعلم بمن اتقى، فعلى الراغب الاستزادة، أن يقف على الأصل، فسيجد بغيته بحول الله وقوته، وفضله ومنته.

وأدناه البريد الالكتروني الشخصي؛ لإبداء المقترحات والآراء.

هذا وأسأل الله التوفيق للجميع، وأن يعم بلطفه وإحسانه وكرمه العالم أجمع، وأن يجنب بلاد التوحيد – المملكة العربية السعودية – وجميع البلاد الإسلامية والعالم أجمع الشرور والفتن، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يرد المسلمين إليه ردا جميلا، وأن ينظر إلى أمة عبده وخليله محمد – عليه الصلاة والسلام – نظر رحمة وشفقة، لا نظر عذاب ونقمة، إنه ولي كل خير، والشر ليس إليه، اعتصمنا به، وأنبنا إليه، وإليه المصير.

وصلى وسلم، وبارك وأنعم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين.

وكتب/ عبدالرحمن بن مشعل العوفي
- طيبة الهدى والنور- الخميس ١٤٤٣/٧/٣٠هـ
abdurrahmanalaufi@gmail.com

[١] (الوابل الصيب)

١- عنوان سعادة العبد:

إذا أنعم الله عليه؛ شكر، وإذا ابتلي؛ صبر، وإذا أذنب؛ استغفر. ٥، بتصرف.

٢- العبد دائما متقلب بين أطباق ثلاثة: النعم، والابتلاءات، والذنوب. ٥، بتصرف.

٣- قيد النعم: الشكر، وهو مبني على ثلاثة أركان:

الاعتراف بها باطنا، والتحدث بها ظاهرا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها. ٥، بتصرف.

٤- والصبر: حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية. ٦ .

٥- وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره. ٦.

٦- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، وفي القراءة الأخرى ﴿عِبَادِهِۦ﴾، وهما سواء؛ لأن المفرد مضاف، فيعم عموم الجمع. ٧.

٧- فالكفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة مع الناقصة، فمن وجد خيرا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه. ٧.

٨- العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخول الشيطان عليه من هذه الأبواب الثلاثة. ٨، بتصرف.

٩- إن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق: أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان: أن يكلك الله تعالى إلى نفسك. ١٠.

١٠- قال شيخ الإسلام: "العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل". ١٠.

١١- وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى باب الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالا، ولا مقاما، ولا سببا يتعلق به، ولا وسيلة منه يمن بها. ١٢.

١٢- ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى!. ١٢.

١٣- والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين، وهما: مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام. ١٢.

١٤- استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب.

والثاني: تعظيم الأمر والنهي. ١٤، بتصرف.

١٥- وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: "هو أن لا يعارضا بترخيص جاف، ولا يعرضا لتشديد غال، ولا يحملا على علة توهن الانقياد". ١٥.

١٦- أول مراتب تعظيم الحق ﷻ: تعظيم أمره ونهيه، وعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها. ١٥، بتصرف.

١٧- وكلما كثر الجمع كان أحب إلى الله ﷻ، وكلما بعدت الخطا كانت خطوة تحط خطئية، وأخرى ترفع درجة. ١٧.

١٨- فصلاة بلا خشوع ولا حضور، كبدن ميت لا روح فيه. ١٧.

١٩- تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه. ١٨.

٢٠- وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه. ٢٠.

٢١- الحسنات والسيئات تتدافع وتتقابل، ويكون الحكم فيها للغالب. ٢٣.

٢٢- وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانها، وأن يدع ما لا بأس به حذرا مما به البأس، وأن يجانب الفضول في المباحات خشية الوقوع في المكروهات. ٢٦، بتصرف.

٢٣- ومن علامات تعظيم المناهي: مجانبة من يجاهر بارتكابها، والغضب لله عند انتهاكها، وأن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيا غير مستقيم على المنهج الوسط. ٢٦، بتصرف.

٢٤- فمن فقه الرجل في عبادته: أن يقبل على شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة. ٢٧.

٢٥- الشبع في الأكل رخصة غير محرمة. ٢٨.

٢٦- وما أمر الله ﷻ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو. ٢٩.

٢٧- فتن أكثر الخلق بالغلو أو الجفاء، ولا ينجي من ذلك إلا: علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربة الشيطان، ولزوم الوسط. ٣٠، بتصرف.

٢٨- ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله ﷻ، بل يسلم ولو لم تظهر حكمته. ٣١، بتصرف.

٢٩- وضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية. ٣١.

٣٠- في بعض الآثار: "ابن آدم: بع الدنيا بالآخرة؛ تربحهما جميعا، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعا". ٣٥.

٣١- التوحيد مفتاح باب الجنة، وله أسنان، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له، وأسنانه هي: الأوامر. ٤١، بتصرف.

٣٢- الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله ﷻ إلى غير الله تعالى.

والثاني: التفات البصر.

وكلاهما منهي عنه. ٤٣.

٣٣- والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه، وأغيظه للشيطان، وأشده عليه. ٤٥.

٣٤- الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه. ٤٦.

٣٥- الصلاة: قرة عين المؤمن، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فيستريح بها لا منها، كما قال إمامهم: «يا بلال أرحنا بالصلاة»، ولم يقل: (أرحنا منها). ٤٦، بتصرف.

٣٦- والمقبول من العمل قسمان:

أحدهما: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه متعلق بالله ﷻ.

القسم الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة، وينوي بها الطاعة والتقرب إلى الله. ٤٨، بتصرف.

٣٧- فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه – أيضًا – به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. ٥٠، بتصرف.

٣٨- قلب قد قهرته الشهوة، وأسره الهوى، ووجد الشيطان فيه مقعدا تمكن فيه، كيف يخلص من الوساوس ومن الأفكار؟! ٥٢.

٣٩- وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو

حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو، فلا ينال منه شيئاً إلا على غرة وغفلة خطفة. ٥٣.

٤٠- أسلحة الشيطان هي: الشهوات والشبهات، والخيالات والأماني الكاذبة. ٥٦، بتصرف.

٤١- والصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه عن الرفث. ٥٧.

٤٢- المبتدأ إذا تقيد بوصف أو حال أو ظرف كان الخبر عنه حال كونه مقيدًا. ٦١.

٤٣- خبر "أمسى" لا يقترن بالواو؛ لأنه خبر مبتدأ. ٦٥.

٤٤- والحال المقدرة يجوز تأخيرها عن زمن الفعل العامل فيها. ٦٥.

٤٥- فربَّ مكروه عند الناس محبوب عند الله تعالى، وبالعكس. ٦٧.

٤٦- قال ابن عباس ﷺ:

"إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق". ٦٧.

٤٧- إن للصدقة تأثيرا عجيبا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم؛ بل من كافر. ٦٩.

٤٨- الصدقة تفدي العبد من عذاب الله ﷻ؛ فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب، وتفكه منه. ٧١.

٤٩- فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه، ووقي شره، وذلك هو المفلح

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ٧٥.

٥٠- فجود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده. ٧٦.

٥١- والسخاء نوعان:

فأشرفهما: سخاؤك عما بيد غيرك.

والثاني: سخاؤك ببذل ما في يدك. ٧٧.

٥٢- السخاء أن تكون بمالك متبرعًا، وعن مال غيرك متورعًا. ٧٧.

٥٣- فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه. ٨٠.

٥٤- فكما تدين تدان، وكن كيف شئت، فإن الله تعالى لك كما تكون أنت له ولعباده. ٨١.

٥٥- من يظهر للخلق خلاف ما يعلمه الله فيه؛ فإن الله تعالى يظهر له في الدنيا والآخرة أسباب الفلاح والنجاح والفوز، ويبطن له خلافها. ٨٢.

٥٦- لا يحرز العبد نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة. ٨٣، بتصرف.

٥٧- وقال ابن عباس: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس". ٨٣.

٥٨- فأفضل الذاكرين: المجاهدون، وأفضل المجاهدين: الذاكرون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ٨٩، بتصرف.

٥٩- وقال أبو الدرداء ﷺ: "لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله ﷻ".

٦٠- ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر. ٩٢.

٦١- وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر. ٩٢.

٦٢- وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل. ٩٢.

٦٣- أعظم عقوبات القلب: فساد تصوره وإدراكه، وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. ٩٢، بتصرف.

٦٤- في الذكر نحو من مئة فائدة ذكرها في ص ٩٤، وأوصلها إلى اثنتين وسبعين فائدة.

٦٥- من فوائد الذكر:

يطرد الشيطان، يرضي الرحمن، يزيل الهم والغم عن القلب. ٩٤، بتصرف.

٦٦-من فوائد الذكر:

يجلب للقلب الفرح، يقوي القلب والبدن، ينور الوجه والقلب. ٩٤، بتصرف.

٦٧-من فوائد الذكر:

يجلب الرزق، يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، يورث المحبة التي هي روح الإسلام. ٩٤، بتصرف.

٦٨- وقد جعل الله لكل شيء سببا، وجعل سبب المحبة: دوام الذكر. ٩٤.

٦٩- من فوائد الذكر:

يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، يورث الإنابة، يورثه القرب منه. ٩٥، بتصرف.

٧٠- ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت. ٩٥).

٧١- من فوائد الذكر:

يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة، يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله، يورثه ذكر الله تعالى له. ٩٥، بتصرف.

٧٢- من فوائد الذكر:

يورث حياة القلب، وأنه قوت القلب والروح، ويورث جلاء القلب من صداه. ٩٦، بتصرف.

٧٣- وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟! ٩٦.

٧٤- وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتي، أو كلاما قريبا من هذا. ٩٦.

٧٥- من فوائد الذكر:

يحط الخطايا ويذهبها، ويزيل الوحشة بين العبد وبين ربه؛ فإن الغافل بينه وبين الله ﷻ وحشة لا تزول إلا بالذكر، ويذكر بصاحبه عند الشدة. ٩٧، بتصرف.

٧٦- من فوائد الذكر:

أن الله يعرفه في الشدة، ومنجاة من عذاب الله، وسبب نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر. ٩٨، بتصرف.

٧٧- من فوائد الذكر:

سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة، وأن مجالس الذكر مجالس الملائكة، وأن الذاكر يسعد بذكره، ويسعد به جليسه. ٩٨، بتصرف.

٧٨- من فوائد الذكر:

يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، وأنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه. ٩٩، بتصرف.

٧٩- من فوائد الذكر:

أن الاشتغال به سبب لعطاء الله الذاكر أفضل ما يعطي السائلين، وأنه أيسر العبادات، وأنه غراس الجنة. ١٠٠، بتصرف.

٨٠- من فوائد الذكر:

أن العطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال، وأن دوام ذكر الرب يوجب الأمان من نسيانه. ١٠٢، بتصرف.

٨١- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾:

ووصف المعيشة بالضنك مبالغة، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ، والصحيح: أنها تتناول معيشته في الدنيا، وعذابه في البرزخ. ١٠٧.

٨٢- الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنم حاضرة. ١٠٨.

٨٣- وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة". ١٠٩.

٨٤- وقال لي مرة شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما يصنع أعدائي بي؟!، أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة". ١٠٩، بتصرف.

٨٥- وقال لي مرة شيخ الإسلام ابن تيمية: "المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه". ١٠٩، بتصرف.

٨٦- وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا من شيخ الإسلام ابن تيمية قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة، ويقيناً وطمأنينة. ١١٠، بتصرف.

٨٧-وكان بعض العارفين يقول: "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف". ١١٠.

٨٨- وقال آخر: "مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها!"، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: "محبة الله تعالى ومعرفته وذكره". ١١٠.

٨٩-وقال آخر: "إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا". ١١٠.

٩٠- وقال آخر: "إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب". ١١١.

٩١- واعلم أن الحسرة كل الحسرة: الاشتغال بمن لا يجدي عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله ﷻ، وانقطاعك عنه، وضياع وقتك عليك، وشتات قلبك عليك، وضعف عزيمتك، وتفرق همك. ١١٢.

٩٢- من فوائد الذكر:

يسير العبد وهو قاعد على فراشه، فيسبق القائم مع الغفلة، وقال رجل من العباد: ليس الشأن فيمن بات ليله مسافراً وأصبح مع الركب، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب!. ١١٣، بتصرف.

٩٣- فالذكر يثير العزم الساكن، ويهيج الحب المتواري، ويبعث الطلب الميت. ١١٤.

٩٤- من فوائد الذكر:

أنه نور للذاكر في الدنيا، وفي قبره، وفي معاده، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى. ١١٤، بتصرف.

٩٥- والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾. ١١٤، بتصرف.

٩٦- فالرب يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وإن رأته؛ فالإدراك أمر وراء الرؤية. ١١٨، بتصرف.

٩٧- ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

قال أبي بن كعب: "مثل نوره في قلب المسلم". ١١٩.

٩٨- ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾:

المشكاة هي الكوة في الحائط، فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج، وهي مثل القلب، وشبه بالزجاجة؛ لأنها جمعت أوصافا هي في قلب المؤمن، وهي: الصفاء، والرقة، والصلابة. ١٢٠، بتصرف.

٩٩- وفي الأثر: "القلوب آنية الله تعالى في أرضه، فأحبها إليه أرقها، وأصلبها، وأصفاها". ١٢١.

١٠٠- مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن؛ هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها من الانحراف. ١٢٢.

[٢] (الداء والدواء)

١- ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء.

ومكثتُ بمكة مدّةً تعتريني أدواء، ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا. فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، وكان كثير منهم يبرأ سريعًا. ٨.

٢- القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة، أثّر في إزالة الداء. ٨.

٣- الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعفه في نفسه، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإما لحصول المانع من الإجابة. ٩، بتصرف.

٤- والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل. ١١.

٥- للدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كلّ واحد منهما صاحبه. ١٢، بتصرف.

٦- والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدّ فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو. ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلّف التأثير. ٢٦.

٧- فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور. ٢٨.

٨- وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب. ٢٩.

٩- وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إنِّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء. فإذا أُلهِمتُ الدعاءَ فإنّ الإجابة معه. ٢٩.

١٠- فما استُجلِبتْ نِعمُ الله واستُدفِعتْ نِقَمُه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه. ٣١.

١١- وقد رتّب الله سبحانه حصولَ الخيرات في الدنيا والآخرة وحصولَ الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبّب على السبب. ٣١.

١٢- فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتُّب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية، بَل ترتُّب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمالَ . ٣٤، بتصرف.

١٣- الفقيهُ كلُّ الفقيه الذي يردّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسانَ يعيشُ إلا بذلك. ٣٤.

١٤- من أنفع ما يعرف العبد تفاصيل أسباب الشر والخير: تدبر القرآن، ثم السنة، ثم تأمل أخبار الأمم، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر. ٣٥، بتصرف.

١٥- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾:

وأتى سبحانه بلفظ "الكريم"، وهو السيّد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقّه. ٤١.

١٦- ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ ولا يلزم من عدم صِلِيِّها عدمُ دخولها، فإن الصِّلِيَّ أخصُّ من الدخول، ونفيُ الأخصّ لا يستلزم نفي الأعم. ٤٢.

١٧- فرمضان [إلى رمضان] والجمعة إلى الجمعة لا يقوى على تكفير الصغائر الله مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. ٤٣.

١٨- لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير. ٤٣.

١٩- ولا ريب أنّ حسن الظن إنّما يكون مع "الإحسان". ٤٤.

٢٠- ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظنّ أبدًا، فإنّ المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسنُ الناس ظنًّا بربّه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إنّ المؤمن أحسن الظنَّ بربّه، فأحسن العمل. وإنّ الفاجر أساء الظنَّ بربّه، فأساء العمل. ٤٥.

٢١- حسنَ الظن بالله هو حسنُ العمل نفسه. وكلّما حسُن ظنُّه حسُن عملُه، وإلا فحسنُ الظن مع اتباع الهوى عجز. ٤٨.

٢٢- وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخِذلان والحمق. ٥١.

٢٣- وقيل للحسن: نراك طويل البكاء! فقال: أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي. ٥١.

٢٤- وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع نعمَه عليك، وأنت مقيم على معاصيه، فاحذره؛ فإنما هو استدراج يستدرجك به. ٧٨.

٢٥- وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه، وهو لا يعلم ورُبَّ مغرور بسَتْر الله عليه، وهو لا يعلم. ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه، وهو لا يعلم. ٧٩.

٢٦- وأعظم الخلق غرورًا من اغترّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من

الآخرة، حتّى يقولُ بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة! ٧٩.

٢٧- والدنيا كلّها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة! كما في مسند الإمام أحمد والترمذي من حديث المستورِد بن شدّاد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخِلُ أحدُكم إصبَعَه في اليمّ، فلينظُرْ بم ترجع»؟ ٨٠.

٢٨- ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]:

الإنسان دليل لنفسه على وجود خالقه، وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله. ٨٣.

٢٩- يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلف العمل لأسباب، جماعها يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر. ٨٣، بتصرف.

٣٠- الرَّجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدَره، وثوابه وكرامته. ٨٧.

٣١- والرجاء شيء، والأماني شيء آخر. فكلُّ راجٍ خائفٌ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرَعَ السيرَ مخافةَ الفوات. ٨٨.

٣٢- الرَّجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]. ٨٩.

٣٣- والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ٩١.

٣٤-وكان الصديق أبو بكر ﷺ يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإنْ لم تبكُوا فتباكَوا. ٩١، بتصرف.

٣٥-وهذا علي بن أبي طالب ﷺ وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: فأما طول الأمل فيُنْسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق. ألا وإن الدنيا قد ولّت مدبرةً، والآخرةُ مقبلةٌ، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ اليوم عمل ولا حسابَ، وغدًا حساب ولا عملَ. ٩٤.

٣٦-وهذا أبو الدرداء كان يقول: إنّ أشدّ ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمتَ، فكيف عملتَ فيما علمتَ؟.٩٥.

٣٧-الذنوب تضرّ ولا بدّ، وضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شرّ وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟!٩٨.

٣٨-ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُخْتُ نَصَّر، فقال: بما كسبتْ أيدينا سلّطتَ علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا. ١١٥.

٣٩-وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال: أوحى الله إلى بعض الأنبياء: إذا عصاني من يعرفني سلّطتُ عليه من لا يعرفني. ١١٧.

٤٠- وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن ترى ما يُسخِط الله، فتتجاوزَه، ولا تأمرَ فيه، ولا تنهى عنه، خوفًا ممن لا يملك ضرًا ولا نفعًا. ١٢٠.

٤١- وقال العمري الزاهد : من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافةً من

المخلوقين نُزِعَتْ منه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفَّ بحقّه. ١٢٠، بتصرف.

٤٢- قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أنّ القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت. ١٢٥.

٤٣- بلال بن سعد يقول: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر مَن عصيتَ؟. ١٢٧.

٤٤- وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك، يعظم عند الله. وبقدر ما يعظم عندك، يصغر عند الله. ١٢١٧.

٤٥- كتبت عائشة إلى معاوية: أما بعد، فإنّ العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامدُه من الناس ذامًا. ١٢٩.

٤٦- وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمَّد بن سيرين: أنّه لمّا ركبه الدَّينُ اغتمّ لذلك، فقال: إنّي لأعرفُ هذا الغمَّ بذنب أصبتُه منذ أربعين سنة!. ١٣٠.

٤٧- قال سليمان التَّيمي: إنّ الرجل لَيصيبُ الذنبَ في السرّ، فيصبح وعليه مذلّته. ١٣١.

٤٨- ذكر خمسين أثرا قبيحا للمعاصي تقريبا، منها:

حرمان العلم، والوحشة في قلبه بينه وبين الله، وبينه وبين الناس، وظلمة يجدها في قلبه حقيقة. ١٣٢، بتصرف.

٤٩- من آثار المعاصي القبيحة:

وهن القلب والبدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، وأنها تزرع أمثالها. ١٣٦، بتصرف.

٥٠- من آثار المعاصي القبيحة:

تضعف القلب عن إرادته، وانسلاخ الاستقباح لها من القلب، وأن كل معصية

هي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله. ١٤١، بتصرف.

٥١- من آثار المعاصي:

أنها سبب لهوان العبد على ربه، وسقوطه من عينه، وسبب لاستهانته بالمعصية إذا اعتادها، وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد؛ عظم عند الله. ١٤٤، بتصرف.

٥٢- من آثار المعاصي القبيحة:

أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنوبه، قال أبو هريرة ﷺ: إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم. ١٤٥، بتصرف.

٥٣- من آثار المعاصي القبيحة:

أنها تورث الذل، وكان من دعاء بعض السلف: "اللَّهُمَّ أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك".١٤٦، بتصرف.

٥٤- قال الحسن البصري: "إنهم – وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين -؛ إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه".١٤٦.

٥٥- وقال عبدالله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميت القلوبَ ... وقد يورث الذلَّ إدمانُها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانُها

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سَوء ورُهبانُها.١٤٧.

٥٦- من آثار المعاصي القبيحة:

أنها تفسد العقل، فإن للعقل نورا، والمعصية تطفئ نور العقل، ولا بد، وإذا طفئ نوره؛ ضعف ونقص. ١٤٧، بتصرف.

٥٧- وقال بعض السلف: "ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله".١٤٧.

٥٨-من آثار المعاصي القبيحة:

أن الذنوب إذا تكاثرت؛ طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، قال: هو الذنب بعد الذنب. ١٤٨، بتصرف.

٥٩- القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف. فإن حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولّاه عدوّه، ويسوقه حيث أراد. ١٤٨.

٦٠- من آثار المعاصي القبيحة:

أنّ الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ. فإنّه لعن على معاصٍ، وغيرُها أكبرُ منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة. ١٤٩، بتصرف.

٦١- من آثار المعاصي القبيحة:

حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة حيث لم يتصف بصفات المدعو له بها في قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾. ١٥٢، بتصرف.

٦٢-من آثار المعاصي القبيحة:

العذاب الأخروي، وهو أصناف، منه: الضرب بالصخرة لمن يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن المكتوبة، ، وتقطيع الشدق لمن ينشر الكذب، والتنور للزناة، وإلقام الحجر لآكل الربا. ١٥٣، بتصرف.

٦٣-من آثار المعاصي القبيحة:

أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزروع، والثمار والمساكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ١٥٧، بتصرف.

٦٤-﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾:

والظاهر – الله أعلم – أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها. ١٥٩، بتصرف.

٦٥-ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يحل بها من الخسف، والزلازل، ومحق بركتها. ١٦٠.

٦٦-الأرض لما طهرت من المعاصي؛ ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر. ١٦٢.

٦٧-وأشرف الناس وأعلاهم همة: أشدهم غيرة على نفسه، وخاصته، وعموم الناس. ١٦٣.

٦٨-الغيرة أصلها: كراهة القبائح، وبغضها. ١٦٤.

٦٩-وإنما الممدوح: اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر. ١٦٥.

٧٠- ومن وافق الله في صفة من صفاته؛ قادته تلك الصفة إليه بزمامه، وأدخلته على ربه، وأدنته منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوبا له. ١٦٦.

٧١- إن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة تقوى، فتصير عزيمة، ثم تصير فعلاً، ثم تصير صفة لازمة، وهيئة ثابتة راسخة، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به. ١٦٧.

٧٢- أصل الدين: الغيرة، ومن لا غيرة له؛ لا دين له، فالغيرة:ءتحمي القلب، فتحمى له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش. ١٦٧.

٧٣-ومن عقوبات المعاصي:

ذهاب الحياء، الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابه؛ ذهاب الخير أجمعه. ١٦٨، بتصرف.

٧٤-حديث: «إذا لم تسحي، فاصنع ما شئت»:

فيه تفسيران:

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد.

والثاني: أن الفعل إذا لم تستح منه من الله، فافعله. ١٦٨، بتصرف.

٧٥- والحياء مشتق من الحياة، فمن لا حياء فيه؛ ميت في الدنيا، شقي في الآخرة. ١٧٠، بتصرف.

٧٦-ومن استحيا من الله عند معصيته؛ استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحي من معصيته؛ لم يستحي الله من عقوبته. ١٧٠.

٧٧-ومن عقوبات الذنوب:

أنها تضعف في القلب تعظيم الرب ﷻ، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد؛ لما تجرأ على معاصيه. ١٧٠، بتصرف.

٧٨-فعلى قدر محبة العبد لله يحبّه الناس.

٧٩-وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماتِه يعظّم الناس حرماته. ١٧١.

٨٠- فترى العاصي قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرّط في سعادته

الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذّة إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف!

أحلامُ نومٍ أو كظلّ زائل ... إنّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ . ١٧٣، بتصرف.

٨١- وأعظمُ العقوبات نسيانُ العبد لنفسه، فضيَّعَ من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به مَن عنه كلُّ الغنى، ومنه كلُّ العِوَض.

من كلّ شيء إذا ضيّعتَه عوضٌ ... وما من الله إنْ ضيّعتَه عوضُ. ١٧٣، بتصرف.

٨٢- ومن عقوبات المعاصي:

أنّها تُخرِجُ العبدَ من دائرة الإحسان، وتمنعه ثوابَ المحسنين. فإنّ الإحسان إذا باشر القلبَ منَعَه من المعاصي. ١٧٤، بتصرف.

٨٣-الإيمان نحو مائة خصلة، كلُّ خصلة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها: فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]. ١٧٥، بتصرف.

٨٤-الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان. ١٧٧.

٨٥-فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب. والقلب إنّما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيّره. فإن زالت بالكلّية انقطع عن الله انقطاعًا يبعُد تداركُه. ١٧٨.

٨٦-فالذنب إما أن يميت القلب، أو يُمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قوته، ولا بدّ، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ. وهي: الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلَع الدَّين وغلبة الرجال. ١٧٨.

٨٧-المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقّعه أحدثَ الهمَّ، وإن كان

من أمر ماضٍ قد وقع أحدثَ الحزَنَ. ١٧٨.

٨٨- والعجز والكسل قرينان، فإنّ تخلّفَ العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل. ١٧٩.

٨٩-ومن عقوبات الذنوب أنها تُزيل النِّعم وتُحِلّ النِّقَم. فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: ما نزل بلاءً إلا بذنب، ولا رُفِعَ بلاءً إلا بتوبة. ١٧٩، بتصرف.

٩٠- فمن أطاع الله انقلبت المخاوفُ في حقّه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمِنُه مخاوفَ. فلا تجد العاصي إلا وقلبُه كأنّه بين جناحَي طائرٍ. ١٨٢.

٩١- فمن خاف الله آمنه من كلّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء.

بذا قضى اللهُ بين الناس مذ خُلِقوا ... أنّ المخاوفَ والإجرامَ في قَرَنِ. ١٨٢.

٩٢- وكلّما كثرت الذنوب اشتدّت الوحشة. وأمرُّ العيشِ عيشُ المستوحشين الخائفين، وأطيبُ العيش عيشُ المستأنسين.

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب * فدعها إذا شئت واستأنِس. ١٨٢.

٩٣-الطاعة تُوجب القربَ من الربّ، وكلّما اشتدّ القرب قوي الإنس؛ والمعصية توجب البعدَ من الربّ، وكلّما ازداد البعد قويت الوحشة. ١٨٣.

٩٤- والوحشة سببها الحجاب، وكلّما غلظ الحجاب زادت الوحشة. فالغفلة توجب الوحشة، وأشدُّ منها وحشةُ المعصية، وأشدُّ منها وحشةُ الشرك والكفر. ١٨٣.

٩٥- فإنّ تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وأدواؤها، ولا دواء لها إلا تركها. ١٨٤.

٩٦-وقد أجمع السائرون إلى الله أنّ القلوب لا تعطَى مُناها حتّى تصل إلى مولاها،

ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة. ١٨٤.

٩٧-وكما أنّ من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنّة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيمَ أهلها نعيمٌ البتة. ١٨٤.

٩٨-وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟.١٨٥.

٩٩- وكلّ شيء تعلّق به وأحبّه من دون الله فإنّه يسومه سوءَ العذاب. ١٨٥.

١٠٠-فكلّ من أحبّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به ثلاث مرّات في هذه الدار: فهو يعذَّب به قبل حصوله حتى يحصل. فإذا حصل عُذِّبَ به حالَ حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع المعارضات. فإذا سُلِبَه اشتدّ عذابُه عليه. ١٨٥.

[٣] (الفوائد)

١- وأعظمُ الإضاعات إضاعتان هُما أصلُ كلِّ إضاعةٍ: إضاعةُ القلب وإضاعةُ الوقت؛ فإضاعة القلب من إيثار الدُّنيا على الآخرة، وإضاعةُ الوقت من طول الأمل. ١٦٢، بتصرف.

٢- قَبولُ المَحلِّ لما يُوضع فيه مشروطٌ بتفريغه من ضدِّه، وهذا كما أنَّه في الذَّواتِ والأعيان؛ فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات. ٤١.

٣- إضاعة الوقت أشدُّ من الموت؛ لأنَّ إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموتُ يقطعك عن الدنيا وأهلها. ٤٤.

٤- الدُّنيا من أولها إلى آخرها لا تُساوي غمَّ ساعة؛ فكيف بغمِّ العُمر؟! ٤٤.

٥- محبوبُ اليوم يعقب المكروه غدًا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا. ٤٤.

٦- أعظم الرِّبْح في الدُّنيا أن تشتغل نفسك كلَّ وقتٍ بما هو أولى بها وأنفعُ لها في معادها. ٤٤.

٧- كيف يكون عاقلًا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟! ٤٤.

٨- لمَّا طلب آدمُ الخلود في الجنة من جانب الشجرة؛ عُوقِب بالخُروج منها، ولما طلب يوسفُ الخروج من السجن من جهة صاحب الرُّؤيا؛ لبث فيه بضع سنين. ٤٦.

٩- من عظُمَ وَقارُ الله في قلبهِ أن يعصيَهُ؛ وَقَّرَهُ الله في قلوب الخلق أن يُذِلُّوه. ٤٩.

١٠- إذا علقتْ شُروشُ المعرفة في أرض القلب؛ نبتت فيه شجرةُ المحبَّة؛ فإذا تمكَّنت وقويت أثمرت الطاعة، فلا تزالُ الشجرة ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم" ٢٥]. ٤٩.

١١- أولُ منازل القوم: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وأوسطُها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وآخرُها: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾[الأحزاب: ٤٤]. ٤٩.

١٢- أرضُ الفطرة رحبةٌ قابلةٌ لما يُغرسُ فيها؛ فإن غُرِستْ شجرةُ الإيمان والتَّقْوى أورثتْ حلاوةَ الأبد، وإن غرِستْ شجرة الجهل والهوى فكلُّ الثَّمَرِ مُرٌّ. ٤٩.

١٣- ارْجعْ إلى الله، واطلُبْهُ من عينك وسمعك وقلبك ولسانك، ولا تَشْرُدْ عنهُ من هذه الأربعة؛ فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلَّا منها، وما شرد من شرد عنه بخذلانِهِ إلَّا منها؛ فالمُوفَّقُ يَسمعُ ويُبصِرُ ويتكلَّمُ ويبطش بمولاه، والمخذول يصدُر منه ذلك بنفسه وهواه. ٤٩.

١٤- تالله ما نفعَهُ عند معصيته عزُّ ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤] ولا شرف ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣١]، ولا خصيصةُ ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، ولا فخرُ ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وإنما انتفع بذُلِّ ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]. ٥٢.

١٥- الذنوبُ جِراحاتٌ، ورُبَّ جُرْحٍ وقع في مقتل. ٥٥.

١٦- لو خرج عقلُك من سلطان هواك عادتِ الدولةُ له. ٥٥.

١٧- دخلتَ دار الهوى؛ فَقامرْتَ بعُمرِكَ. ٥٥.

١٨- إذا عرضتْ نظرةٌ لا تحلُّ فاعلم أنها مِسْعَرُ حَربٍ؛ فاستترْ منها بحجاب ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠]؛ فقد سَلِمتَ من الأثر، وكفى الله المؤمنين القتال. ٥٥.

١٩- بحرُ الهوى إذا مَدَّ أغرق، وأخوفُ المَنافذِ على السابح فتحُ البصر في الماء.

ما أحدٌ أكرَمَ مِنْ مُفْرِدٍ ... في قَبْرِهِ أعْمالُهُ تُؤْنِسُهْ

مُنَعَّمًا في القَبْرِ في رَوْضَةٍ ... ليْسَ كَعَبْدٍ قبْرُهُ مَحْبِسُهْ. ٥٥.

٢٠- على قَدْرِ فَضْلِ المرْءِ تأتي خُطوبُهُ ... ويُعْرَفُ عند الصَّبْر فيما يُصيبُهُ
ومنْ قلَّ فيما يتَّقيه اصطبارُهُ فقد قلَّ ممَّا يرتجيه نصيبُهُ. ٥٥

٢١- كم قُطِعَ زَرعٌ قبل التَّمام؛ فما ظنُّ الزَّرعِ المستحصد. ٥٥.

٢٢- اشترِ نفسَك؛ فالسوقُ قائمةٌ، والثمنُ موجودٌ. ٥٥.

٢٣- لا بدَّ من سِنَةِ الغفلة ورُقادِ الهوى، ولكن كُنْ خفيفَ النوم؛ فحُرَّاسُ البلد يصيحون: دنا الصباحُ!. ٥٥.

٢٤-نورُ العقل يُضيء في ليل الهوى، فتلُوحُ جادَّةُ الصواب، فيتلمَّحُ البصيرُ في ذلك النور عواقبَ الأمور. ٥٥.

٢٥- اخرُجْ بالعزم من هذا الفِنَاء الضَّيِّق المحشُوِّ بالآفات إلى ذلك الفِنَاء الرَّحبِ الذي فيه ما لا عينٌ رأتْ؛ فهناك لا يتعذَّرُ مطلوبٌ ولا يُفْقَدُ محبوبٌ. ٥٥.

٢٦-لا إله إلا الله سلعةٌ، الله مشتريها، وثمنُها الجنةُ، والدَّلَّالُ الرسولُ؛ تَرضى ببيعها بجزءٍ يسيرٍ مما لا يُساوي كلُّه جَناح بَعوضة؟!

إذا كان شيءٌ لا يُساوي جميعُهُ جَناحَ بعوضٍ عند من صِرتَ عبدَهُ
ويملك جُزءٌ منهُ كُلَّكَ ما الَّذي يكون على ذا الحال قدرُكَ عندَهُ
وبِعتَ به نفسًا قد استامها بما لديه من الحُسْنى و [قد] زال وُدُّهُ. ٥٥

٢٧-يا مُخنَّثَ العزم! أين أنت؛ والطريقُ طريقٌ تعبَ فيه آدمُ، وناحَ لأجلِهِ نوحٌ، ورُمِيَ في النار الخليلُ، وأُضْجِعَ للذبح إسماعيلُ، وبِيع يوسفُ بثمنٍ بَخْس ولَبِث في السجن بضعَ سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكرِيَّا، وذُبح السيدُ الحصورُ يحيى، وقاسَى الضُّرَّ أيوبُ، وزاد على المقداربكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقرَ وأنواعَ الأذى محمدٌ ﷺ؛ تُزْهَى أنت باللهوِ واللعب؟!

فيـا دارَهـا بِـالحَزْنِ إنَّ مزارَهـا قريبٌ ولكن دون ذلك أهـوالُ. ٥٥.

٢٨-الحربُ قائمةٌ، وأنت أعزلُ في النظَّارةِ؛ فإن حرَّكْتَ رِكابَكَ فللهزيمةِ. ٥٥.

٢٩-من لم يُباشِرْ حَرَّ الهجيرِ في طِلابِ المجد؛ لم يَقِلْ في ظِلال الشرف.

تقولُ سُـلَيمى لـوْ أقمْـتَ بِأرْضِـنا ولم تَـدْرِ أنِّي للمُقـامِ أطـوِّفُ. ٥٥.

٣٠- قيلَ لبعض العُبَّاد: إلى كم تُتعِبُ نفسَك؟! فقال: راحتَها أريدُ. ٥٥.

٣١- يا مُكَرَّمًا بحُلَّةِ الإيمانِ بعد حُلَّة العافية وهو يُخْلِقُهُما في مخالفة الخالق! لا تُنْكِرِ السَّلْبَ؛ يَستحقُّ من استعمل نعمةَ المنعِم فيما يكرهُ أن يُسْلَبَها. ٥٥.

٣٢-عَرائسُ الموجوداتِ قد تزيَّنَتْ للناظرين؛ لِيَبْلُوَهُم أيُّهم يُؤثِرُهُنَّ على عرائس الآخرة؛ فمن عرفَ قدْرَ التفاوتِ آثَرَ ما ينبغي إيثارُهُ.

وحِسـانُ الكـوْنِ لمَّـا أنْ بَـدَتْ أقْبَلَـتْ نَحْـوي وقالَـتْ لي إلَيّ

فتعامَيـتُ كـأنْ لَـمْ أرَهـا عنْدَما أبْصَـرْتُ مَقْصـودي لَدَيّ. ٥٥.

٣٣- كواكِبُ هِمَم العارفين في بُروجِ عَزائمِهِم سيارةٌ ليس فيها زُحَلٌ. ٥٥.

٣٤- قيل للحسن: سَبَقَنا القومُ على خيلٍ دُهْم، ونحنُ على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ، فقال: إن كنتَ على طريقِهِم؛ فما أسرعَ اللَّحاقَ بهم! ٥٥.

٣٥- من فَقَدَ أُنْسَهُ بالله بين الناس ووجدَه في الوَحْدَةِ؛ فهو صادقٌ ضعيفٌ، ومن وجدَهُ بين الناس وفقدَهُ في الخلوة؛ فهو معلولٌ، ومن فقدَهُ بين الناس وفي الخلوة؛ فهو ميتٌ مطرودٌ، ومن وَجَدَهُ في الخلوةِ وفي الناس؛ فهو المحبُّ الصادقُ القويُّ في حالِهِ. ٥٥.

٣٦- فأشرفُ الأحوالِ أن لا تختارَ لنفسِكَ حالةً سوى ما يختارُهُ لك ويُقِيمُكَ فيه؛ فكنْ مع مرادِهِ منكَ، ولا تكنْ مع مرادِكَ منه. ٥٥.

٣٧- مصابيحُ القلوبِ الطاهرةِ في أصل الفطرة مُنِيرةٌ قبل الشرائع، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] ٥٥.

٣٨- رأى بعضُ الحكماءِ بِرْذَوْنًا يُسْقَى عليه، فقال: لو هَمْلَجَ هذا لَرُكِبَ. ٥٩.

٣٩- [متى همَّتْ] أقدامُ العزم بالسُّلوكِ انْدَفَع من بينِ أيديها سدُّ القواطع. ٥٩.

٤٠- القواطعُ مِحَنٌ يتبيَّنُ بها الصادقُ من الكاذبِ؛ فإذا خُضْتَها انقلبتْ أعوانًا لك توصِلُك إلى المقصودِ. ٥٩.

٤١- طائرُ الطبع يرى الحَبَّة، وعينُ العقل ترى الشَّرَك؛ غير أنَّ عينَ الهوى عمياءُ.

وَعَينُ الرِّضى عَنْ كُل عَيْبٍ كَليلةٌ ... كما أنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبْدي المساويا. ٦١.

٤٢- تزخرفت الشَّهواتُ لأعين الطِّباع، فغَضَّ عنها الذين يؤمنون بالغيب، ووقِعَ تابعوها في بَيداءِ الحسرات؛ فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥]، هؤلاء يُقالُ لهم: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾ [المرسلات: ٤٦]. ٦١.

٤٣-من أعجبِ الأشياءِ: أن تعرِفَه ثم لا تحبَّهُ، وأن تسمع داعِيَهُ ثم تتأخَّر عن الإجابة، وأن تعرفَ قدرَ الربح في معاملتِهِ ثم تعامل غيرَهُ، وأن تعرف قدْر غضبهِ ثم تتعرَّض له، وأن تذوقَ ألمَ الوَحْشةِ في معصيتِهِ ثم لا تَطْلُبَ الأنسَ بَطاعتِهِ، وأن تذوقَ عُصْرةَ القلبِ عند الخوْض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصَّدْرِ بذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، وأن تذوقَ العذابَ عند تعلُّق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!! وأعجبُ من هذا علمُك أنَّك لا بدَّ لك منهُ وأنَّك أحوجُ شيءٍ إليه وأنت عنه مُعْرِضٌ وفيما يُبعِدُك عنه راغبٌ!! ٦٢.

٤٤- لما رأى المتيقِّظون سطوةَ الدُّنيا بأهلها، وخداعَ الأملِ لأربابهِ، وتملُّك الشيطانِ قيادَ النُّفوس، ورأوا الدولة للنفس الأمَّارةِ؛ لجأوَا إلى حصنِ التضرُّع والالتجاءِ؛ كما يأوي العبدُ المذعورُ إلى حَرَمِ سيِّدِهِ. ٦٣.

٤٥- شهواتُ الدُّنيا كلُعَبِ الخيال، ونظرُ الجاهل مقصورٌ على الظاهر، فأمَّا ذو العقل فيرى ما وراء السِّتْرِ. ٦٤.

٤٦-لاحَ لهمُ حَبُّ المشتهَى، فلما مدُّوا أيدي التناول؛ بانَ لأبصارِ البصائرِ خيطُ الفخِّ، فطاروا بأجنحةِ الحَذَرِ، وصوَّبوا إلى الرحيل الثاني: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [يس: ٢٦]. ٦٤.

٤٧- تلمَّحَ القومُ الوجودَ، ففهِموا المقصودَ، فأجمعوا الرحيلَ قبل الرحيل، وشمَّروا للسيرِ في سواءِ السبيل؛ فالناسُ مشتغلون بالفضلاتِ، وهم في قطع الفلواتِ، وعصافيرُ الهوى في وَثاقِ الشبكةِ ينتظرونَ الذبحَ. ٦٤.

٤٨-ما مضى من الدُّنيا أحلامٌ، وما بقي منها أمانيٌّ، والوقتُ ضائعٌ بينَهما. ٦٤.

٤٩-اشترِ نفسَك اليومَ؛ فإنَّ السوقَ قائمةٌ، والثمنَ موجودٌ، والبضائع رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تَصِلُ فيه إلى قليل ولا كثير، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۖ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان: ٢٧].

إذا أنْتَ لمْ تَرْحَلْ بزادٍ مـن التُّـقى ... وأبْصَرْتَ يومَ الحَشْرِ منْ قَدْ تَـزوَّدا

نَدِمْتَ على أنْ لا تكـون كَمِثْلِـه ... وأنَّكَ لمْ تُرْصِدْ كما كان أرْصَدا. ٦٦.

٥٠- من تلمَّحَ حلاوة العافية هان عليه مرارةُ الصَّبرِ. الفوائد ٦٧.

٥١-أَلِفْتَ عَجْزَ العادةِ؛ فلو عَلَتْ بك هِمَّتكَ رُبا المعالي؛ لاحتْ لك أنوارُ العزائم. ٦٧.

٥٢- إنَّما تفاوَتَ القومُ بالهِمَم لا بالصُّوَرِ. الفوائد ٦٧.

٥٣-بينَك وبين الفائزينَ جبلُ الهوى، نزلوا بين يديهِ ونزلْتَ خَلْفَهُ؛ فاطْوِ فَضْلَ منزل تَلْحَقْ بالقوم. ٦٧.

٥٤-في الطبع شَرَهٌ، والحِميةُ أوفقُ. ٦٧.

٥٥-لصُّ الحرص لا يمشي إلا في ظلام الهوى. ٦٧.

٥٦-حَبَّةُ المشتَهى تحتَ فَخِّ التَّلَفِ؛ فتفكَّرْ في الذبح؛ وقد هان الصَّبْرُ. ٦٧.

٥٧-قوةُ الطَّمع في بلوغ الأمل تُوجبُ الاجتهادَ في الطلبِ وشدةَ الحَذَرِ من فَوْتِ المأمول. ٦٧.

٥٨-غَرْسُ الخَلْوَةِ يُثْمِرُ الأنسَ. ٦٨.

٥٩- استوحِشْ مما لا يدومُ معكَ، واستأنِسْ بمَن لا يفارِقُك. ٦٨.

٦٠- إذا اجتمع العقلُ واليقينُ في بيتِ العُزْلَةِ، واستَحْضَرا الفكرَ، وجرتْ بينَهم مناجاةٌ:

أتـاكَ حـديثٌ لا يُمَـلُّ سَـماعُهُ ... شَـهِيٌّ إلَينـا نَـثْرُهُ ونِظامُـهُ

إذا ذَكَرَتْـهُ النَّفْـسُ زال عَناؤهـا ... وزال عَنِ القلبِ المُعَنَّى ظلامُهُ. ٦٨.

٦١-إذا طَلَعَ نجمُ الهِمَّةِ في ظلام ليل البَطالةِ، ورَدِفَهُ قمرُ العزيمةِ؛ أشرقتْ أرضُ القلبِ بنورِ ربِّها. ٦٩.

٦٢-يا مستفْتِحًا بابَ المعاشِ بغيرِ إقليدِ التَّقوى! كيفَ تُوسِعُ طريقَ الخطايا وتَشْكو ضِيقَ الرِّزْقِ؟! ٦٩.

٦٣- لو وَقَفْتَ عند مرادِ التَّقوى لم يَفُتْكَ مرادٌ. ٦٩.

٦٤-المعاصي سَدٌّ في باب الكسبِ، و"إنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْب يُصيبُهُ".

تَـــاللهِ مـــا جِئْـــتُكُمُ زائـــرًا إلَّا وَجَـــدْتُ الأرْضَ تُطْـــوَى لِيْ

ولا انْثـنَى عَـزْمِيَ عـن بـابِكُمْ إلَّا تَعَـــــثَّرْتُ بأذْيـــــالي. ٦٩.

٦٥-الأرواحُ في الأشباح كالأطيار في الأبراج، وليسَ ما أُعِدَّ للاستفراخ كمن هُيِّئَ للسِّباق. ٦٩.

٦٦-من أراد من العمَّالِ أن يَعرِفَ قدرَه عند السلطان فلينظر ماذا يُوليهِ مِن العمل؟ وبأيِّ شُغْلٍ يَشْغَلُهُ؟ ٦٩.

٦٧- كُنْ من أبناءِ الآخرةِ، ولا تكُنْ من أبناءِ الدُّنيا؛ فإنَّ الولد يَتْبَعُ الأمَّ. ٦٩.

٦٨-الدُّنيا لا تُساوي نَقْل أقدامِكَ إليها؛ فكيف تَعْدو خلفَها؟! ٦٩.

٦٩- الدُّنيا جيفةٌ، والأسدُ لا يقعُ على الجِيَفِ. ٦٩.

٧٠- الدُّنيا مجازٌ، والآخرةُ وطنٌ، والأوطارُ إنَّما تُطلَبُ في الأوطان. ٦٩.

٧١- اللذةُ تابعةٌ للمحبَّةِ؛ تَقْوى بقوَّتِها، وتَضْعُفُ بضَعْفِها؛ فكلَّما كانت الرغبةُ في المحبوب والشوقُ إليه أقوى كانتِ اللَّذَّةُ بالوصول إليه أتمَّ. ٧٣.

٧٢-والمحبةُ والشوقُ تابعٌ لمعرفتِهِ والعلم به؛ فكلَّما كان العلمُ به أتَمَّ؛ كانتْ محبتُهُ أكملَ. ٧٣.

٧٣-رجع كمالُ النعيم في الآخرة وكمالُ اللَّذَّةِ إلى العلم والحُبِّ؛ فمَن كان بالله وأسمائِهِ وصفاتِهِ ودينهِ أعرف كان له أحبَّ، وكانت لذَّتُه بالوصول إليه ومجاورتِهِ والنظرِ إلى وجهِهِ وسماع كلامِهِ أتمَّ. ٧٣.

٧٤-وكمالُ العبدِ بحسب هاتين القوتين: العلم والحبِّ، وأفضلُ العلم العلمُ بالله، وأعلى الحبِّ الحبُّ له، وأكملُ اللَّذَّةِ بحَسَبهما. ٧٣.

٧٥-طالبُ اللَّهِ والدارِ الآخرة لا يستقيم له سَيرُه وطلبُه إلا بحَبْسَين: حبسُ قلبه في

طلبه ومطلوبه، وحبسُهُ عن الالتفات إلى غيره. ٧٣.

٧٦-فكلُّ خارجٍ من الدُّنيا: إما متخلِّصٌ من الحبس، وإما ذاهبٌ إلى الحبس. ٧٣.

٧٧-وَدَّع ابنُ عونٍ رجلًا فقال: عليك بتقوى الله؛ فإنَّ المتَّقي ليست عليه وَحْشَةٌ. ٧٣.

٧٨-وقال زيدُ بنُ أسلم: كان يُقالُ: من اتَّقى الله أحبَّهُ الناس وإنْ كرِهوا . ٧٣.

٧٩-وقال الثوريُّ لابن أبي ذئبٍ: إن اتَّقَيْتَ الله كفاك الناس، وإن اتقيتَ الناسَ لن يُغْنوا عنك من الله شيئًا . ٧٣.

٨٠-وقال سليمان بن داود: أُوتينا ممَّا أوتِيَ الناس وممَّا لم يُؤْتَوْا، وعُلِّمْنا مما عُلِّمَ الناسُ ومما لم يُعَلَّموا، فلم نجد شيئًا أفضل من تقوى الله في السرِّ والعلانية، والعدلِ في الغضبِ والرِّضى، والقصدِ في الفقرِ والغنى. ٧٣.

٨١-الطريقُ إلى الله خالٍ من أهل الشَّكِّ ومن الذين يتَّبِعونَ الشَّهواتِ، وهو معمورٌ بأهل اليقين والصَّبْر، وهم على الطَّريقِ كالأعلام، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. ٧٧.

٨٢-فَرِّغْ خاطِرَكَ للهَمِّ بما أُمِرْتَ به، ولا تَشْغَلْهُ بما ضُمِنَ لك؛ فإنَّ الرزق والأجل قرينانِ مضمونان؛ فما دام الأجلُ باقيًا كان الرزق آتيًا، وإذا سدَّ عليك بحكمتِهِ طريقًا من طرقِهِ؛ فتحَ لك برحمتِهِ طريقًا أنفعَ لك منه. ٧٩.

٨٣-الربُّ سبحانه؛ لا يمنعُ عبدَه المؤمنَ شيئًا من الدُّنيا إلا ويُؤتيهِ أفضلَ منه وأنفعَ له، وليس ذلك لغير المؤمن، فإنَّه سبحانه يمنعُهُ الحظَّ الأدنى الخسيسَ ولا يَرضى لهُ به؛ ليُعطِيَهُ الحظَّ الأعلى النفيسَ. ٧٩.

٨٤-والعبدُ -لجهلِهِ بمصالح نفسه، وجهلِهِ بكرم ربِّه وحكمتِهِ ولطفِهِ- لا يَعرِفُ

التفاوتَ بين ما مُنِعَ منه وبين ما ذُخِرَ له، بل هو مولعٌ بحبِّ العاجل وإن كان دَنِيًّا، وبقلَّةِ الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا. ٧٩.

٨٥-ولو أنصف العبدُ ربَّه -وأنَّى له بذلك- لعَلِمَ أنَّ فضله عليه فيما منَعهُ من الدُّنيا ولذَّاتها ونعيمها أعظمُ من فضلِهِ عليه فيما آتاه من ذلك؛ فما منَعه إلا ليُعْطِيَهُ، ولا ابتلاهُ إلَّا ليُعافيَهُ، ولا امتحنَهُ إلا لِيُصافيهُ، ولا أماتَهُ إلا ليُحْييَهُ، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهَّبَ منها للقدوم عليه وليسلُكَ الطريقَ الموصلةَ إليه.

فـ ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: ٩٩]. ٧٩.

٨٦- مَن عرفَ نفسَه اشتغلَ بإصلاحها عن عُيوبِ الناس، ومن عرفَ ربَّهُ اشتغل به عن هوى نفسه. ٨٠.

٨٧- دخل الناسُ النارَ من ثلاثة أبوابٍ: باب شبهةٍ أورثتْ شكًّا في دين الله، وباب شهوةٍ أورثتْ تقديمَ الهوى على طاعتِه ومرضاتِه وباب غضبٍ أورثت العدوان على خلقه. ٨٠.

٨٨- أصولُ الخطايا كلِّها ثلاثةٌ: الكبْرُ: وهو الذي أصار إبليسَ إلى ما أصارهُ، والحِرْصُ: وهو الذي أخرج آدم من الجنَّة، والحسدُ: وهو الذي جَرَّأ أحدَ ابنَي آدمَ على أخيهِ؛ فمنْ وُقِي شَرَّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشَّرَّ؛ فالكفرُ من الكِبر، والمعاصي من الحِرْص، والبَغْيُ والظُّلْمُ من الحسد. ٨٠.

٨٩- أخسرُ الناسِ صفقةً من اشْتَغَلَ عن الله بنفسِهِ، بل أخسرُ منه من اشْتَغَلَ عن نفسِهِ بالناس. ٨١.

٩٠- ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

عَلَّقَ سبحانَه الهدايةَ بالجهادِ؛ فأكملُ الناسِ هدايةً أعظمُهم جهادًا، وأقرضُ الجهادِ جهادُ النفس وجهادُ الهوى وجهادُ الشيطان وجهادُ الدُّنيا؛ فمنْ جاهدَ هذه الأربعةَ في الله هداه الله سُبلَ رضاهُ الموصلة إلى جنَّتِهِ، ومن تركَ الجهادَ فاتَهُ من الهُدى بحسب ما عطَّلَ من الجهاد. ٨٢.

٩١- قال الجنيدُ: والذين جاهدوا أهواءَهم فينا بالتوبةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الإخلاص. ٨٢.

وقال:

٩٢- وأعلى الهِمَم في باب الإرادة أنْ تكونَ الهِمَّةُ متعلقةً بمحبة الله والوقوفِ مع مرادِهِ الدينيِّ الأمريِّ، وأسفلُها أن تكون الهمَّةُ واقفةً مع مرادِ صاحِبها من الله؛ فهو إنما يعبدُهُ لمُرادِهِ منه لا لمرادِ الله منه؛ فالأولُ يريدُ اللهَ ويريدُ مرادَهُ، والثاني يريدُ من الله وهو فارغٌ عن إرادتِهِ. ٨٥.

٩٣- يا مغرورًا بالأماني! لُعِنَ إبليسُ وأُهْبطَ من منزل العزِّ بتَرْكِ سجدةٍ واحدةٍ أُمِر بها، وأخْرَجَ آدم من الجنَّةِ بلُقمةٍ تناوَلَها، وحَجَبَ القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملءِ كفٍّ من دم، وأمرَ بقتل الزَّاني أشنعَ القِتْلاتِ بإيلاج قَدْرِ الأُنْمُلَةِ فيما لا يَحِلُّ، وأمَرَ بإيساع الظَّهْرِ سياطًا بكلمةِ قذفٍ أو بقطرةٍ من مُسْكِرٍ، وأبانَ عُضوًا من أعضائكَ بثلاثةِ دراهم؛ فلا تأمَنْهُ أن يَحبِسَكَ في النارِ بمعصيةٍ واحدةٍ من معاصيهِ؛ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾. ٨٧.

٩٤-لا كانَ مَنْ لِسِواك فيهِ بَقِيَّةٌ ... يَجِدُ السَّبيلَ بِها إليهِ العُذَّلُ الفوائد ٨٨.

٩٥- لمَّا سَلِمَ لآدمَ أصلُ العبودية لمَ يقْدَحْ فيه الذنبُ.

٩٦- "ابْنَ آدمَ! لوْ لَقِيتَني بقُرابِ الأرض خطايا، ثُمَّ لقيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا؛ لقيتُكَ بِقُرابِها مغفرةً":

لمَّا عَلِمَ السيِّدُ أنَّ ذنبَ عبدِهِ لم يكنْ قصدًا لمخالفتِهِ ولا قدحًا في حكمتِهِ؛ علَّمَهُ كيف يعتذرُ إليه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]. ٩٣.

٩٧- التوبةُ من الذنب كشُرْبِ الدواءِ للعليل، ورُبَّ عِلّةٍ كانت سببَ الصحة!

لعــلَّ عَتْبَــكَ مَحْمــودٌ عواقِبُــهُ ورُبَّما صَـحَّتِ الأجْسـادُ بالعِلَـلِ

٩٨-لولا تقديرُ الذنب هلكَ ابنُ آدمَ من العُجْبِ. ٩٣.

٩٩- ذنبٌ يَذِلُّ به أحبُّ إليه من طاعةٍ يُدِلُّ بها عليه. ٩٣.

١٠٠- لا يُكرِمُ العبدُ نفسَه بمثلِ إهانتِها، ولا يُعِزُّها بمثلِ ذُلِّها، ولا يُرِيحُها بمثل تَعبِها؛ كما قيل:

سأُتْعِبُ نَفْسِي أو أصادِفَ راحةً ... فإنَّ هَوانَ النَّفْسِ في كَرَمِ النَّفْسِ ٩٥.

١٠١-شرابُ الهوى حلوٌ ولكنَّه يورِثُ الشَّرَقَ. ٩٥.

[٤] (كتاب الصلاة)

١- لا يختلف المسلمون أنَّ ترك الصَّلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذُّنُوب، وأكبر الكبائر. وأنَّ إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النَّفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزِّنا، والسَّرقة، وشرب الخمر. وأنَّه متعرِّضٌ لعقوبة الله وسخطه وخِزْيه في الدُّنيا والآخرة. ٥. ، وما بعدها، ٤١، ١٠٧، ١١٨، ١٢٣، ٢٠٧، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٨٩.

٢- جمهور العلماء يقولون بقتل من ترك الصلاة متعمدا بالسيف ضربا في عنقه، واحتجاجهم بقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم؛ فأحسنوا القتلة»، وضرب العنق بالسيف أحسن القتلات، وأسرعها إزهاقا للنفس.

وقال أبو حنيفة في آخرين: يحبس حتى يموت، أو يتوب، ولا يقتل، ومن أدلتهم: أنها من الشرائع العملية، ولأنه غير مشرك. ٦، بتصرف.

٣- احتج الحنفية بعدم قتل تارك الصلاة بما رواه أبو هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قال: "أُمِرتُ أنْ أقاتل النَّاس حتى يقولوا: لا إله إلَّا الله، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم، إلَّا بحقها"، واحتج عليهم بأن الصلاة من آكد حقوق الإسلام. ٨، ١٣، بتصرف.

٤- احتج الحنفية بعدم قتل تارك الصلاة بقوله – عليه الصلاة والسلام -: "لا يحلُّ دم امريءٍ مسلمٍ إلَّا بإحدى ثلاثٍ، الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة"، وهو للجمهور عليهم؛ فإنَّه جعل منهم التَّارك لِدِينه، والصلاة ركن الدِّين الأعظم، ولا سيِّما إنْ قلنا بأنَّه كافر، فقد تَرَك الدِّينَ بالكليَّة، وإنْ لم

نكفِّره فقد تَرَك عمود الدِّين. ٨، ١٣، بتصرف.

٤- استدل الموجبون لقتل تارك الصلاة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة/٥]. فأَمَرَ بقتلهم حتى يتوبوا من شِرْكهم، ويقيموا الصَّلاة، ويؤتوا الزَّكاة. ٨، بتصرف.

٥- قال الإمام أحمد: وقد جاء في الحديث: "لا حَظَّ في الإسلام لمن ترك الصَّلاة". ١٤.

٦- وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى الآفاق: "إنَّ مِنْ أهمِّ أموركم عندي الصَّلاة؛ فمَنْ حفظها حفظ دِيْنَه، ومن ضيَّعَها فهو لِما سواها أضْيع، ولاحظَّ في الإسلام لمن تَرَك الصَّلاة". ١٤.

٧- قال أحمد: فكُلُّ مستخِفٍّ بالصَّلاة مستهينٍ بها؛ فهو مستخفٌّ بالإسلام، مستهينٌ به.

وإنَّما حظُّهم من الإسلام على قدر حظِّهم من الصَّلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصَّلاة.

فاعْرف نفسك يا عبدالله، واحْذر أنْ تَلْقَى الله ولا قدر للإسلام عندك؛ فإنَّ قَدْر الإسلام في قلبك كقَدْر الصَّلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الصَّلاة عمود الإسلام».

أَلَسْتَ تعلمُ أنَّ الفُسْطاط إذا سقط عموده سقط الفُسْطاط ولم يُنْتَفع بالطُّنُب ولا بالأوتاد، وإذا قام عمود الفُسْطاط انْتُفِع بالطُّنُب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء الحديث: «إنَّ أوَّل ما يُسْأل عنه العبدُ يوم القيامة مِن عمله صلاته؛ فإنْ

تُقبِّلَت منه صلاتُه تُقُبِّل منه سائرُ عمله، وإنْ رُدَّت عليه صلاته رُدَّ عليه سائرُ عمله».

فصلاتُنا آخر دينِنا، وهي أول ما نُسْأل عنه غدًا من أعمالنا يوم القيامة. فليس بعد ذهاب الصلاة إسلامٌ ولا دينٌ، إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام. هذا كلُّه كلام أحمد. ١٤.

٨- والصَّلاة أول فُروض الإسلام، وهي آخر ما يُفْقَد من الدِّين، فهي أول الإسلام وآخره، وكُلُّ شيءٍ ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه. ١٦.

٩- قال الإمام أحمد: كُلُّ شيءٍ يذهب آخره فقد ذهب جميعُه. فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينُه. ١٧.

١٠- فالمشهور أنَّ تارك الصلاة يُسْتَتاب، فإنْ تاب تُرِك، وإلَّا قُتِل. هذا قول الشَّافعي، وأحمد، وأحد القولين في مذهب مالك. ١٧، بتصرف.

١١- القول الصَّحيح استتابة تارك الصلاة؛ لأنَّ أسوأ أحواله أن يكون كالمرتدِّ. وقد اتَّفق الصَّحابة على قبول توبة المرتدِّين ومانعي الزَّكاة، وقد قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال/٣٨]. وهذا يعمُّ المرتدَّ وغيره. ٢٠، بتصرف.

١٢- تارك الصلاة لا يقتل حتى يدعى إلى فعلها، فيمتنع، ويقتل بترك صلاة واحدة، وهو مذهب مالك والثوري، وظاهر مذهب الشافعي وأحمد.

ومن أدلتهم: ما روى معاذ بن جبل ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَك صلاةً مكتوبةً متعمِّدًا فقد بَرِئت منه ذِمَّةُ الله». رواه الإمام أحمد.

ولذلك أذن النَّبيُّ ﷺ في الصلاة نافلةً خلف الأمراء الذين يؤخِّرُون الصلاة حتى يخرج الوقت، ولم يأمر بقتالهم، ولم يأذن في قتلهم؛ لأنَّهم لم يصرُّوا على التَّرك. ٢١، ٢٢، ٢٥.

١٣- قال الشيخ أبو البركات: من دُعِي إلى صلاةٍ في وقتها، فقال: لا أصلِّي، وامتنع حتى فاتت وجب قتلُه، وإنْ لم يتضيَّق وقت الثَّانية، نصَّ عليه. قال: وإنَّما اعتبرنا تضايق وقت الثانية في المثال الذي ذكره ـ يعني: أبا الخطَّاب ـ لأنَّ القتل بتركها دون الأولى؛ لأنَّه لمَّا دُعِي إليها كانت فائتةً، والفوائت لا يقتل تاركها.

ولفظ أبي الخطَّاب الذي أشار إليه: فإن أخَّر الصَّلاة حتى خرج وقتها جاحدًا لوجوبها كَفَر، ووجب قتله.

فإنْ أخَّرها تهاونًا ـ لا جُحودًا لوجوبها ـ دُعِيَ إلى فِعلها، فإنْ لم

يفعلها حتى تضايق وقت التي بعدها وجب قتلُه. فالتي أخَّرها تهاونًا هي التي أخَّرها حتى خرج وقتها، فدُعِي إليها بعد خروج وقتها؛ فإذا امتنع من فعلها حتى تضايق وقت الآخرة التي بعدها كان قتله بتأخير الصلاة التي دُعِي إليها حتى تضايق وقتها. هذا تقرير ما ذكره الشيخ.

قال: وقال بعض أصحابنا: يُقْتل لترك الأولى، ولترك قضاء كُلِّ فائتةٍ إذا أمكنه من غير عذرٍ؛ لأنَّ القضاء عندنا على الفور. فعلى هذا لا يعتبر تضايق وقت الثَّانية.

قال: والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّ قضاء الفوائت موسَّعٌ على التَّراخي عند الشافعي وجماعة من العلماء، والقتل لا يجب لمختلفٍ في إباحته وحظره.

وعن أحمد روايةٌ أخرى، أنَّه إنَّما يجب قتله إذا ترك ثلاث صلواتٍ

وتضايق وقت الرَّابعة. وهذا اختيار الإصْطَخْرِي من الشَّافعية.

ووجه هذا القول: أنَّ الموجب للقتل هو الإصرار على ترك الصلاة، والإنسان قد يترك الصلاة والصَّلاتين لكسلٍ، أوضجَرٍ، أوشغلٍ يزول قريبًا ولا يدوم؛ فلا يُسَمَّى بذلك تاركًا للصلاة. فإذا تكرَّر التَّرك مع الدُّعاء إلى الفعل عُلِم أنَّه إصرارٌ.

وعن أحمد روايةٌ ثالثةٌ: أنَّه يجب قتله بترك صلاتين.

ولهذه الرِّواية مأخذان:

أحدهما: أنَّ التَّرك الموجب للقتل هو التَّرك المتكرِّر، لا مطلق التَّرك، حتى يطلق عليه أنَّه تارك الصلاة، وأقل ما يثبت به الترك المتكرِّر مرَّتان.

المأخذ الثَّاني: أنَّ من الصَّلاة ما تُجْمَع إحداهنَّ إلى الأخرى، فلا يتحقَّق تركها إلَّا بخروج وقت الثانية، فجعل ترك الصَّلاتين موجبًا للقتل.

وأبوإسحاق وافق هذه الرِّواية في المجموعتين، ووافق رواية القتل بالواحدة في غير المجموعتين. ٢٦.

١٤- تارك الصلاة يقتل كفرا، كما يقتل المرتد والزنديق، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. والقول الثاني: يقتل حدا، وهو قول مالك والشافعي. ٤٠، بتصرف.

١٥- عن شُفَيٍّ بن ماتِع قال: "إنَّ في جهنَّم واديًا يُسَمَّى غيًّا، يسيل دمًا وقيْحًا، فهو لمن خُلِقَ له، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم/٥٩] ".

فوجه الدلالة من الآية: أنَّ الله سبحانه جعل هذا المكان من النَّار لمن أضاع الصَّلاة واتَّبَع الشَّهوات، ولو كان مع عُصاة المسلمين لكانوا في الطَّبقة العُلْيا من طبقات النَّار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو في أسفلها؛ فإنَّ هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام، بل من أمكنة الكُفَّار.

ومن الآية دليلٌ آخر: وهو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم/٥٩ - ٦٠]. فلو كان مضيِّع الصَّلاة مؤمنًا لم يشترط في توبته الإيمان؛ فإنَّه يكون تحصيلًا للحاصل. ٥٨.

١٦- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة/١١]. فعلَّق أخوَّتهم للمؤمنين بفعل الصَّلاة، فإذا لم يفعلوها لم يكونوا إخوة للمؤمنين، فلا يكونوا مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/١٠]. ٥٩.

١٧- قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة/٣١ - ٣٢]. فلمَّا كان الإسلام تصْديق الخبر والانقياد للأمر جعل سبحانه له ضِدَّين؛ عدم التَّصْديق، وعدم الصَّلاة. وقابَلَ التَّصْديقَ بالتَّكذيب، والصَّلاة بالتَّوَلِّي، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾[القيامة/٣٢].

فكما أنَّ المكذِّب كافرٌ فالمتولِّي عن الصَّلاة كافرٌ، وكما يزول الإسلام بالتَّكذيب يزول بالتولِّي عن الصَّلاة. ٥٩.

١٨- قال سعيد عن قتادة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾: "لا صدَّق بكتاب الله، ولا صلَّى لله، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾: كذَّب بآيات الله، وتولَّى عن طاعته، ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥﴾: وعيدٌ على إثر وعيدٍ". ٦٠.

١٩- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون/٩]. قال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول: "هي الصَّلاة المكتوبة". ٦٠.

٢٠- الله حَكَم بالخُسْران المطلق على مَنْ ألْهَاهُ مالُه وولدُه عن الصَّلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلَّا للكفَّار؛ فإنَّ المسلم ولو خسر بذنوبه ومعاصيه فآخر أمره إلى الرِّبْح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون/٩]. ٦٠.

٢١- الله سبحانه وتعالى أكَّد خسران تارك الصلاة في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون/٩].

بأنواع من التأكيد، منها: : إتيانه بلفظ الاسم الدَّال على ثبوت الخسران ولزومه، دون الفعل الدَّال على التجدُّد والحدوث. ٦٠، بتصرف.

٢٢- الله سبحانه أكد خسران تارك الصلاة في الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون/٩]. بمؤكدات، منها: تصدير الاسم بالألف واللَّام، المؤذنة بحصول كمال المسمَّى لهم؛ فإنَّك إذا قلتَ: زيدٌ العالمُ الصَّالحُ، أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له، بخلاف قولك: عالمٌ صالحٌ. ٦١، بتصرف.

٢٣- من المؤكدات على خسران تارك الصلاة في الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون/٩]: إتيانه سبحانه بالمبتدأ والخبر معرفتين، وذلك من علامات انْحصار الخبر في المبتدأ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[البقرة/٥]، وقوله تعالى:﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة/٢٥٤]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ [الأنفال /٤]، ونظائره. ٦١، بتصرف.

٢٤- من المؤكدات على خسران تارك الصلاة في الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون/٩]: إدخاله ضمير الفصْل بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين؛ قوة الإسناد، واختصاص المسنَد إليه بالمسند، كقوله: ﴿وَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الحج /٦٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة/٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف/٩٨]، ونظائر ذلك. ٦١، بتصرف.

٢٥- من أدلة كفر تارك الصلاة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة /١٥].

ووجه الاستدلال بالآية: أنَّه سبحانه نفى الإيمان عمَّن إذا ذُكِّر بآيات الله لم يخرَّ ساجدًا مسبِّحًا بحمد ربِّه، ومن أعظم التَّذكير بآياته التَّذكير بآيات الصَّلاة؛ فمن ذُكِّر بها فلم يتذكَّر ولم يصلِّ فلم يؤمن بها؛ لأنَّه سبحانه خصَّ المؤمنين بها بأنَّهم أهل السُّجود، وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه. فلم يؤمن بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة/٤٣]، إلَّا من التزم إقامتها. ٦٢، بتصرف.

٢٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المرسلات/٤٨ - ٤٩]، ذكر هذا بعد قوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات/٤٦]، ثمَّ توعَّدهم على ترك الرُّكوع ــ وهوالصَّلاة ــ إذا دُعُوا إليها. ولا يُقَال: إنَّما توعَّدَهم على التَّكذيب؛ فإنَّه سبحانه إنَّما أخبر عن تركهم لها، وعليه وَقَع الوعيد. ٦٢.

٢٧- يستحيل في العادة والطَّبيعة أنْ يكون الرجل مصدِّقًا تصديقًا جازمًا أنَّ الله سبحانه فرض عليه كُلَّ يومٍ وليلةٍ خمس صلوات، وأنَّه يعاقبه على تركها أشدَّ العقاب= وهو مع ذلك مصرٌّ على تركها؛ هذا من المستحيل قطعًا. ٦٣.

٢٨- فلا يحافظ على ترك الصلاة مصدِّقٌ بفرضها أبدًا؛ فإنَّ الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمره بها فليس في قلبه شيء من الإيمان. ٦٣، بتصرف.

٢٩- من أمحل المحال؛ أنْ يقوم بقلب العبد إيمانٌ جازمٌ لا يتقاضاه فعل طاعةٍ ولا ترك معصيةٍ. ٦٤.

٣٠- الإيمان هو التَّصديق، ولكن ليس التَّصديق مجرَّد اعتقاد صِدْق المخبر، دون الانقياد له. ولو كان مجرَّد اعتقاد التَّصديق إيمانًا لكان إبليس، وفرعون وقومه، وقوم صالح، واليهود الذين عرفوا أنَّ محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم =مؤمنين مصدِّقين! وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: يعتقدون أنَّك صادق ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام/٣٣]، والجحود لا يكون إلَّا بعد معرفة الحق.

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل/١٤]

وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء/١٠٢]. وقال تعالى عن اليهود: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/١٤٦]. ٦٤.

٣١- فالتَّصديق إنَّما يتمُّ بأمرين:

أحدهما: اعتقاد الصِّدق. والثَّاني: محبَّة القلب وانقياده.

ولهذا قال تعالى لإبراهيم: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات/١٠٥]. وإبراهيم كان معتقدًا لصِدْق رؤياهُ من حين رآها؛ فإنَّ رؤيا الأنبياء وحيٌ، وإنَّما جعله مصدِّقًا لها بعد أنْ فعل ما أُمِر به. ٦٦.

٣٢- قول النَّبيِّ ﷺ: «والفَرْج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». جَعَل التَّصديق عَمَل الفَرج ما تمنَّى القلب، والتَّكذيب تركه لذلك. وهذا صريحٌ في أنَّ التَّصديق لا يصحُّ إلَّا بالعمل. ٦٦، بتصرف.

٣٣- وقال الحسن: "ليس الإيمان بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكن ما وَقَر في القلب، وصدَّقه العمل". وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا. ٦٦.

٣٤- تارك المحافظة على الصَّلاة إمَّا أنْ يشغله ماله، أو ملكه، أو رياسته، أوتجارته؛ فمَنْ شَغَلَه عنها مالُه فهو مع قارون، ومن شَغَلَه عنها ملكُه فهو مع فرعون، ومن شَغَلَه عنها رياستُه ـ من وزارةٍ أوغيرها ـ فهو مع هامان، ومن شَغَلَه عنها تجارتُه فهو مع أُبَيِّ بن خلف. ٧٠.

٣٥- عن جابر بن عبدالله عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مفتاح الجنَّة الصلاة».

وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يكن من أهل الصَّلاة لم تفتح له الجنَّة، وهي تفتح لكُلِّ مسلمٍ؛ فليس تاركها مسلمًا.

ولا تناقض بين هذا وبين الحديث الآخر؛ وهو قوله: "مفتاح الجنَّة شهادة أنْ لا إله إلَّا الله"؛ فإنَّ الشَّهادة أصل المفتاح، والصَّلاة وبقيَّة الأركان أسنانه، التي لا يحصل الفتح إلَّا بها؛ إذْ دخول الجنَّة موقوفٌ على المفتاح وأسنانه.

وقال البخاريُّ: "وقيل لوهب بن منبِّه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلَّا الله؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاحٌ إلَّا وله أسنان، فإنْ جِئْت بمفتاحٍ له أسنان فتح لك، وإلَّا لم يفتح لك ". ٧٦.

٣٦- وأمَّا إجماع الصَّحابة على كفر تارك الصلاة، فقول عمر بن الخطاب ﷺ: "لا إسلام لمن ترك الصَّلاة". وفي سياقٍ آخر: "لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصَّلاة"، فقال هذا بمحضرٍ من الصَّحابة، ولم ينكروه عليه. ٧٨، بتصرف.

٣٧- من أدلة المانعين من تكفير تارك الصلاة: أنه كفر دون كفر، فهو من قبيل كفر النعمة، وبين ابن القيم ﷺ أن للإيمان حقائق، وقال: وإذا كان الإيمان

يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكرٍ أنْ يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح؛ ولا سيَّما إذا كان ملزُوْمًا لعدم محبَّة القلب وانقياده؛ الذي هو ملزُوْمٌ لعدم التَّصديق الجازم. ٨٠، ٨٤، بتصرف.

٣٨- الإيمان أصل، وله شعب، وكل شعبة منه تسمى "إيمانا". ٨٥، بتصرف.

٣٩- حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب، وهو الاعتقاد، وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان: عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة؛ زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقيَّة الأجزاء؛ فإنَّ تصديق القلب شرطٌ في اعتقادها، وكونها نافعة. ٨٦.

وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصِّدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السُّنَّة.

٤٠- فأهل السُّنَّة مجمعون على زوال الإيمان، وأنَّه لا ينفع التَّصديق مع انتفاء عمل القلب، وهومحبَّته وانقياده؛ كما لم ينفع إبليس، وفرعون وقومه، واليهود، والمشركين الذين كانوا يعتقدون صِدق الرسول؛ بل ويُقِرُّون به سِرًّا وجهرًا، ويقولون: ليس بكاذِبٍ، ولكن لا نتَّبِعه ولا نؤمن به. ٨٧.

٤١- الكفر نوعان، كفر عملٍ، وكفر جحودٍ وعنادٍ؛ فكفر الجحود: أنْ يكفر بما عَلِم أنَّ الرَّسول جاء به من عند الله، جُحُودًا وعنادًا، من أسماء الرَّب وصفاته وأفعاله وأحكامه.

وهذا الكفر يضادُّ الإيمان من كُلِّ وجهٍ.

وأمَّا كفر العمل: فينقسم إلى ما يضادُّ الإيمان، وإلى ما لا يضادُّه فالسُّجُود

للصَّنَم، والاستهانة بالمصْحف، وقتل النَّبيِّ وسبُّه يضادُّ الإيمان. ٨٨.

٤٢- وأمَّا الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصَّلاة فهو من الكفر العملي قطعًا. ولا يمكن أن يُنْفَى عنه اسم الكفر، بعد أنْ أطلقه الله ورسوله عليه. ولكن هو كُفْرُ عمل، لا كفر اعتقادٍ. ٨٩، بتصرف.

٤٣- وقد نفى رسول الله ﷺ اسم الإيمان عن الزَّاني، والسَّارق، وشارب الخمر، وعمَّن لا يأْمَنُ جارُه بوائقَه. وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافرٌ من جهة العَمَل، وإنْ انتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد. ٨٩.

٤٤- فالإيمان العملي يضادُّه الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي يضادُّه الكفر الاعتقادي. ٩١.

٤٥- الرجل قد يجتمع فيه كفرٌ وإيمانٌ، وشركٌ وتوحيدٌ، وتقوى وفجورٌ، ونفاقٌ وإيمانٌ. وهذا من أعظم أصول أهل السُّنة. وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع؛ كالخوارج، والمعتزلة، والقدريَّة.

ومسألة خروج أهل الكبائر من النَّار، وتخليدهم فيها مبنيَّةٌ على هذا الأصل. وقد دلَّ عليه القرآن، والسُّنَّة، والفِطْرة، وإجماع الصَّحابة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف/١٠٦]. فأثْبَت لهم إيمانًا به سبحانه مع الشِّرك. ٩٩.

٤٦- لا يلزم مِن قيام شُعبةٍ من شُعب الإيمان بالعبد أنْ يُسمَّى مؤمنًا، وإنْ كان ما قام به إيمانًا، ولا من قيام شُعبةٍ من شُعب الكفر به أنْ يُسمَّى كافرًا، وإنْ كان ما قام به كفرًا. ١٠١.

٤٧- سلْبَ اسم الإيمان عن تارك الصَّلاة أولى من سلْبِه عن مرتكب الكبائر،

وسلْب اسم الإسلام عنه أولى من سلْبِه عمَّن لم يسلَم المسلمون من لسانه ويده. فلا يُسمَّى تارك الصَّلاة مسلمًا ولا مؤمنًا، وإنْ كان معه شُعْبة من شعب الإسلام والإيمان. ١٠٣.

٤٧- لا يقبل من العبد شيءٌ من أعماله إلَّا بفعل الصلاة. فهي مفتاح ديوانه، ورأس مال ربحه. ومُحالٌ بقاء الرِّبح بلا رأس مالٍ، فإذا خسرها خسر أعماله كلَّها، وإنْ أتى بها صورةً. وقد أشار إلى هذا في قوله: "وإنْ ضيَّعها فهو لما سواها أضْيع"، وفي قوله: "إنَّ أوَّل ما يُنْظَر في أعماله الصَّلاة؛ فإنْ جازت له نُظِرَ في سائر أعماله، وإنْ لم تجز له لم يُنْظَر في شيءٍ من أعماله بعدُ". ١٠٤.

٤٨- الترك نوعان:

ترك كلي، وترك معين، فترك الصلاة كلية يحبط العمل جميعا، وتركها في يوم معين؛ يحبط عمل ذلك اليوم، فالحبوط العامُّ في مقابلة التَّرك العام، والحبوط المعيَّن في مقابلة التَّرك المعيَّن. ١٠٩، بتصرف.

٤٩- وآيات الموازنة في القرآن تدلُّ على حبوط الأعمال بغير الردة؛ فكما أنَّ السيِّئة تَذْهَبُ بحسنةٍ أكبر منها فالحسنة يَحبَطُ أجرُها بسيئةٍ أكبر منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ . ١١١، بتصرف.

٥٠- و تخصيص العصر بالذِّكر لشرفها من بين الصَّلوات؛ ولهذا كانت هي الصَّلاة الوسطى بنصِّ رسول الله ﷺ الصَّحيح الصَّريح. ولهذا خصَّها بالذِّكر في الحديث الآخر، وهو قوله: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنَّما وُتِر أهلَه ومالَه». أي: فكأنَّما سُلِبَ أهلَه ومالَه، فأصبح بلا أهلٍ ولا مالٍ. ١١٢.

٥١- والحبوط نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ. فالعام حبوط الحسنات كلِّها بالرِّدَّة، والسَّيِّئات

كلِّها بالتَّوبة. والخاص حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعضٍ، وهذا حبوطٌ مقيَّدٌ جزئيٌّ. ١١٢.

٥٢- بين الإمام أحمد أن تأخير الصلاة عمدا حتى يخرج وقتها؛ لا ينفع صاحبها قضاؤها، ولا تقبل منه؛ لأنها ليست على مراد الشارع، والشرع إنما جاء بوجوب القضاء في الصلاة لمن نام عنها أو نسيها، وذلك قد فوت عليه الصلاة متعمدا، فلم ينم عنها، ولم ينسها، مع اتفاقهم على أن التوبة النصوح تنفعه. ١٢٣، بتصرف.

٥٣- صلاة الجماعة فرض في ظاهر مذهب أحمد، ونص عليها الشافعي في «مختصر المزني»، فقال: «وأمَّا الجماعة فلا أرخِّص في تركها إلَّا من عذر»، ٢٠٧، بتصرف.

٥٤- والأخبار المذكورة في أبواب الرُّخصة في التخلُّف عن الجماعة لأصحاب العذر تدلُّ على فرض الجماعة على من لا عذر له. ولو كان حال العذر وغير حال العذر سواء لم يكن للتَّرخيص في التخلُّف عنها في أبواب العذر معنىً. ٢١٠.

٥٥- وقالت الحنفيَّة، والمالكية: صلاة الجماعة سُنةٌ مؤكَّدةٌ، ولكنَّهم يُؤَثِّمُون تارك السُّنن المؤكَّدة، ويصحِّحُون الصَّلاة بدونها، فالخلاف بينهم وبين من قال «إنَّها واجبةٌ، لا شرطٌ» لفظيٌّ. وكذلك صرَّح بعضهم بالوجوب. ٢١١، بتصرف.

٥٦- ومن استقرأ علامات النِّفاق في السُّنَّة وجدها إمَّا ترك فريضةٍ، أوفعل محرَّمٍ. ٢٢٩.

٥٧- صلاة الجماعة له فعلها في بيته. وبذلك قالت الحنفيَّة، والمالكيَّة، وهو أحد الوجهين للشَّافعية.

وفي المسألة قول ثالثٌ: أنَّ فعلها في المساجد فرض كفاية. وهو الوجه الثَّاني لأصحاب

الشَّافعي. ٢٦١، بتصرف.

٥٨- ومن تأمَّل السُّنَّة حقَّ التَّأمُّل تبيَّن له أنَّ فعلها في المساجد فرضٌ على الأعيان، إلَّا لعارضٍ يجوز معه ترك الجمعة والجماعة. فترك حضور المسجد لغير عذرٍ كترك أصل الجماعة لعذرٍ، وبهذا تتَّفق جميع الأحاديث والآثار. ٢٦٨.

٥٩- في «الصَّحِيْحَين»، من حديث أنس ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يُوْجِزُ الصَّلاة ويكملها».

والإيجاز هو الذي كان يفعله، لا الإيجاز الذي يظنُّه من لم يقف على مِقْدار صلاته؛ فإنَّ الإيجاز أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ، راجِعٌ إلى السُّنَّة، لا إلى شهوة الإمام ومَنْ خلفه. ٢٩٠، بتصرف.

٦٠- وقد اتَّفق الصَّحابة ﷺ على أنَّ صلاة رسول الله ﷺ كانت معتدلةً، فكان ركوعه، ورفعه منه، وسجوده، ورفعه منه= مناسبًا لقيامه، فإذا كان يقرأ في الفجر بمائة آية إلى ستِّين آيةً فلا بُدَّ أنْ يكون ركوعُه وسجودُه مناسبًا لذلك؛ ولهذا قال البراء بن عازبٍ: «إنَّ ذلك كلَّه كان قريبًا من السَّواء». ٣٣٦.

٦١- فالمصلُّون في الناس قليلٌ، ومقيمو الصَّلاة منهم أقل القليل، كما قال عمر ﷺ: «الحاجُّ قليلٌ، والرَّكب كثير». ٣٤٠.

٦٢- فليس مَنْ عَمَدَ إلى أفضل ما يقدر عليه، فيزيِّنُه ويحسِّنُه ما استطاع، ثم يتقرَّب به إلى من يرجوه ويخافه = كَمَنْ يعمد إلى أسْقَط ما عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلى مَنْ لا يقع عنده بموقع. ٣٤١.

٦٣- وليس من كانت الصَّلاة ربيعًا لقلبه، وحياةً له وراحةً، وقرَّةً لعينه، وجلاءً لحزنه، وذهابًا لهمِّه وغمِّه، ومَفْزَعًا له يلجأ إليه في نوائبه ونوازله = كمن هي سَحْتٌ

لقلبه، وقيدٌ لجوارحه، وتكليفٌ له، وثقلٌ عليه. فهي كبيرةٌ على هذا، وقرَّة عينٍ وراحةٌ لذلك. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[البقرة/٤٥ - ٤٦].

فإنَّما كبرت على غير هؤلاء لخلوِّ قلوبهم من محبَّة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوعِ له، وقِلَّة رغبتهم فيه؛ فإنَّ حضور العبد في الصَّلاة، وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وُسْعَه في إقامتها، وإتمامها= على قدر رغبته في الله. ٣٤١.

٦٤- وبالجملة: فسِرُّ الرُّكُوع تعظيم الرَّبِّ جل جلاله بالقلب والقالب والقول؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «أمَّا الرُّكوع فعظِّمُوا فيه الرَّب». ٣٥٧.

٦٥- وشُرِع السُّجود على أكمل الهيئات وأبلغِها في العبوديَّة، وأعمِّها لسائر الأعضاء؛ بحيث يأخذ كلُّ جزءٍ من البَدَن بحظِّه من العبوديَّة. ٣٦١.

٦٦- والسُّجُود سِرُّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة. وما قبله من الأركان كالمقدِّمات له، فهو شِبْهُ طواف الزِّيارة في الحجِّ؛ فإنَّه مقصود الحجِّ، ومحلُّ الدُّخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدِّمات له؛ ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ. وأفضل أحواله حالٌ يكون فيها أقرب إلى الله؛ ولهذا كان الدُّعاء في هذا المحلِّ أقرب إلى الإجابة. ٣٦١، بتصرف.

٦٧- ولمَّا خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديرًا بأنْ لا يخرج عن أصله؛ بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطَّبْع والنَّفس بالخروج عنه؛ فإنَّ العبد لو تُرِكَ وطبعه ودواعي نفسه لتَكَبَّرَ، وأَشِرَ، وخرج عن أصْله الذي خُلِق منه، ولوَثَب على حقِّ ربِّه، من الكبرياء والعَظَمة، فنازعه إيَّاهما؛ فأُمِر بالسُّجود خضوعًا لعظمة ربِّه وفاطره، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له.٣٦٢.

[٥] (الرسالة التبوكية)

١- ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

وقد اشتملتْ هذه الآيةُ على جميعِ مَصالح العبادِ في معاشِهم ومعادِهم، فيما بينَهم في بعضِهم بعضًا، وفيما بينَهم وبينَ ربهم، فإن كلَّ عبد لا يَنْفَكُّ من هاتينِ الحالتينِ وهذينِ الواجبينِ: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخَلْقِ. ٤.

٢- فالبرُّ كلمةٌ لجميع أنواعِ الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلتِه "الإثْم". وفي حديث النَّواس بن سَمْعَان ﷺ أن النبي ﷺ قال [له]: «جئْتَ تَسأل عن البرِّ والإثم»؛ فالإثم كلمةٌ جامعةٌ للشرِّ والعيوبَ التي يُذَمُّ العبدُ عليها. ٦.

٣- وأكثر ما يُعبرُ بالبِرِّ عن بِرِّ القلب، وهو وجود طَعْمِ الإيمان [فيه] وحَلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامتِه وانشراحِه وقوته وفَرحِه بالإيمان، فإن للإيمان فرحةً وحلاوةً ولَذَاذَةً في القلب، فمن لم يَجِدْها فهو فاقدٌ للإيمان أو ناقصُه، وهو من القسم الذين قال الله -عز وجل- فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾. ٦

٤- وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ فالفرقُ بينهما فرق بين السَّبَب المقصودِ لغيره والغايةِ المقصودةِ لنفسِها؛ فإن البرَّ مطلوب لذاتِه، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاحَ له بدونه، وأما التقوى فهي الطريق الموصِلةُ إلى البرِّ، والوسيلةُ إليه. ١٠، بتصرف.

٥- الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، والهجرة الثانية هجرةٌ بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه الهجرةُ هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسدِ تابعةٌ لها، وهي هجرة تتضمنُ "من" و"إلى"، وهي معنى الفرار من الله إليه. ١٦، بتصرف.

٦- ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾. فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه. ١٦.

٧- قال بعض السلف: "العادل هو الذي إذا غَضِبَ لم يُدخِلْه غضبُه في باطل، وإذا رضي لم يُخرِجْهُ رِضاه عن الحقِّ". ٣٦.

٨- ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾:

ذكر سبحانه السَّببين الموجبين لكتمان الحق محذرًا منهما، متوعدًا عليهما:

أحدهما: اللَّيُّ.

والآخر: الإعراض.

فإن الحقَّ إذا ظَهرتْ حُجَّتُه، ولم يجد مَن يَرُومُ دفعَها طريقًا إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطانًا أخرس، وتارةً يَلْوِيْها أو يُحرِّفها.

واللَّيُّ مثل الفَتْل، وهو التحريف. وهو نوعان: ليٌّ في اللفظ، وليٌّ في المعنى.

فاللَّيّ في اللفظ: أن يلفظ بها على وجهٍ لا يستلزم الحقَّ.

والنوع الثاني منه: ليُّ المعنى، وهو تحريفه، وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم به. ٣٨، بتصرف.

٩- الواجب الذي لا يتمُّ الإيمانُ بل لا يَحصُلُ مسمَّى الإيمان إلا به مقابلةُ النصوص بالتَّلقِّي والقبول، والإظهار لها، ودعوة الخلق إليها، لا تُقَابَل بالإعراض تارةً، وباللَّيِّ أخرى. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا

أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. ٣٩.

١٠- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾:

ذكر البخاري في "صحيحه" عن الزهري قال: "من الله البيان، وعلى رسولِه البلاغ، وعلينا التسليم". ٤١، بتصرف.

١١- ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾:

ففرق بين طاعته وطاعة رسوله في الفعل، ولم يُسلِّط الفعلَ الأول عليها. فتجبُ طاعةُ الرسول مفردةً ومقرونةً وأما أولو الأمر فلا تجب طاعةُ أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة. ٤٣، بتصرف.

١٢- قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ولم يقل: وإلى الرسول؛ فإن الردَّ إلى القرآن ردٌّ إلى الله والرسول، والردُّ إلى السنة ردٌّ إلى الله والرسول. ٤٥.

١٣- وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في أولي الأمر، فعنه فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية. والصحيح: أنها متناولة للصنفين جميعًا. ٤٥.

١٤- فإن العلماء والأمراء هم ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله. فالعلماء وُلَاتُه حفظًا، وبيانًا، وبلاغًا، وذبًا عنه، وردًا على من ألحَدَ فيه وزاغَ عنه، وقد وكَّلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾. والأمراءُ وُلَاتُه قيامًا، ورعايةً، وجهادًا، وإلزامًا للناس به، وأخذهم على يد من خَرَج عنه. وهذان الصنفان هم الناس، وسائر النوع الإنساني تبعٌ لهم ورَعيةٌ.

(٤٦)، بتصرف.

١٥- ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾:

وقد اتفق السَّلف والخلف على أن الردَّ إلى الله هو الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى رسوله هو الردُّ إليه في حياته، والردُّ إلى سنَّته بعد وفاته. ٤٧.

١٦- ومن تدبَّر العالَم والشُّرور الواقعة فيه علم أن كل شَرٍّ في العالم فسببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنما هو بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هي موجباتُ مخالفة الرسول ومقتضياتُها، فعاد شرُّ الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شرٌّ قط. ٤٨.

١٧- لا نجاةَ للعبد ولا سعادةَ إلا باجتهاده في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والقيام به عملًا.

وكمالُ هذه السعادة بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوةُ الخَلْق إليه.

والثاني: صبره وجهادُه على تلك الدَّعوة. (٤٩).

١٨- فانحصر الكمال الإنسانيُّ في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول.

الثانية: العمل به

الثالثة: بَثُّه في الناس، ودعوتهم إليه.

الرابعة: صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه.

ومن تطلَّعتْ هِمَّتُه إلى معرفة ما كان عليه الصحابة وأراد اتباعَهم؛ فهذه

طريقتهم حقًا.

فإن شِئتَ وَصْلَ القومِ فاسلُكْ طريقَهم ... وقد وَضَحَتْ للسالكينَ عِيانَا.

(٤٩)، بتصرف.

١٩- وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدّد العذاب؛ كقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤٠﴾﴾. ٥٤.

٢٠- ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾؛ فينقطع يوم القيامة كل سببٍ ووُصْلَةٍ ووسيلة ومودَّة [وموالاة] كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله.

نَقِّل فُؤادَك حيثُ شئتَ من الهَوَى ... مـا الحـبُّ إلا للحبيـبِ الأَوَّلِ

كم مَنزلٍ في الأرضِ يَأْلَفُه الفتَى ... وحَنِيْنُـه أبـدًا لأوَّلِ مـنزلِ

٥٧، بتصرف.

٢١- نسبة العبودية المحضة هي التي تنفع العبد، فلا ينفعُه غيرُها في الدُّوْرِ الثلاثة؛ أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فلا قِوَامَ له ولا عيشَ ولا نعيمَ ولا فلاحَ إلا بهذه النسبة، وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحسن القائلُ حيث قال:

إذا تَقَطَّـعَ حَبْـلُ الوَصْـلِ بيـنَهُمُ ... فللمحبـينَ حَبْـلٌ غـيرُ مُنقطـعِ

وإن تَصَدَّع شَـمْلُ الوَصْـلِ بيـنَهُمُ ... فللمحبـينَ شَـمْلٌ غـير مُنْصَـدِعِ

٥٧، بتصرف.

٢٢- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ

عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾:

وقيَّد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية [بإحسانٍ، ليست مُطلقة فتَحصُل بمجرد النسبة والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية] مصاحبةٌ للإحسان؛ فإن الباء هنا للمصاحبة. والإحسان في المتابعة شرطٌ في حصولِ ﷺ وجنّاتِه. ٦٠.

٢٣- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:

ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلًا من الله، فرُبما وقع في الوهم أن إلحاقَ الذريةِ أيضًا حاصلٌ بهم في حكم العدل، فإذا اكتسبوا سيئاتٍ أوجبت عقوبة، كان كل عامل رهينًا بكسبه لا يتعلق بغيره منه شيء.

فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا ونحوه من أسرار القرآن وكنوزه، التي يختص الله بفهمها من شاء. ٦٥.

٢٤- من أعظم التعاون على البرِّ والتّقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله ورسوله، باليد واللسان والقلب، مساعدةً، ونصيحةً، وتعليمًا، وإرشادًا، ومودةً. ٦٧.

٢٥- سفر الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ: زاده العلم الموروث عنه ﷺ، وطريقه: بذل الجهد واستفراغ الوسع، فلن يُنَالَ بالمُنَى، ولا يُدْرَك بالهُوَيْنا، وإنما كما قيل:

فَخُضْ غَمَراتِ الموتِ وَاسْمُ إلى العُلَا ... لكي تُـدرِكَ العِـزَّ الرفيـعَ الدعائـمِ

فلا خيرَ في نفسٍ تَخافُ من الرَّدَى ... ولا هِمَّـةٍ تَصْـبُو إلى لَـومِ لائـمِ

ولا سبيلَ إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لا يَصْبُو في الحق إلى لَومةِ لائم

والثاني: أن تَهُونَ عليه نفسُه في الله.٦٧، بتصرف.

٢٦- مركب السفر في الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ: صدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكلِّيته، وتحقيق الافتقار إليه من كل وجه، والضراعة إليه، وصدق التوكل عليه، والاستعانة به، والانطراح بين يديه. ٦٩، بتصرف.

٢٧- ورأس مال الأمر وعموده في سفر الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ إنما هو: دوامُ التفكر وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولي على الفكر، ويَشْغَل القلبَ، فإذا صارتْ معاني القرآنِ مكانَ الخواطرِ من قلبه وهي الغالبةُ عليه، بحيث يَصير إليها مَفْزَعُه ومَلْجَؤُه، تَمَكَّنَ حينئذٍ الإيمانُ من قلبه، وجلس على كرسيه، وصار له التصرفُ، وصار هو الآمر المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سَيْرُه، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يُبارِي الريحَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾. ٧٠، بتصرف.

٢٨- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر مخاطَبَه بأمر عجيب ينبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذهن له، صَدَّرَ له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سمعَه وذهنَه للخبر.

وفيه أمر آخر، وهو التنبيهُ على أن إتيان هذا إليك عَلَمٌ من أعلام النُّبوة؛ فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا مِنْ قِبَلِنَا؟ ٧٣، ٧٤، بتصرف.

٢٩- وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم؛ فإن في ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قولين أحدهما: إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدحٌ له بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله؛ كقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وهو

متضمن أيضًا لتعظيم خليله ومدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافًا له.

فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم. ٧٤.

٣٠- ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ متضمنٌ لمدحٍ آخر لإبراهيم حيث ردَّ عليهم أحسنَ مما حَيَّوه به؛ فإن تحيتهم باسم منصوبٍ متضمن لجملةٍ فعليَّةٍ، تقديره: سلَّمنا عليك سلامًا، وتحيةُ إبراهيم لهم باسمٍ مرفوعٍ متضمن لجملةٍ اسميَّةٍ، تقديره: سلامٌ ثابتٌ أو دائم أو مستقرٌّ عليكم. ولا ريبَ أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث؛ فكانت تحية إبراهيم أكملَ وأحسنَ. ٧٥.

٣١- ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ متضمنة لمدح إبراهيم عليه السلام، حيث حذف المبتدأ، والتقدير أنتم منكرون، فتذمَّم منهم، ولم يُواجهْهم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش.

ولا ريب أن حذف المبتدأ في هذا من محاسن الخطاب، وكان النبي ﷺ لا يُواجِهُ أحدًا بما يكرهُه، بل يقول: "ما بالُ أقوامٍ يقولون كذا، ويفعلون كذا". ٧٦، بتصرف.

٣٢- من الثناء على إبراهيم – عليه السلام - قوله ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم؛ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿نَكِرَهُمْ﴾، ولا ريب أن قوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطفُ من أن يقول: أنكرتُكم. ٧٦، بتصرف.

٣٣- مما تضمنه قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ من الثناء على إبراهيم عليه السلام أن الروغانُ: الذهاب في سرعة واختفاءٍ، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاءُ ترك تخجيله وألا يُعرِّضَه للحياء. ٧٦، بتصرف.

٣٤- مما تضمنه قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ من الثناء على إبراهيم عليه السلام: ما فيه من الإشعار

بأن كرامة الضيف مُعَدَّةٌ حاصلةٌ عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يَستقرِضَ من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله، إذْ نُزُلُ الضيفِ حاصل عندهم. ٧٧، بتصرف.

٣٥- وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه،

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه؛ ليتخيّروا من أطايب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزولٍ. ٧٧، بتصرف.

٣٦- مما تضمنه قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ من الثناء على إبراهيم عليه السلام: هو إحضار الطعام إلى بين أيدي الضيف، بخلاف من يُهيِّئُ الطعامَ في موضع، ثم يُقِيم ضيفَه؛ فيُورِدُه عليه. ٧٨، بتصرف.

٣٧- مما تضمنه قوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ من الثناء على إبراهيم عليه السلام: أنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾، وهذه صيغة عرضٍ مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو ذلك. ٧٨، بتصرف.

٣٨- ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عَجبَتْ من ذلك، وقالت: عجوزٌ عقيمٌ لا يُولَد لمثلي، فأنى [لي] بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سُرِّيته هاجرَ، وكان بكْرَه وأولَ ولدِه، وقد بين سبحانه في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ في هذه القصةِ نفسِها. ٧٨.

٣٩- وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم

ثباتها؛ إذ بادرتْ إلى النُّدبةِ وصَكِّ الوجهِ عند هذا الإخبار. ٧٩.

٤٠- وقوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، فلم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرتِ السببَ المانعَ منها ومن إبراهيم، وصرَّحتْ بالتعجب. ٧٩.

٤١- وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ متضمنٌ لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدرُ الخلق والأمر، فجميعُ ما خلقه سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمُره وشرعُه مصدرُه عن علمه وحكمته. ٧٩.

٤٢- أصح القولين أن المعاد يُعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

٤٣- ومن تأمل طريقة القرآن وجدها على ذلك، وأنَّ الله سبحانه يَضْرِب لهم الأمثال المعقولة التي تَدلُّ على إمكان المعاد تارةً ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المقدور، وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه. ٨٠.

٤٤- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، ففرَّقَ بين الإسلام والإيمان هنا لسرٍّ اقتضاه الكلام؛ فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاةٍ من العذاب، ولا ريب أن هذا مختصٌّ بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا. ٨٢.

٤٥- وقوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأنَّ امرأة لوط

كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمةٌ في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين. وقد أخبر الله سبحانه عن خيانة امرأة لوط وخيانتُها أنّها كانت تدلُّ قومَها على أضيافِه وقَلْبُها معهم، وليست خيانةَ فاحشةٍ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا، وليست من المؤمنين الناجين. ٨٢.

٤٦- وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾، فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فَعَلَها في هذا العالم وأبقى آثارَها دالَّةً عليه وعلى صدقِ رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله؛ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾. ٨٣.

٤٧- فلقد أحسنَ إليك من خَلَّاكَ وطريقَكَ ولم يَطْرَحْ شَرَّهُ عليك؛ كما قال القائل:

٤٨- إنَّا لفي زَمَنٍ تَرْكُ القبيحِ به ... من أكثر الناسِ إحسانٌ وإجمالُ. ٨٥.

٤٩- فانفرادُ العبدِ في طريق طلبِه دليلٌ على صدقِ المحبة. ٨٥.

٥٠- وإنما الهديةُ النافعةُ كلمةٌ من الحكمة يُهدِيها الرجلُ إلى أخيه المسلم. ٨٦.

٥١- قال بعضُ مَن سَلَفَ: "شتَّانَ بين أقوامٍ موتى تَحْيا القلوبُ بذكرِهم، وبين أقوامٍ أحياءٍ تموتُ القلوب بمخالطتِهم". ٨٦.

٥٢- فما على العبدِ أضرُّ من عُشَرائِه وأبناءِ جنسه، فإن نظره قاصر، وهِمَّتُه واقفةٌ عند التشبهِ بهم ومباهاتهم والسلوكِ أيَّةً سَلَكوا، حتى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لأحبَّ أن يَدخُل معهم. ٨٦.

٥٣- قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

فلو أخذ الناسُ كلُّهم بهذه الآية لكفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإن العفو ما عَفَا من

أخلاقهم، وسَمَحَتْ به طبائعهم، ووَسِعَهم بذلُه من أموالهم وأخلاقهم؛ فهذا ما منهم إليه. ٨٨

٥٤- فكل ما يَحْصُلُ للمهاجر إلى الله والرسول من الناس فهو خيرٌ له وإن كان شرًّا في الظاهر، فإنَّه متولِّدٌ من القيامِ بالأمر [بالمعروف]، ولا يتولَّدُ منه إلا خيرٌ وإن وَرَدَ في حالةِ شرٍّ وأذًى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾. ٨٨، بتصرف.

٥٥- وقال تعالى لنبيه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾.

٥٦- وقد تضمنتْ هذه الكلماتُ مراعاةَ حقِّ اللهِ وحقِّ الخَلْقِ؛ فإنهم إمّا أنْ يُسِيْئُوا في حقِّ اللهِ أو في حقِّ رسولِه؛ فإن أساءوا في حقِّك فقابِلْ ذلك بعَفْوِكَ عنهم، وإن أساءوا في حقِّي فاسألني أغفِرْ لهم وأَسْتَجْلِبْ قلوبَهم، وأَسْتَخْرِجْ ما عندَهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتِهم وبِذْلِهم النصيحةَ، فإذا عَزَمْتَ على أمرٍ فلا استشارةَ بعد ذلك، بل توكَّلْ على اللهِ، وامْضِ لما عَزَمْتَ عليه من أمرِك؛ فإن الله يُحِبُّ المتوكلين. ٨٩.

٥٧- التمثل بأخلاق القرآن لا بثلاثةِ أشياءَ:

أحدها: يسر الطبيعة.

الثاني: قوة النفس.

الثالث: علمٌ شافٍ بحقائق الأشياء، وتنزيلُها منازِلَها، يميزُ به بين الشَّحْمِ والوَرَمِ، والزجاجة والجوهرة. ٩٠، بتصرف.

٥٨- من الأبيات الجميلة التي قالها:

فليتَـكَ تَحْلُـو والحيـاةُ مَرِيـرةٌ ... وليتَـكَ تَـرضَى والأَنـامُ غِضَـابُ

وليـتَ الذي بيـني وبينَـك عامـرٌ ... وبيـني وبـين العـالمين خَـرابُ

إذا صَـحَّ منـكَ الـوُدُّ فـالكلُّ هَـيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تـرابُ. ٩١.

٥٩- ثلاثُ كلماتٍ كان يكتب بها بعضُ السلف إلى بعض، فلو نَقَشَها العبدُ في لوح قلبه يقرؤها على عدد الأنفاس لكان ذلك بعض ما يستحقه، وهي: "مَن أصلحَ سَرِيرتَه أصلحَ اللهُ علانيتَه، ومَن أصلح ما بينه وبين الله أصلحَ اللهُ ما بينَه وبينَ الناس، ومَن عَمِلَ لآخرتِه كفاه الله مَؤُوْنةَ دنياه". ٩٢.

٦٠- من الأبيات الجميلة التي استشهد بها:

أُقلِّـبُ طَـرْفِيْ لا أرى مَـنْ أُحِبُّـه ... وفي الحَيِّ ممن لا أُحِـبُّ كثـيرُ. ٩٢.

٦١- من الأبيات الجميلة التي قالها:

مَا في الخِيامِ أخـو وَجْـدٍ يُطارحـه ... حديثَ ليلَى ولا صَبٌّ يُجارِيْه. ٩٢.

٦٢- يا ثاويًا بين الجَوانِحِ والحَشَـــــا ... [مِنّي] وإنْ بَعُدَتْ عَلَيَّ دِيَـــــارُه

عطْفًـا على قلـبٍ يُحِبُّـكَ هَـائمٍ ... إن لـم تَصِـلْه تَقَطَّعَـتْ أَعْشَـارُه

وارْحَمْ كَئيبًا فيكَ يَقْضِـيْ نَحْبَـهُ ... أَسَفًا عليكَ ومَا انْقَضَتْ أَوْطَـارُه

لا يَسـتفِيْقُ مـن الغَـرامِ وكلَّمـا ... نَحَّـوْكَ عنـهُ تَهتَّكَـتْ أَسْـتَارُه

وكلُّ ذي شَجْوٍ يَصرِفُ هذا وأمثالَه إلى شَجْوِه، وهذا مما يَستَرْوِحُ إليه المكروبُ بعضَ الاسترواح، وهيهات هيهات إن القلب لن يَقَرَّ له قرارٌ حتى يُوضَعَ في موضعِه، ويَستقرَّ في مُستقرِّه الذي لا مَقَرَّ له سِواه، كما قيل:

إذا ما وَضَعْتَ القلبَ في غيرِ موضعٍ ... بغير إناءٍ فهـو قَلْـبٌ مُضَـيَّعُ. ٩٣.

[٦] (رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)

١- فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحُه لكلِّ من اجتمع به، قال الله -تعالى- إخبارًا عن المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]. ٣.

٢- وكل آفة تدخل على العبد، فسببها ضياعُ [الوقت] وفساد القلب، وتعود بضياع [حظه] من الله، ونقصان درجته ومنزلته عنده. ٣.

٣- والغفلة عن الله والدَّار الآخرة متى تزوجت باتباع الهوى، [تولد ما] بينهما كل شر. وكثيرًا ما يقترن أحدهما بالآخر ولا يفارقه.

٤- ومن تأمل فساد أحوال العالم عمومًا وخصوصًا، وجده ناشئًا عن هذين الأصلين، فالغفلة تحول بين العبد وبين تصور الحق ومعرفته والعلم به فيكون من [الضالين]. واتباع الهوى يصده عن قصد الحق وإرادته واتباعه، فيكون من المغضوب عليهم. ٤

٥- وأما المنعم عليهم فهم الذين مَنَّ الله عليهم بمعرفة الحق علمًا، وبالانقياد إليه وإيثاره على ما سواه عملًا، وهؤلاء هم الذين على سبيل النجاة، ومن سواهم على سبيل الهلاك. ولهذا أمرنا الله -سبحانه- أن نقول كل يوم وليلة عدة مرات: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. ٥.

٦- فإنه لا يكون الرجل إمامًا للمتقين حتى يأتمَّ بالمتقين. ١٢.

٧- ووحَّد -سبحانه- لفظ ﴿إِمَامًا﴾ ولم يقل: واجعلنا للمتقين أئِمَّة، وهو من الواحد المراد به الجمع، وهو أن المتقين كلهم على طريق واحد، ومعبودهم واحد،

وأتباع كتاب واحد، ونبي واحد، وعبيد رَبٍّ واحد. فكأنهم كلهم إمام واحد لمن بعدهم فالائتمام إنما هو بما هم عليه، وهو شيء واحد، وهو الإمام في الحقيقة. ١٣، بتصرف.

٨- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]: فبالصبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين. ١٧.

٩- فبالصبر يَدفع الشهوات، وباليقين يَدفع الشبهات. فإن الشهوة والشبهة مضادتان للدين من كل وجهٍ، فلا ينجو من عذاب الله إلا من دفع شهواته بالصبر، وشبهاته باليقين. ١٨.

١٠- الصبر، وهو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره. ٢٠.

١١- اليقين، وهو الإيمان الجازم الثابت الذي لا ريب [فيه] ولا تردد ولا شك ولا شبهة بخمسة أصول، ذكرها سبحانه في قوله - تعالى -: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ٢٠.

١٢- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. قال الحسن البصري: "هذا حبيب الله، هذا ولي الله، أسلم لله، وعمل بطاعته، ودعا الخلق إليه"، فهذا النوع أفضل أنواع الإنسان وأعلاهم درجة عند الله يوم القيامة. ٢٢.

١٣- قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، فأقسم -سبحانه- على خسران نوع

الإنسان، إلا من كمَّل نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكَمَّل غيره بوصيته له بهما؛ ولهذا قال الشافعي ﷺ: "لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم". ٢٢

١٤- ولا يكون من أتباع الرسول على الحقيقة إلا من دعا إلى الله على بصيرة، قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. ٢٣.

١٥- وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، قال ابن الأعرابي: البصيرة الثباتُ في الدين. والتحقيق: العِبرَةُ ثمرة البصيرة، فإذا تبصر اعتبر، فمن عُدِمَ العِبرَةَ فكأنه لا بصيرة له. ٢٣، بتصرف.

١٦- فإنَّ خاصة العقل: إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، واحتمال أدنى المكروهين ليتخلص به من أعلاهما. وبهذا الأصل تَعْرِفُ عُقول الناس، وَتُمَيِّزُ بين العاقل وغيره، وَيَظهَرُ تفاوُتُهم في العقول. ٣٠.

١٧- فاللذة التامة، والفرح والسرور، وطيب العيش، والنعيم، إنما هو في معرفة الله، وتوحيده والأُنْس به، والشوق إلى لقائه، واجتماع القلب والهمِّ عليه. ٣٢.

١٨- فإنَّ أنكد العيش عيش مَنْ قَلْبُهُ مُشَتَّتٌ، وهَمُّهُ مُفَرَّقٌ، فليس لقلبه مستقر يستقر عنده ولا حبيب يأوي إليه ويسكن إليه، كما أفصح القائل عن ذلك بقوله:

وما ذاق طعمَ العيشِ مَنْ لم يكن له ... حبيبٌ إليه يطمئن ويسكُنُ. ٣٢.

١٩- فالعيش الطيب، والحياة النافعة، وَقُرةُ العين في السكون والطمأنينة إلى الحبيب الأول، ولو تَنَقَّل القلب في المحبوبات كُلها لم يسكن ولم يطمئن [إلى شيء منها]، ولم تَقرَّ [به] عينه حتى يطمئن إلى إلهه ورَبِّهِ ووَلِيِّه، الذي ليس له من

دونه ولي ولا شفيع، ولا غِنى له عنه طرفة عين، كما قال القائل:

نقِّلْ فؤادك حيثُ ... شئتَ من الهوى ... ما الحُبُّ إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل. ٣٣، بتصرف.

٢٠- فاحرص أن يكون همك واحدًا، وأن يكون هو الله وحده، فهذا غاية سعادة العبد .. وصاحب هذه الحال في جنة معجلة قبل جنة الآخرة وفي نعيم عاجل، كما قال بعض الواجدين: "إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب". ٣٤.

٢١- وقال آخر: "إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا". وقال آخر: "مساكين أهل الدنيا! خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ... ما فيها. قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله، ومحبته، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه". ٣٤.

٢٢- وقُرَّةُ العين فوق المحبة، فإنه ليس كل محبوبٍ تَقَرُّ به [العين]، وإنما تَقَرُّ العينُ، [بأعلى] المحبوبات، الذي يُحَبُّ لِذَاته، وليس ذلك إلا الله الذي لا إله إلا هو، وكل ما سواه فإنما يُحَبُّ تبعًا لمحبته فَيُحَبُّ لأجله. ولا يُحَبُّ معه، فإن الحب معه شرك، والحب لأجله توحيد. ٣٦.

٢٣- والموَحِّدُ إنما يحب مَنْ يحبه لله، ويبغض من يبغضه في الله، ويفعل ما يفعله لله، ويترك ما يتركه لله. ومدار الدين على هذه القواعد الأربع، وهي: الحب والبغض، ويترتب [عليهما] الفعل والترك. ٣٦.

٢٤- فالصلاة قُرَّةُ عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيها من مناجاة من لا تقر ... العيون، ولا تطمئن القلوب، ولا تسكن [النفوس] إلا إليه، والتنعم بذكره، [والتذلل] والخضوع له، والقرب منه، ولا سيما في حال السجود، وتلك الحال

أقرب ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول النبي ﷺ : «يا بلال أرحنا بالصلاة». ٣٧.

٢٥- والعبد إذا قرَّت عينه بشيء واستراح قلبه به فأشق ما عليه مفارقته، والمتكلِّف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشق ما عليه الصلاة، وأكره ما إليه طولها، مع تفرغه وصحته وعدم اشتغاله! ٣٨.

٢٦- الصلاة التي تَقرُّ بها العين ويستريح بها القلب هي التي تجمع ستة مشاهد:

مشهد الإخلاص، والصدق، والمتابعة، والإحسان، والمنة، والتقصير.

ومِلاكُ هذا الشأن أربعة أمور:

نية صحيحة، وقوةٌ غالبة، يقارنهما: رغبة، ورهبة. ٣٩، بتصرف.

٢٧- فحظ العبد من القُرب من الله على قدر حظِّه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة، حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد. ٤٥.

[٧] (رسالة في صيغ الحمد)

١- هذا الحديث «الحمدلله حمداً يوافي نعمه، ويكافي مزيده» ليس في الصحيحين ولا في أحدهما، ولا يُعرف في شيءٍ من كتب الحديث المعتمدة، ولا له إسنادٌ يُعرف، وإنما يُروى عن أبي نصر التمَّار، عن آدم أبي البشر و لا يَدري كم بين آدم وأبي نصر إلا الله ﷻ. ٤، بتصرف.

٢- فإن أفضلَ النِّعَم وأجلَّها على الإطلاق نعمةُ معرفتِه تعالى وحمدِه وطاعتِه. ١١.

٣- وشرع لأمته في هذا الموضع وفي غيره أفضلَ الحمد وأكملَهُ، فلو كان قول القائل «الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويكافيء مزيده» أفضلَ الحمد لكان أولى المواضع به هذا الموضع – أي: اعتداله بعد الركوع - وما أشبهه.

فيا سبحان الله! لا يأتي عنه هذا الحمد الأكمل الأفضل الجامع في موضع واحدٍ أَلْبَتَّه، لا قولًا، ولا تعليمًا، ولا يقوله أحدٌ من الصحابة، ولا يُعرف عنهم في خطبةٍ، ولا تشهُّدِ حاجةٍ، ولا عقيب الطعام والشراب، وإنما الذي جاء عنهم حمدٌ هو دونه في الفضيلة والكمال! هذا من المحال. ٣٠.

٤- وفي صحيح مسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أحبُّ الكلام الى الله أربعٌ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله الا الله، والله أكبر، لا يضرُّ بأيِّهنَّ بدأت".

٥- ولو كان "الحمد لله، حمدًا يوافي نعمه، ويكافيء مزيده" أفضل من هذا لكان أحب إلى الله منه. ٣٦.

٦- "أفضل الذكر: "لا إله إلا الله"، وأفضل الدعاء: "الحمد لله" ".

٧- وسئل ابن عيينة عن هذا الحديث، فقيل له: كان "الحمد لله" دعاءً؟ فقال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان يرجو نائله:

أَأَذكـر حـاجتي أم قـد كفـاني ... حبـاؤك إنَّ شـيمتك الحِبـاءُ

إذا أثـنى عليـك المـرء يومًـا ... كفـاهُ مـن تعرُّضـه الثنـاءُ

كـريمٌ لا يغـيِّرُهُ صـباحٌ ... عـن الخُلُـقِ الجميـل ولا مسـاءُ

فهذا مخلوقٌ اكتفى من مخلوقٍ بالثناء عليه، فكيف بالخالق سبحانه؟!. ٣٨.

٨- الدعاء يراد به دعاء المسألة، ودعاء العبادة، والمُثْنِي على ربه بحمده وآلائه داع له بالاعتبارين؛ فإنه طالبٌ منه، وطالبٌ له، فهو الداعي حقيقة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر/ ٦٥]. ٣٩.

[٨] (إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان)

١- فعند رسول الله ﷺ السَّعَةُ والرحمة، وعند غيره الشِّدة والنقمة، فما جاءه مكروبٌ إلا وَجَد عنده تفريجَ كربَتِه، ولا لهفان إلا وجد عنده إغاثة لَهْفته. ٣

٢- الإغلاق له وجهان: أحدهما الإكراه، والآخر ما دخل عليه مما ينغلق به رأيه عليه. ٧.

٣- واللهُ سبحانه قد رفع المؤاخذة بلفظٍ جَرَى على اللسان لم يَكْسِبْه القلبُ ولم يَقْصِدْه، فلا تجوز المؤاخذة بما رفع اللهُ المؤاخذةَ به. ١٠.

٤- ولا ريب أن الدعاء بالشرِّ كثيرًا ما يُجابُ، كالدعاء بالخير، والإنسان يدعو على غيره ظلمًا وعدوانًا [و] مع ذلك فقد يستجاب له، ولكنّ إجابةَ دعاء الخير من صفة الرحمة، وإجابةَ ضدِّه من صفة الغضب، والرحمةُ تغلب الغضب. ١٢.

٥- ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١] وهو الرجل يدعو على نفسه وأهله بالشر في حال الغضب. ١٢.

٦- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فعَدَلَ سبحانه عن قوله: "سَكَن" إلى قوله: ﴿سَكَتَ﴾؛ تنزيلًا للغضب منزلة السلطان الآمر الناهي، الذي يقول لصاحبه: افعل، لا تفعل. فهو مستجيب لداعي الغضبِ الناطقِ فيه، المتكلِّم على لسانه فهو أولى بِأَن يُعذرَ من المُكْرَهِ الذي لم يَتسلط عليه غضبٌ يأمُره وينهاه. ١٣.

٧- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] في ثلاثة مواضع من القرآن.

وما يتكلمُ به الغضبان في حال شدة غضبه، مِن طلاقٍ أو شتمٍ ونحوه، هو من نزغات الشيطان، فإنه يُلجئُه إلى أن يقول ما لم يكن مختارًا لقوله، فإذا سُرِّيَ عنه عَلِم أن ذلَك مِنْ إلقاء الشيطان على لسانه، مِمَّا لم يكن بِرَضاهُ واختيارِه.

والغضب من الشيطان، وأثرُه منه. ١٤.

٨- وقد اخْتلفَ في الإغلاق، فقال أهل الحجاز: هو الإكراه وقال أهل العراق: هو الغضب، وقالت طائفة: هو جَمْعُ الثلاث بكلمة واحدة حكى الأقوال الثلاثة صاحب كتاب "مطالع الأنوار".

منْ حُجَّةِ مَنْ لم يُوقع الطلاق المُحرَّم، ولا الثلاث بكلمة واحدة، لأنه طلاقٌ محجورٌ على صاحبه شرعًا، وحَجْرُ الشارع يَمْنع نفوذ التصرُّف وصِحَّتَه، كما يَمْنَع نفوذ التصرُّف في العقود المالية. ١٦، بتصرف.

٩- والغضبُ غُولُ العقل، فإذا اغتال الغضبُ عقله حتى لم يعلم ما يقول، فلا ريب أنه لا ينفذ شيء من أقواله في هذه الحالة، فإن أقوال المكلف إنما تنفُذ مع علم القائل بصدورها منه، ومعناها، وإرادته للتكلم بها. ٢٠.

١٠- والسكرُ نوعان: سُكْرُ طَرَبٍ، وسُكْرُ غضَب، وقد يكون هذا أشدَّ، وقد يكون الآخر أشدَّ، فإذا اشتدَّ به الغضبُ حتى صار كالسكران كان أولى بعدم وقوع الطلاق منه؛ لأنه يُعْذَرُ ما لا يُعذَر السكران، ويَبْلغُ به الغضبُ أشدَّ ما يَبْلُغُ به السُّكْر، كما يُشاهَد مِنْ حال السكران والغضبان. ٢٨.

١١- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فجعلَ سبب المؤاخذة كَسْبَ القلبِ، وكَسْبُه هو إرادتُه وقصدُه. ومَنْ جرى على لسانه الكلام مِنْ غير قصدٍ واختيار، بل لشدةِ غضبٍ وسكْرٍ أو غير ذلك، لم يكن من كَسْبِ قلبه. ٢٩.

١٢- العاقل لا يستدعي الغضب ولا يريده، بل هو أكرهُ شيءٍ إليه، وهو كما قال النبي ﷺ: «جَمْرَةٌ في قلب ابن آدم، أَمَّا رأيتم من احمرارِ عَيْنَيْه وانتفاخِ أوداجه؟!». ٣١.

١٣- الخوف في قلب المكره كالغضب في قلب الغضبان، لكنَّ المكرَه مقهورٌ بغيره مِنْ خارج، والغضبان مقهورٌ بغضبه الداخلِ فيه. ٣٢.

١٤- المنقول عن الصحابة وجمهور التابعين والأئمة الأربعة اعتبار نذر اللَّجاج والغضب، وإن تنازعوا في مُوجَبه، فأوجب مالك وأهل العراق الوفاءَ به كنذر التبرُّرِ، وخَيَّرَ الليث بن سعد والشافعيُّ وأحمد بن حنبل بين فعلِه وبين كفارة اليمين، ولم يقل أحدٌ منهم: إنه لا ينعقد، وإنه لغو. ٣٥.

١٥- والإكراهُ على الأفعال ثلاثةُ أنواع:

نوعٌ لا يُباح بالإكراه، كقتلِ المعصومِ، وإتلافِ أطرافِه.

ونوعٌ يُبِيحُه الإكراه بشرط الضمان، كإتلاف مالِ المعصوم

ونوعٌ مختلفٌ فيه، كالزنا، والشُّربِ، والسرقة، وفيه روايتان عن الإمام أحمد. ٣٥.

١٦- وما يضاف إلى الشيطان مما يكرهه العبد ولا يحبُّه، فلا يؤاخذ به الإنسان، كالوسوسة والنسيان، كما قال فتى موسى لموسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف: ٦٣]. ٣٧.

١٧- الغضب مرضٌ من الأمراض، وداءٌ من الأدواء، فهو في أمراض القلوب نظيرُ الحُمَّى والوسواس والصَّرعِ في أمراض الأبدان. ٣٩.

١٨- مِن الناسِ مَنْ إذا لم يُنْفِذْ غضبَه قَتَلَه غَضبُه، ومات أو مرض أو غُشِيَ عليه، كما يُذكَر عن بعض العرب أن رجلًا سبَّهُ، فأراد أن أن يَرُدَّ على السابِّ، فأمسك جليسٌ له بيده على فمه، ثم رفع يده لما ظَنَّ أن غضبه قد سَكَن، فقال: قتلتني!

ردَدْتَ غضبي في جوفي!. ومات من ساعته. ٤١.

١٩- ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يُجْلَدُ بالقذف في حال الخصومة والغضب، وإنما يُجْلَدُ به إذا أتى به اختيارًا وقصدًا لقذفه وهو قول قويٌّ جدًّا، ويدلُّ عليه أن الخصمَ لا يُعَزَّرُ بِجَرحِه لخصمه، وطعنِه فيه حال الخصومة، بقوله: هو فاجرٌ، ظالمٌ، غاشمٌ، يحلف على الكذب، ونحو ذلك. ٤١.

٢٠- إذا تكلَّم بالطلاق دواءً لهذا المرض الذي هو الغضب، وشفاءً له، بإخراج هذه الكلمة من صدره، وتنفُّسِه بها؛ فمِنْ كمال هذه الشريعة ومحاسِنها وما اشتملت عليه من الرحمةِ والحكمة والمصلحة = أنْ لا يُؤاخَذَ بها، ويُلْزَمَ بموجَبها، وهو لم يَلزَمْهُ. ٤٢، بتصرف.

٢١- قاعدة الشريعة أن العوارض النفسيَّة لها تأثيرٌ في القول، إهدارًا واعتبارًا، وإعمالًا وإلغاءً. ٤٣.

٢٢- الناس متفاوتون في الغضب تفاوتًا عظيمًا، فمنه ما هو كالنَّشوة، ومنه ما هو كالسُّكْر، ومنه ما هو كالجُنون، ومنه ما هو سريعُ الحصولِ سريعُ الزوالِ، وعكسُه، ومنه سريعُ الحصول بطيء الزوال، وعكسه، كما قسَّمه النبي ﷺ إلى هذه الأقسام.

٢٣- وقُوى الناس متفاوتةٌ تفاوتًا عظيمًا في مُلك تقواهم عند الغضب، والطمع، والحزن، والخوف، والشهوة، فمنهم من يملك [ذلك] ويتصرَّفُ فيه، ومنهم من يملكُه ذلك ويتصرَّف فيه. ٤٨.

٢٤- الغَضِب الذي قد انغلق عليه القصدُ والرأيُ في الغضب، وقد صار إلى الجنون العارض أقربَ منه إلى العقل الثابت = أولى بعدم وقوع طلاقه من الهازل

المتلفِّظ بالطلاق في حال عقله وإن لم يُرِدْهُ بقلبه.

٢٥- وقد ألغى طلاقَ الهازل بعضُ الفقهاء، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، حكاها أبو بكر عبد العزيز وغيره، وبه يقول بعض أصحاب مالك إذا قام دليلُ الهزل. ٤٨.

٢٦- الموسوس لا يقع طلاقه، صرَّح به أصحابُ أبي حنيفة وغيرهم، وما ذاك إلا لعدم صِحة العقل والإرادة منه. ٥٠.

٢٧- لم يَقُلْ أحدٌ إن مجرد التكلُّم بلفظ الطلاق مُوجِبٌ لوقوعه على أيِّ حالٍ كان، بل لابدَّ من أمرٍ آخر وراءَ التكلُّم باللفظ.

فطائفةٌ اشترطَتْ أن يأتيَ به في حال التكليف، فقط، سواءً قصَدَه أو جرى على لسانه من غير قصد، سواءً أُكِره عليه أو أَتَى به اختيارًا.

وهذا مذهبُ مِنْ يُوقِع طلاقَ المكره، والطلاقَ الذي يجري على لسان العبد من غير قصد منه. وهو المنصوص عن أبي حنيفة في الموضعين.

وطائفة اشترطت: مع ذلك أن يأتيَ باللفظ مختارًا، قاصدًا له. وهو قول الجمهور الذين لا يُنفِذون طلاق المكره. ٥٠.

٢٨- الدليلُ إمَّا نصٌّ وإمَّا معقولُ نصٍّ. ٥٧.

٢٩- جمهور العلماء يقولون: إن طلاق الصبيِّ المميِّزِ العاقلِ لا يَنْفُذُ ولا يَصِحُّ. هذا قولُ أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد اختارها الشيخ أبو محمد، وهو قول إسحاق. ٥٧.

٣٠- سبق اللسان إلى الطلاق من غير قصدٍ له مانعٌ من وقوعه عند الجمهور.

[٩] (زاد المعاد في هدي خير العباد)

١- الله: لا فوز إلا في طاعته، ولا عزَّ إلا في التذلُّل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربه، ولا صلاح للقلب ولا فلاح إلا في الإخلاص له وتوحيد حبِّه. ٥، بتصرف.

٢- الله: إذا أطيع شكر، وإذا عُصِي تاب وغفر، وإذا دعي أجاب، وإذا عومل أثاب. ٥، بتصرف.

٣- لا إله إلا الله: لأجلها نُصِبت الموازين، ووُضِعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها تقسَّمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار فهي منشأ الخلق والأمر والثواب والعقاب. ٦، بتصرف.

٤- لا إله إلا الله: عليها نُصِبت القبلة، وعليها أُسِّست الملَّة، ولأجلها جُرِّدت سيوفُ الجهاد، وهي حقُّ الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام. ٦، بتصرف.

٥- فلا تزول قدما العبد بين يدي الله تعالى حتى يُسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فجواب الأولى بتحقيق لا إله إلا الله معرفةً وإقرارًا وعملًا. وجواب الثانية بتحقيق أن محمدًا رسول الله معرفةً وإقرارًا وانقيادًا وطاعةً. ٦.

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي: الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

وهنا تقديران:

أحدهما: أن تكون الواو عاطفةً لـ (مَنْ) على الكاف المجرورة

والثاني: أن تكون الواو واوَ مع، وتكون (مَنْ) في محلِّ نصب عطفًا على الموضع، فإن «حسبك» في معنى «كافيك»، أي الله يكفيك ويكفي من اتبعك. وهذا أصحُّ التقديرين.

وفيها تقدير ثالث: أن تكون (مَن) في موضع رفع بالابتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله. ٨، بتصرف.

٧- الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففرَّق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده. ٩.

٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: ٦٨]. وليس المراد بالاختيار هاهنا الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وإنما المراد بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء . ١٣، بتصرف.

٩- الأنبياء عليهم السلام مئة ألف وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رسولا. ١٩، بتصرف.

١٠- ومن خواصِّ مكة: أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض. وأصحُّ المذاهب في هذه المسألة: أنه لا فرق في ذلك بين الفضاء والبنيان لبضعة عشر دليلًا قد ذُكِرت في غير هذا الموضع. ٢٥، بتصرف.

١١- ومن خواصِّ مكة: أن المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض. ٢٥، بتصرف.

١٢- فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه، والذي أسَّسه هو يعقوب بن إسحاق ﷺ بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار. ٢٦.

١٣- ومن خصائص مكة: أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصِّيَّة لا يشاركها فيها شيء من البلاد.

وللفقهاء في المسألة ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها. فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها حكمُه حكمُ أهل مكة، وهذا قول أبي حنيفة. والقولان الأولان للشافعي وأحمد. ٢٦، بتصرف.

١٤- ومن خواصِّ البلد الحرام: أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥]. وتأمَّلْ كيف عدَّى فعل الإرادة هاهنا بالباء ــ ولا يقال: أردت بكذا ــ لما ضمَّنه معنى فعل (يَهُمُّ) فإنه يقال: هممت بكذا. فتوعَّد من هَمَّ بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم. ٢٧، بتصرف.

١٥- البلد الأمين: جذبُه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو أولى بقول القائل:

محاسنُه هَيُولى كلِّ حُسْـــــنٍ ومِغْناطيسُ أفئدةِ الرجال. ٢٨، بتصرف.

١٦- من الأبيات الجميلة التي استشهد بها:

وليس محبا من يعد شقاءه عذابا إذا ما كان يرضي حبيبه. ٢٩.

١٧- نفسُ البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو بما يقع فيها من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنًى وعرفة

والمشاعر على أي بقعة سمَّيتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها. ٣٠.

١٨- ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: ليس كل أحد أهلًا ولا صالحًا لتحمل رسالاتِه، بل لها محالُّ مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها. ٣٠.

١٩- والصواب أن يوم الحج الأكبر يوم النحر، لقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ﴾ [التوبة: ٣]. وثبت في «الصحيحين» أن أبا بكر وعليًّا أذَّنا بذلك يوم النحر، لا يوم عرفة. ٣٣.

٢٠- ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان. ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فُضِّلت باعتبار ليلة القدر وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فُضِّل باعتبار أيامه، إذ فيه يوم النحر ويوم عرفة ويوم التروية. ٣٥، بتصرف.

٢١- والصواب أن يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام، وكذلك ليلة القدر وليلة الجمعة. ٤٠.

٢٢- قربه تعالى عشية عرفة لأهل الموقف نوعان:

أحدهما: قرب الإجابة المحقَّقة في تلك الساعة.

والثاني: قربه الخاص من أهل عرفة، ومباهاته بهم ملائكته. (٤٤)، بتصرف.

٢٣- والله سبحانه جعل الطيِّبَ بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيثَ بحذافيره في النار. فجعل الدور ثلاثةً: دارًا أُخلِصت للطيِّب، وهي حرام على غير الطيِّبين، وقد جمَعت كلَّ طيِّب، وهي الجنة. ودارٌ أُخلِصت للخبيث والخبائث ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار. ودارٌ مُزِج فيها الطيِّب والخبيث وخُلِط بينهما، وهي هذه

الدار. ٤٨.

٢٤- من عجائب السلف في التأليف والتصنيف: أن تعلم أن ابن القيم ألف كتابه العظيم [زاد المعاد في هدي خير العباد]، وهو كتاب هدي وسيرة وشمائل، ومزوج بالفقه، مشحون بالأدلة، غزير بالتحقيق، ألفه في سفره!

يقول رحمه الله:

وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيِّه ﷺ وسيرته وهديه، اقتضاها الخاطر المكدود على عُجَره وبُجَره، مع البضاعة المزجاة التي لا تُفتَح لها أبوابُ السُّدَد، ولا يتنافس فيها المتنافسون، مع تعليقها في حال سفر لا إقامة، والقلبُ بكلِّ واد منه شعبة، والهمةُ قد تفرَّقت شذَرَ مذَرَ، والكتاب مفقود، ومن يفتح بابَ العلم مذاكرتُه معدوم غير موجود. فعُودُ العلم النافع الكفيل بالسعادة قد أصبح ذاويًا، ورَبْعُه قد أوحش من أهله وعاد منهم خاليًا. فلسانُ العالِم قد مُلئت بالفلول مَضاربُه لغلبة الجاهلين، وعادت موارد شفائه وهي معاطبُه لكثرة المنحرفين والمحرِّفين. فليس له معوَّل إلا الصبر الجميل، وما له ناصر ولا معين إلا الله وحده، وهو حسبنا ونعم الوكيل. ٥٢.

٢٥- وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل من أكثر من عشرين وجهًا. ٥٣.

٢٦- وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشَّر أمَّ إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: ٧٠ - ٧١] فمحال أن يبشِّرهما بأنه يكون له ولد ثم يأمره

بذبحه. ٥٤.

٢٧- العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يُفصَل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجر والمجرور. ٥٦.

٢٨- فلا ريب أن الذبح كان بمكة، ولذلك جُعِلت القرابين يوم النحر بها، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه. ٥٧، بتصرف.

٢٩- فإن الله سبحانه سمَّى الذبيح «حليمًا»، لأنه لا أحلم ممن سلَّمَ نفسَه للذبح طاعةً لربه. ولما ذكر إسحاق سماه «عليمًا»، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ إلى أن قال: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب لأنه من امرأته، وهي المبشَّرة به؛ وأما إسماعيل فمن السُّرِّيَّة. وأيضًا فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه وُلِد قبل ذلك. ٥٧.

٣٠- فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم لما سأل الله الولدَ ووهبه له تعلَّقَ شعبةً من قلبه بمحبته. والله تعالى قد اتخذه خليلًا، والخُلَّة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد جاءت غيرةُ الخُلَّة تنزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود. ٥٨، بتصرف.

٣١- فإنَّ سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشدَّ الغيرة، فإنها كانت جاريةً، فلما ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه اشتدَّت غيرةُ سارة، فأمره الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها، ويُسكِنهما في أرض مكة، لتبرد عن سارة حرارة الغيرة. وهذا

من رحمته ورأفته بها، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله؟. ٥٨، بتصرف.

٣٢- حكمته البالغة ﷻ اقتضت أن أمَرَ بذبح ولد السُّرِّيَّة، فحينئذ ترِقُّ عليها السِّتُّ وعلى ولدها، وتتبدَّل قسوةُ الغيرة رحمةً، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتًا هذه وابنها منهم؛ ولِيُرِيَ عبادَه جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة. ٥٨، بتصرف.

٣٣- سنته تعالى فيمن يريد رفعته من خلقه: أن يمُنَّ عليه بعد استضعافه وذلِّه وانكساره. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥] و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤]. ٥٩.

٣٤- ولا خلاف أنه ﷺ ولد بجوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل. وكان أمر الفيل تقدمةً قدَّمها الله لنبيِّه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب. ٥٩.

٣٥- واختلف في وفاة أبيه عبد الله: هل توفي ورسول الله ﷺ حمل، أو توفي بعد ولادته؟ على قولين أصحُّهما: أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل. والثاني: توفي بعد ولادته بسبعة أشهر. ٥٩.

٣٦- ولا خلاف أن أمه ماتت بين مكة والمدينة بالأبواء منصرَفَها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين.

فكفله جدُّه عبد المطَّلب. وتوفي ولرسول الله ﷺ نحو ثمان سنين. وقيل: ستّ، وقيل: عشر.

ثم كفله عمُّه أبو طالب، واستمرَّت كفالته له. ٦٠.

٣٧- فلما بلغ خمسًا وعشرين سنةً خرج إلى الشام في تجارة، فوصل إلى بُصْرَى، ثم رجع، فتزوَّج عقيب رجوعه خديجة بنت خويلد. وقيل: تزوَّجها وله ثلاثون سنةً، وقيل: إحدى وعشرون؛ وسنُّها أربعون. ٦١.

٣٨- خديجة ﵂ أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم ينكح عليها غيرها، وأمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربِّها. ٦١.

٣٩- فلما كمل له ﷺ أربعون أشرق عليه نورُ النبوة، وأكرمه الله برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصَّه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده. ٦١، بتصرف.

٤٠- ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين.

واختُلِف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، هذا قول الأكثرين. وقيل: بل كان ذلك في رمضان، وقيل: في رجب. ٦١، بتصرف.

٤١- ذكر ابن القيم ﵀ أن مراتب الوحي سبعة، قال: وزاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحا بغير حجاب، قال: وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربَّه تبارك وتعالى. وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة بل كلُّهم مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة. ٦٣، بتصرف.

٤٢- أمهات رسول الله ﷺ اللاتي أرضعنه:

ثُوَيبة مولاة أبي لهب، وأرضعت معه عمه حمزة، ثم حليمة السعدية، وأم عمه حمزة، فكان حمزة رضيع النبي ﷺمن وجهين: من جهة ثويبة، ومن جهة السعدية. ٦٨، بتصرف.

٤٣- حواضنه ﷺ:

منهن: آمنة بنت وهب، وثويبة، وحليمة، والشيماء ابنتها، وأم أيمن، بركة الحبشية، وزوَجها من حبه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة ٦٩، بتصرف.

٤٤- حاضنة النبي ﷺ أم أيمن، بركة الحبشية، دخل عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بعد موت النبي ﷺ وهي تبكي، فقالا: يا أم أيمن، ما يبكيك؟ فما عند الله خيرٌ لرسوله. قالت: إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وإني إنما أبكي لانقطاع خبر السماء. فهيَّجتهما على البكاء، فبَكَيا. ٦٩، بتصرف.

٤٥- بعث الله رسوله ﷺ على رأس أربعين، وهي سنُّ الكمال. قيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يُذكر عن المسيح أنه رُفِع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنةً، فهذا لا يُعرَف به أثرٌ متصلٌ يجب المصير إليه. ٧٠، بتصرف.

٤٦- وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة: الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنةً، فهذه الرؤيا منها جزء من ستة وأربعين جزءًا. والله أعلم. ٧٠.

٤٧- ثم أكرمه الله سبحانه بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يُحِبُّ الخلوة فيه، فأول ما أنزل عليه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة والجمهور.

وقال جابر: أول ما أنزل عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١].

والصحيح قول عائشة لوجوه، ثم ذكرها. ٧٠، بتصرف.

٤٨- مراتب الدعوة خمس:

المرتبة الأولى: النبوة.

الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.

الثالثة: إنذار قومه

الرابعة: إنذار قومٍ ما أتاهم نذيرٌ من قبله، وهم العرب قاطبةً.

الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر. ٧١، بتصرف.

٤٩- فأقام ﷺ بعد مبعثه ثلاث سنين يدعو إلى الله مستخفيًا. ثم نزل عليه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]، فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومَه بالعداوة. واشتدَّ الأمرُ عليه وعلى المسلمين حتى أُذِن لهم في الهجرتين. ٧٢، بتصرف.

٥٠- أسماؤه ﷺ كلها أسماءُ نعوتٍ ليست أعلامًا محضةً لمجرَّد التعريف، بل أسماء مشتقَّة من صفات قامت به توجب له المدح والكمال.

فمنها: محمد، وهو أشهرها. وبه سُمِّي في التوراة صريحًا، ومنها: أحمد، وهو الاسم الذي سمَّاه به المسيح لسرٍّ ذكرناه في ذلك الكتاب.

ومنها: المتوكِّل.

ومنها: الماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفِّي، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الرحمة، ونبيُّ الملحمة، والفاتح، والأمين. ٧٢، بتصرف.

٥١- ويلتحق بأسمائه ﷺ: الشاهد، والمبشِّر، والنذير، والقُثَم والضحوك القتّال، وعبد الله، والسراج المنير، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد، وصاحب المقام المحمود؛ وغير ذلك من الأسماء. ٧٣، بتصرف.

٥٢- وأسماؤه ﷺ نوعان:

أحدهما: خاصٌّ به لا يشرَكه فيه غيرُه من الرسل، كمحمد، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفِّي، ونبي الملحمة.

والثاني: ما شرِكه في معناه غيره من الرسل ولكن له منه كماله، فهو مختصٌّ بكماله دون أصله كرسول الله، ونبيِّه، وعبده، والشاهد، والمبشِّر والنذير، ونبي التوبة، ونبي الرحمة. ٧٤.

٥٣- الفرق بين أحمد ومحمد أن محمَّدًا هو كثير الخصال التي يُحمَد عليها، و أحمد هو الذي يُحمَد أفضلَ ما يُحمَد غيرُه، فمحمَّد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية؛ فيستحِقُّ من الحمد أكثرَ ما يستحِقُّ غيرُه، وأفضلَ مما يستحِقُّ غيرُه، فيُحمَد أكثرَ حمدٍ وأفضلَ حمدٍ حُمِدَه البشرُ. فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا أبلغ في مدحه وأكمل معنًى. ٨٠، بتصرف.

٥٤- وأما الفاتح، فهو الذي فتح الله به بابَ الهدى بعد أن كان مُرْتَجًا، وفتحَ به الأعينَ العُمْيَ والآذانَ الصُّمَّ والقلوبَ الغُلْفَ، وفتح به أمصارَ الكفر، وفتح به أبوابَ الجنة، وفتح به طرقَ العلم النافع والعمل الصالح= ففتح به الدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع والأبصار، والأمصار. ٨٠.

٥٥- وأما الأمين، فهو أحقُّ العالمين بهذا الاسم، فهو أمين الله على وحيه ودينه، وهو أمين من في السماء، وأمين من في الأرض. ولهذا كانوا يسمُّونه قبل النبوة «الأمين». ٨٤.

٥٦- وأما الضحوك القتَّال، فاسمان مزدوجان لا ينفرد أحدُهما عن الآخر، فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين غير عابس ولا مقطِّب ولا غضوب ولا فظٍّ، قتَّال

لأعداء الله لا تأخذه فيهم لومة لائم. ٨٤.

٥٧- وأما البشير، فهو المبشِّر لمن أطاعه بالثواب، والنذير المنذر لمن عصاه بالعقاب. ٨٤.

٥٨- وثبت عنه في (الصحيح) أنه قال: «أنا سيد ولد آدم» ﷺ.

٥٩- وسمَّاه الله ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وسمَّى الشمس ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣]، والمنير: هو الذي يُنِير من غير إحراق، بخلاف «الوهَّاج» فإنَّ فيه نوع إحراق وتوهُّج. ٨٥.

٦٠- في الهجرة الأولى إلى الحبشة: هاجر من المسلمين اثنا عشر رجلًا وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان، وهو أول من خرج، ومعه زوجته رقية. ٨٥، بتصرف.

٦١- أُسْرِي بجسده وروح ﷺ إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِج به إلى فوق السماوات إلى الله ﷻ، فخاطبه، وفرض عليه الصلوات. وكان ذلك مرةً واحدةً. هذا أصحُّ الأقوال، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق. ٨٨، بتصرف.

٦٢- فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زُرَيق. ٨٩.

٦٣- من أولاده ﷺ عبد الله، والصحيح أن الطاهر والطيب لقبان له. وهؤلاء كلُّهم من خديجة، ولم يولد له من زوجة غيرها. ٩٢.

٦٤- وكلُّ أولاده توفِّي قبله ﷺ إلا فاطمة، فإنها تأخَّرت بعده بستة أشهر، فرفع الله لها بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فضَلت به نساءَ العالمين. ٩٢.

٦٥- وفاطمة أفضل بناته ﷺ على الإطلاق، وقد قيل: إنها أفضل نساء العالمين. وقيل: بل أمها خديجة. وقيل: بل عائشة. وقيل بالوقف في ذلك. ٩٢، بتصرف.

٦٦- عائشة رضي الله عنها لم يتزوج ﷺ بكراً غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، ونزل عذرها

من السماء، واتفقت الأمة على كفر قاذفها، وهي أفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق. ٩٤، بتصرف.

٦٧- قال ابن عقيل: ظاهر كلام أحمد أن النبي ﷺ لا يشترط في نكاحه الولي، وأن ذلك من خصائصه. ٩٨.

٦٨- ولا خلاف أنه ﷺ توفِّي عن تسع، كان يقسم منهن لثمان: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وسودة، وجويرية. ١٠٦.

٦٩- مؤذنوه ﷺ كانوا أربعةً: اثنان بالمدينة: بلال بن رباح، وهو أول من أذَّن لرسول الله ﷺ، وعمرو بن أمِّ مكتوم القرشي العامري الأعمى. وبقباء: سعدُ القَرَظ مولى عمَّار بن ياسر. وبمكة: أبو محذورة، واسمه أوس بن مِعْيَر الجُمَحي. ١١٧، بتصرف.

٧٠- من أمرائه عليهم السلام: باذان بن ساسان، من ولد بَهْرام جُور، أمَّره رسول الله ﷺ على أهل اليمن كلِّها بعد موت كسرى، فهو أول أمير في الإسلام على اليمن، وأول من أسلم من ملوك العجم. ١١٧، بتصرف.

٧١- كان شعراؤه عليهم السلام الذين يذُبُّون عن الإسلام:

كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسَّان بن ثابت. وكان أشدّهم على الكفار حسَّان. وكعب بن مالك يعيِّرهم بالكفر والشرك. وكان خطيبه ثابت بن قيس بن شمَّاس. ١٢١، بتصرف.

٧٢- غزواته عليهم السلام كلُّها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين. فالغزوات سبع وعشرون، وقيل: خمس وعشرون، وقيل: تسع عشرة، وقيل غير

ذلك.١٢١، بتصرف.

٧٣- قاتل ﷺ في تسع غزوات، وهي الغزوات الكبار: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. وقيل: قاتل في بني النضير، والغابة، ووادي القرى من أعمال خيبر. ١٢٢، بتصرف.

٧٤- جُرِح – عليه الصلاة والسلام - في غزوة واحدة وهي أحد. وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين. ونزلت يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم. وكان الفتح في غزوتين: بدر، وحنين. وقاتَل بالمَنْجَنيق في غزوة واحدة، وهي الطائف. وتحصَّن بالخندق في واحدة، وهي الأحزاب، أشار عليه به سلمان الفارسي. ١٢٢، بتصرف.

٧٥- وأحمد في إحدى روايتيه يجوِّز لبسَ الحرير في الحرب. ١٢٦.

٧٦- والعضباء من إبله – عليه الصلاة والسلام -، وكانت لا تُسْبَق، ثم جاء أعرابي على قَعود له، فسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «إنَّ حقًّا على الله أن لا يرفع من الدنيا شيئًا إلا وضَعه». ١٣١، بتصرف.

٧٧- كانت له ﷺ عِمامة تسمى: السَّحاب، كساها عليًّا. وكان يلبسها تحت القلنسوة. وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة، ويلبس العمامة بغير قلنسوة. ١٣٢، بتصرف.

٧٨- ولبس القميص ﷺ، وكان أحبَّ الثياب إليه، وكان كمُّه إلى الرُّسْغ. ١٣٤، بتصرف.

٧٩- ولبِس ﷺ حُلَّةً حمراء. والحُلَّة: إزار ورداء، ولا تكون الحُلَّة إلا اسمًا للثوبين معًا. وغلِط من ظنَّ أنها كانت حمراء بحتًا لا يخالطها غيرها، وإنما الحُلَّة الحمراء: بردان يمانيان منسوجان بخطوط حُمْر مع الأسود، كسائر البرود اليمنية. ١٣٤، بتصرف.

٨٠- وفي جواز لُبْس الأحمر من الثياب والجُوخ وغيرها نظرٌ. وأما كراهته، فشديدة جدًّا. ١٣٦.

٨١- وأما هذه الأكمام الواسعة الطِّوال التي هي كالأخراج، فلم يلبَسها ﷺ ولا أحدٌ من أصحابه البتة. وهي مخالفة لسنَّته، وفي جوازها نظر، فإنها من جنس الخيلاء. ١٣٩، بتصرف.

٨٢- وكان أحبَّ الألوان إليه البياض، وقال: «هي من خير ثيابكم، فالبسوها وكفِّنوا فيها موتاكم». ١٣٩، بتصرف.

٨٣- وقال بعض السلف: ابكُوا من خشية الله، فإن لم تبكُوا فتباكَوا. ٢٠١.

٨٤- وكان مدار خطبه ﷺ على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه. ٢٠٤.

٨٥- ومدينة رسول الله ﷺ التي كانت خطبته فيها إنما فتُحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف. ٢٠٦.

٨٦- وكان يقصِّر خطبه أحيانًا ﷺ، ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة الناس. وكانت خطبه العارضة أطول من خطبه الراتبة. وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحضُّهن على الصدقة. ٢٠٧، بتصرف.

٨٧- وكلُّ من له علم بأحوال السلف يعلم قطعًا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلَّفة التي هي على إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها أو يسوِّغوها؛ ويعلمُ قطعًا أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسِّنون أصواتهم بالقرآن، ويقرؤونه بشجًى تارةً، وبطرب تارةً، وبشوق تارةً. وهذا

أمر في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارعُ مع شدَّة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه، وندب إليه، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن». وفيه وجهان، أحدهما: أنه إخبار بالواقع، أي كلُّنا نفعله. والثاني: أنه نفيٌ لهَدْيٍ من لم يفعله عن هَدْيه وطريقته. والله أعلم. ٦٣٢.

[١٠] (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)

١- فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمانٌ قليلٌ في غاية الضعف، وصاحبه ممن ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [الحج/ ١١]. ٩.

٢- ولما كان الإيمان نصفين: نصفَ صبر ونصفَ شكر، كان حقيقًا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها، أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين. ١٠.

٣- فالصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التَّشكّي والتسَخُّط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما. ١٥.

٤- والتحقيق: أن في الصبر المعاني الثلاثة: المنعَ والشدةَ والضمَّ. ١٨.

٥- وسُئل الجنيد بن محمد عن الصبر؛ فقال هو: "تجرُّع المرارة من غير تعبُّس". ١٩، بتصرف.

٦- للَّه على العبد عبوديّة في عافيته وفي بلائه، فعليه أن يحسن صحبةَ العافية بالشكر، وصحبةَ البلاء بالصبر. ٢٠.

٧- وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر، كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «إن لم يكن بك غَضَبٌ عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتَك أوسعُ لي»، ولا يناقض هذا قولَه ﷺ: «وما أُعطِي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصّبرِ»؛ فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له منه. ٢٢.

٨- فالشكوى نوعان:

أحدهما: الشكوى إلى اللَّه، فهذا لا ينافي الصبر؛ كما قال يعقوب عليه السلام:

﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣].

والنوع الثاني: شكوى المُبتلى بلسان الحال أو المقال، فهذا لا يُجامع الصبر بل يُضادّه، ويُبطله. ٢٤، بتصرف.

٩- وقيل: "الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب". ٢٥.

١٠- والصبر والجَزَعُ ضدان، ولهذا يُقابَل أحدُهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]. ٢٥.

١١- والنفس مطيةُ العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخِطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شرَدَت في كل مذهب. ٢٥.

١٢- والنفس فيها قوّتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره. ٢٦.

١٣- وقيل: "الصبر: ثباتُ باعثِ العقل والدين في مقابلة باعث الشهوة والطّبع ". ٢٧.

١٤- مقامات الدين كلها مرتبطة بالصبر. ٣٠، بتصرف.

١٥- والتخلُّق لا يصير خُلُقًا أبدًا؛ كما قال الشاعر

يُراد من القلب نسيانُكم ... وتأبى الطباعُ على النّاقِل

وقال الآخر:

يا أيُّها المتحلّي غيرَ شِيمَته ... إن التخلُّقَ يأتي دونه الخُلُق

وقال الآخر:

فَضَحَ التطبُّعُ شيمةَ المطبوع. ٣١.

١٦- قالوا: والمُزاولات تُعطي الملَكات. ٣٢.

١٧- قالوا: والعوائدُ تنقل الطّبائع. ٣٣.

١٨- فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبُّر يتكرر حتى يصير اصطبارًا. ٣٣.

١٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]؛ فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في التصبُّر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على التصبُّر والمصابرة. ٣٣.

٢٠- قال قتادة: "خلق اللَّه سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلًا وشهوة، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم". ٣٧.

٢١- فمن الناس من يَدخُل الجنة ولا يدخُل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة. ٤٥.

٢٢- الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام:

صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها.

وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها.

وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها. ٤٨.

٢٣- وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد، أصحهما أنه مستحب. (٤٩).

٢٤- فرجعَ الدين كلُّه إلى هذه القواعد الثلاثة: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور. (٤٩).

٢٥- فكل موضع قُرنَ فيها التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة – أي: الصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الأُقدار المؤلمة -، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور. ٥٣، بتصرف.

٢٦- وأما الصبر المندوب، فهو: الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر عن مقابلة الجاني بمثل فعله. ٥٤.

٢٧- وأما الصبر المحظور فأنواع:

٢٨- أحدها: الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت، وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت.

٢٩- قال طاووس وبعده الإمام أحمد: من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار. ٥٤.

٣٠- ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾ [القلم: ٤٨]:

والمكظوم والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غَيْظًا أو غَضَبًا أو هَمًّا وحزَنًا، وكظم عليه فلم يُخرجه. ٦١.

٣١- والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يُرِد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه. ٦٣.

٣٢- وقيل لبعضهم: كيف تشكو إليه ما لا يخفى عليه؟ فقال:

قالو أتشكو إليه ما لا يخفى عليه

فقلتُ ربِّي يرضى ذلّ العبيد لديه. ٦٣.

٣٣- فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارًا أو اضطرارًا، وأما الصبر على

الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتباعًا أصبرهم في ذلك. ٦٤.

٣٤- فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. ٧٧.

٣٥- قال يحي بن معاذ الرازي: "صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجبا كيف يصبرون؟ ".

وفي هذا قيل:

والصبرُ يَجْمُلُ في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يَجْمُلُ ٧٧.

٣٦- ووقف رجل على الشِّبلي فقال: أي الصبر أشد على الصابرين؟. فقال: الصبر في الله؟ فقال: لا. فقال: الصبر لله؟. قال: لا. قال: فالصبر مع الله؟. قال: لا. قال: فأيشٍ هو؟ قال: الصبر عن الله. فصرخ الشِّبلي صرخة كادت روحه تزهق. ٧٨.

٣٧- وقيل: الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. ٧٨.

٣٨- ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود. ٧٩.

٣٩- وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر لله وصبر بالله، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]. وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧].٨٠.

٤٠- قال أبو علي: فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣، والأنفال: ٤٦].

وهاهنا سر بديع وهو: أن من تعلَّق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه. ٨٥.

٤١- واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو: ثبات القلب بالاستقامة معه، لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقة هذا الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه. ٨٧.

٤٢- ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]:

يفهم منه معنيان:

أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث «تعلمتُ فيك العلم».

والثاني: أنه بسببه وفي جهته حصل ذلك وهذا فيما يصيبه بغير اختياره، وغالب ما يأتي قولهم: "وذلك في الله" في هذا المعنى. ٨٨ بتصرف.

٤٣- العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء، ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلًا، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه، كان لقلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق، وفي هذه الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيمًا وقرة عين. ٩١.

٤٤- قال بعض الزهاد: "عالجت قيام الليل عشرين سنة ثم تنعَّمت به عشرين سنة"، ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة. ٩١.

٤٥- قال بعض العقلاء: "العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعلُه الأحمق بعد شهر"، كما قيل:

رأى الأمر يُفضي إلى آخِر فصيّر آخرَه أولًا. ٩٤.

٤٦- وقال بعض العقلاء: "من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم". ٩٤.

٤٧- فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان. ٩٥.

٤٨- ما أمر الله سبحانه بأمر إلا أعان عليه ونصب له أسبابًا تمدّه وتُعين عليه، كما أنه ما قدّر داءً إلا قدّر له دواءً، وضمن الشفاء باستعماله. ٩٦.

٤٩- فالصبر وإن كان شاقًّا كريهًا على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تُركب جميع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان، فلا بدَّ من جزء علمي وجزء عملي، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية. ٩٦.

٥٠- عين الهوى عمياء. ٩٩.

٥١- من الأبيات التي استشهد بها:

سأتركُ وصلكم شَرَفًا وعِزًّا ... لِخِسَّة سائر الشُّركاء فيه. ٩٩.

٥٢- من الأبيات التي استشهد بها:

إذا كثر الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنبُ الأسودُ ورودَ مَاءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيه. ٩٩.

٥٣- من الأبيات التي استشهد بها:

لو فَكّرَ العاشقُ في منتهى ... حُسنِ الذي يَسبيه لم يَسْبِه. ١٠١.

٥٤- وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين. ١٠٢.

٥٥- تذهب الشهوة وتبقى الشقوة. ١٠٣.

٥٦- فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها؛ فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم. ١٠٥.

٥٧- فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله. والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة

يزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز. ١٠٦.

٥٨- فإن كلَّ شيء من الإنسان يستعمله للَّه فإن اللَّه يقيه شرّ استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله للَّه استعمله لنفسه وهواه ولا بد. ١٠٧.

٥٩- فمن عوّد نفسه العمل للَّه لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عوّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشقّ من الإخلاص والعمل للَّه، وهذا في جميع أبواب الأعمال. ١٠٧.

٦٠- فمن أُعطي منشور الدعاء أُعطي الإجابة، فإنه لو لم يُرد إجابته لما ألهمه دعاءه، كما قيل:

٦١- لو لم ترِد نَيلَ ما أرجو وأطلبه ... من جود كفك ما عوّدتَني الطَّلبا. ١٠٩.

٦٢- فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلًا إلا إذا كانت تغضبه عليه، وتبعده منه. ١٠٩.

٦٣- فالمرء مع من أحب طبعًا وعقلًا وجزاءً، وكل مهتم بشيء] فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، "وكلُّ امرئ يصبو إلى ما يناسبه"، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهممها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل. ١١٠.

٦٤- تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة. ١١٠.

٦٥- فإذا طهّر العبد قلبه وفرّغه من إرادات السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرّضه لمهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه، كان جديرًا في حصول المُغَلّ. ١١١.

٦٦- الزهد في الدنيا ملك حاضر. ١١٢.

٦٧- فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو الملك حقًّا؛ لأن صاحب هذا الملك حرٌّ، والمَلِك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخَّر مملوك في زي مالك، يقوده زمام الشهوة والغضب، كما يقاد البعير. ١١٢.

٦٨- العوائد أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر على عوائده أبدا. ١١٣، بتصرف.

٦٩- وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما: يوافق هواه ومراده.

والآخر: يخالفه.

وهو يحتاج إلى الصبر في كل منهما. ١١٤.

٧٠- قال بعض السلف: "البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صدّيق".

وقال عبد الرحمن بن عوف: "ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر". ١١٥.

٧١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]:

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادّة، بل عداوة المحبة الصادّة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة، وغير ذلك من أعمال البر. ١١٥.

٧٢- وإنما كان الصبر على السرّاء شديدًا؛ لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة

الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها. ١١٧.

٧٣- فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحبًا لذكره في أمره. ١١٨.

٧٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]:

فليس الشأن في الإتيان بالطاعة إنما الشأن في حفظها مما يبطلها. ١١٩.

٧٥- وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات [ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقطع] العوائد، فإن العادة طبيعة خامسة فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان على جند الله، فلا يقوى باعث الدين على قهرها. ١١٩.

٧٦- العشق: أوله اختيار، وآخره اضطرار. ١٢١، بتصرف.

٧٧- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]:

فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين ولا يَستغني أحدهما عن صاحبه. ١٢٢.

٧٨- من توبة الداعي إلى البدعة أن يبيّن أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضدّه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]. ١٢٣، بتصرف.

٧٩- مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فُقدا معًا سهُل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفُقِد الآخر سهُل الصبر من وجه وصعُب من

وجه. ١٢٥.

٨٠- الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما. ١٢٦.

٨١- وقال ميمون بن مهران: "الصبر صبران، فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية". ١٢٨.

٨٢- وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: ٢٤]، قال: "صبروا على ما أمروا، وصبروا عما نهو عنه".

وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلًا في قسم المأمور به، والله أعلم. ١٢٨.

٨٣- ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾: فمن لا صبر له؛ لا عون له. ١٣١.

٨٤- وقال الحسن: "إنه ليُكفّر عن العبد خطاياه كلُّها بحمى ليلة". ١٥٣.

٨٥- فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما تولّد منها، كما ذكر سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة في قوله في المباشِر من الإنفاق وقطع الوادي: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ [التوبة: ١٢١]، وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ [التوبة: ١٢٠]. ١٥٥.

٨٦- فالطاعات تَرفع الدرجات، والمصائب تحُطُّ السيئات. ولهذا قال ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يُصِب منه». وقال: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». فهذا يرفعه، وهذا يحطُّ خطاياه. ١٥٦.

٨٧- وقال مجاهد: "الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١﴾ [مريم: ٧١] ".

وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على

الحمى قطعًا، وإنما مراده أن الله سبحانه أخبر عباده كلهم بورود النار، فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه فيسهل عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعًا، والله أعلم. ١٦١.

٨٨- وقال بعض السلف: "لولا مصائب الدنيا وردنا القيامة مفاليس". ١٦٧.

٨٩- وقال وهب بن منبه: "لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يعدَّ البلاء نعمة، ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء". ١٧٢.

٩٠- وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب: "وجدنا خير عيشنا بالصبر". ١٧٦.

٩١- وقال ابن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]: "لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا". ١٧٨.

٩٢- وقال الحسن: "ما جرعتان أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبُها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم". ١٨٣.

٩٣- قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش:

٩٤- أما والذي لا خُلد إلا لوجهــه ومن ليسَ في العز المنيع له كفو

لئن كان بدءُ الصبرِ مُرًّا مذاقه لقد يُجتنى من غِبه الثمر الحلو. ١٨٤.

٩٥- وعزَّى ابن السمَّاك رجلًا فقال: "عليك بالصبر فبه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزَع". ١٨٦.

٩٦- وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: "ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ". ١٨٦.

٩٧- وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء. ١٩٥.

٩٨- وقال عبد الله بن مسعود: "الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر".

ولهذا جمع الله ﷻ بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾ [إبراهيم: ٥، الشورى: ٣٣، سبأ: ١٩، لقمان: ٣١]، في سورة إبراهيم، وفي سورة حم عسق، وفي سورة سبأ، وفي سورة لقمان. ٢٠٥.

٩٩- فباليقين يَعلم حقيقةَ الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبالصبر ينفِّذ ما أُمر به ويكفُّ نفسه عما نُهي عنه. ٢٠٦.

١٠٠- فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا راهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر. ٢٠٨.

١٠١- الدين مداره على أصلين: العزمُ والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إني أسألُك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد». ٢٠٨.

١٠٢- وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيّد العبد بعزيمة وثبات، فقد أُيد بالمعونة والتوفيق. ٢٠٩.

١٠٣- الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٣]. ٢٠٩.

١٠٤- وأفضل العلم والعمل والحال العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته، وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا وجزاؤه أشرف ما في الآخرة. ٢١٥.

١٠٥-وأجل المقاصد معرفة اللَّه عز وجل ومحبته، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا أجلّ سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها. ٢١٥.

١٠٦- ومتى أراد اللَّه بالعبد كمالًا وفّقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هُيِّئَ له، فإذا استفرغ وسعه فيه بَرز على غيره، وفاق الناس فيه وصار كما قيل:

ما زال يَسبق حتى قال حاسدُه ... له طريق إلى العلياءِ مختصرُ. ٢١٧.

١٠٧- وقال عمر بن عبد العزيز: "قيِّدوا نعم اللَّه بشكر اللَّه". ٢٢٧.

١٠٨- وقال مطرّف بن عبد اللَّه: "لئن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أُبتلى فأصبر". ٢٢٧.

١٠٩-وقال الشعبي: "الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كلّه". ٢٢٩.

١١٠- وقد ذم اللَّه سبحانه الكنودَ، وهو: الذي لا يشكر نعمَه. قال الحسن: " ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦] يعدد المصائب وينسى النعم". ٢٣٠.

١١١- مما استشهد به من الأبيات:

أيها الظالم في فعله ... والظلمُ مردودٌ على من ظَلَمْ

إلى متى أنت وحتى متى ... تشكو المصيباتِ وتنسى النِّعَمْ. ٢٣١.

١١٢-وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان للَّه عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت. ٢٣٣.

[١١] (التبيان في أيمان القرآن)

١- اعلم أنَّ الله - سبحانه - يُقْسِمُ بأمورٍ على أمورٍ، وإنَّما يُقْسِم بنفسِهِ [المُقَدَّسَةِ] الموصُوفَةِ بصفاتِه، أو آياتِه المستلزِمة لِذَاتِه وصفاتِه، وإقْسَامُه ببعض المخلوقات دليلٌ على أنَّه من عظيم آياته. ٥.

٢- والمُقْسَمُ عليه يُرَاد بالقَسَم توكيدُهُ وتحقيقُهُ، فلا بدَّ أن يكون ممَّا يَحْسُن فيه ذلك، كالأمور الغائبةِ والخَفِيَّة إذا أُقْسِمَ على ثبوتها.

فأمَّا الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس، والقمرِ، واللَّيلِ، والنَّهارِ، والسماءِ، والأرضِ، فهذه يُقْسَمُ بها ولا يُقْسَمُ عليها. ٥.

٣- ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]:

فالمعنى - في أظهر الوجهين -: لو يَرى الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة. ٦.

٤- ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل: ٤]:

ولفظ "السَّعي" هو: العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتمُّ به صاحبُه، ويجتهد فيه بحسب الإمكان. ١١.

٥- فمتى ثبت أنَّ الرسول حقٌّ ثبت القرآنُ والمَعَادُ، ومتى ثبت أنَّ القرآن حقٌّ ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أنَّ الوعد والوعيد حقٌّ ثبت صدقُه وصدقُ الكتاب الذي جاء به. ١٣.

٦- والجوابُ يُحذَف تارةً ولا يُراد ذِكْرُه، بل يراد تعظيمُ المُقْسَمِ به، وأنَّه ممَّا يُحلَفُ

به، كقول النبيِّ ﷺ: «من كان حالفًا فَلْيَحلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ». ١٣.

٧- ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ ﴾:

معنى قول كثير من المفسِّرين - متقدِّميهم ومتأخِّريهم -: إنَّ الجوابَ محذوفٌ، تقديرُه: إنَّ القرآن لَحَقٌّ. ١٥.

٨- ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾:

وكلُّ نفسٍ لوَّامةٌ، فالنَّفْسُ السعيدة تلوم على فعلِ الشَّرِّ، وتركِ الخير، فتبادر إلى التوبة، والنَّفْسُ الشَّقِيَّةُ بالضدِّ من ذلك. ٢٥.

٩- يسلُكُ طائفةٌ من النُّظَّار الاستدلالَ بالزَّمان على الصانع، وهو استدلالٌ صحيحٌ؛ قد نبَّهَ عليه القرآنُ في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ٢٧.

١٠- ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾:

و"الطَّحْو": هو مَدُّ الأرض وبسطُها ، وتوسيعُها ليستقرَّ عليها الأنامُ والحيوانُ، ويمكن فيها البِنَاء والغِرَاس والزرع. ٢٨.

١١- وقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾؛ الضمير المرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ عائدٌ على "مَنْ"، وكذلك هو في ﴿دَسَّىٰهَا﴾، والمعنى قد أفلح من زكَّى نفسه، وقد خاب من دَسَّاها، هذا هو القول الصحيح. ٢٩.

١٢- وقال أبو العباس : سألتُ ابنَ الأعرابي عن قوله: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ فقال: "دسَّ" معناه: دسَّ نفسَه مع الصالحين وليس منهم". ٣١.

١٣- ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾:

قال ابن عباس - في رواية عطاء -: "قد أفلَحَت نَفْسٌ زكَّاها اللهُ، فأصلَحَها". ٣٢.

١٤- ومن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يُعَاقَبُ به من سَعَى في الأرض بالفساد، وسَفَكَ الدماء بغير حقٍّ، وأقامَ الفتن، واستهانَ بحرمات الله = عَلِم أنَّ النَّجَاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون" . ٣٨.

١٥- ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾:

إن أُريد به جِنْسُ "الفجر" - كما هو ظاهر اللفظ - فإنَّه يتضمَّنُ وقت صلاة الصبح، التي هي أوَّل الصلوات. فافتتح القَسَم بما يتضمَّنُ أوَّل الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ المتضمِّن لآخر الصلوات.

وإن أُريد بـ "الفجر" فجرٌ مخصوصٌ، فهو فجرُ يوم النَّحْرِ وليلته. (٤١).

١٦- ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢ ﴾:

وعرَّفَ "الفجر" باللَّام إذ كُلُّ أحدٍ يعرفه، ونكَّرَ الليالي العشر؛ لأنَّها إنَّما تُعرف بالعلم.

وأيضًا؛ فإنَّ في التنكير تعظيمًا لها، فإنَّ التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف "الفجر" ما يدلُّ على شهرته، وأنَّه "الفجر" الذي يعرفه كُلُّ أحدٍ ولا يجهله. ٤٨.

١٧- ﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾:

ثُمَّ أخبر أنه صبَّ عليهم سَوْط عذاب؛ أي: سوطًا من عذاب. ونكَّره: إمَّا للتعظيم؛ وإمَّا لأنَّ يسيرًا من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن لهم معه بقاءٌ ولا ثباتٌ. (٤٩).

١٨- وهو ﷻ يبتلي عبدَهُ بنعمةٍ تجلب له أُخرى، وبنعمةٍ تجلب له نِقْمةً، وبنقْمةٍ تجلب له أُخرى، وبنقمةٍ تجلب له نعمةً ، فهذا شأنُ نِعَمِهِ ونقَمِهِ سبحانه. (٤٩).

١٩- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾:

فسر "الكبد" بالاستواء وانتصاب القامة، وفسر بالنصب، وفسر بشدة الخلق وإحكامه وقوته. ٥١، بتصرف.

٢٠- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾:

قال ابن عباس - في رواية مِقْسَم عنه -: "مستقيمٌ منتصِبٌ على قدميه". ٥١.

٢١- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾:

قال الحسن: "لم يخلق الله خليقةً تكابد ما يكابد ابن آدم" . ٥٣.

٢٢- فالإنسان مخلوقٌ في شِدَّةٍ ولا راحة له إلا في الجنَّة. ٥٤، بتصرف.

٢٣- فمرجع البلاد إلى "مكة"، ومرجع العباد إلى آدم. ٥٧.

٢٤- وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنَّه من الإحلال، وهو ضِدُّ الإحرام.

والثاني: أنَّه من الحُلُول، وهو ضِدُّ الظَّعْن.

وفي الآية قولٌ ثالثٌ ؛ وهو أنَّ المعنى: وأنتَ مُسْتَحَلٌّ قَتْلُكَ وإخراجُك من هذا البلد الأمين ٥٧، بتصرف.

٢٥- ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ ﴾:

وهو الكثير الذي يُلَبَّدُ بعضُه فوق بعضٍ. ٦١.

٢٦- وهل كمال المخلوق مستفادٌ إلا من خالقه؟. ٦١.

٢٧- والرُّسُلُ بُعِثُوا مذكِّرين بما في الفِطَرِ والعقول، مُكَمِّلين له؛ لتقوم على العبد حُجَّةُ الله بفطرته ورسالته. ٦٢.

٢٨- فإنَّ طريقةَ القرآن: يذكر العلمَ والقدرةَ، تهديدًا وتخويفًا؛ لِيُرتِّبَ الجزاءَ عليهما،

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ [الأنعام: ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ٩ - ١٠، ١٤] ، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] ، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠] وهذا كثيرٌ جدًّا في القرآن. ٦٤.

٢٩- والرَّبُّ ﷻ موصوفٌ بكمالِ القدرة، وكمالِ العلم، فالجزاء منه موقوفٌ على مجرَّدِ مشيئَتِهِ وإرادته، فحينئذٍ يجب على العاقل طلب النَّجَاة منه بالإخلاص والإحسان، وهو اقتحام "العقبة" المتضمِّن للتوبة إلى الله تعالى، والإحسان إلى خلقه. ٦٤.

٣٠- ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ ﴾:

وقال مجاهد، والضحَّاك: "هي "الصِّرَاطُ"، يُضْرَبُ على جهنَّم".

وهذا لعلَّه قول الكلبي.

وقولُ هؤلاء أصحُّ نظرًا، وأثرًا، ولغةً.

قال قتادة: "إنَّها عقبةٌ شديدةٌ، فاقتحِمُوها بطاعة الله".

وفي أثرٍ معروفٍ: "إنَّ بين أيديكم عقبةً كؤودًا لا يَقْتحِمُها إلَّا المُخِفُّون" ؛ أو نحو هذا، فإنَّ اللهَ - تعالى - سمَّى الإيمانَ به، وفعلَ ما أَمَرَ، وتركَ ما نَهَى: عقبةً. ٦٧.

٣١- ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾:

فـ "التِّينُ" و"الزيتونُ": المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما، وهو أرض بيت المقدس، فإنَّها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا. ٦٩.

٣٢- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾:

أي: في أحسن صورةٍ وشَكْلٍ واعتدالٍ، مُعْتَدِلَ القامة، مستويَ الخِلْقة ، كاملَ الصورة، أحسنَ من كل حيوانٍ سواه.

والتقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل. ٧٢.

٣٣- ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾:

والصحيح أنَّه النَّار، قاله: مجاهد، والحسن، وأبو العالية.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: "هي النَّار بعضها أسفل من بعض". ٧٣.

وذكر ثمانية أوجه في ترجيح ما ذهب إليه.

٣٤- وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ ، أي: غير مقطوعٍ، ولا منقوصٍ، ولا مكدَّرٍ عليهم. هذا هو الصواب.

وقالت طائفةٌ: غير ممنونٍ به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم. ويذكر هذا عن: عكرمة، ومقاتل، وهو قول كثيرٍ من القَدَرِيَّة. ٧٧.

٣٥- وأمَّا مِنَّةُ الخالق على المخلوق فبها تمامُ النِّعمة، ولذَّتُها، وطِيبُها، فإنَّها مِنَّةٌ حقيقيةٌ، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات: ١٧]. ٧٧.

٣٦- ما للعبادِ عليهِ حقٌّ واجبٌ كلَّا، ولا سَعْيٌ لديهِ ضـائـعُ

إن عُذِّبُوا فبعَدْلِه، أو نُعِّمُوا فبفَضْلِه، وهو الكريمُ الواسعُ. ٨٠.

٣٧- وقوله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ [التين: ٧]، أصحُّ القولين: أنَّ هذا خطابٌ للإنسان. ٨٠.

٣٨- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾:

وقابَلَ بين الذَّكَر والأنثى كما قابَلَ بين الليل والنَّهار، وكلُّ ذلك من آيات ربوبيته، فإنَّ إخراج الليل والنَّهار بواسطة الأجرام العُلْويَّة، كإخراج الذَّكَر والأنثى بواسطة الأجرام السُّفْلية، فأخرج من الأرض ذكورَ الحيوان وإناثَه على اختلاف أنواعه، كما أخرج من السماء الليلَ والنَّهارَ بواسطة الشمس فيها. ٨٧.

٣٩- ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾:

فالمتَّقِي ميسَّرٌ عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يُسِّرَتْ عليه بعضُ أمور دنياه تعسَّرَ عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. ٨٩.

٤٠- فإنَّ طِيْبَ العيش، ونعيمَ القلب، ولذَّةَ الرُّوح وفرحَها وابتهاجَها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجَلُّ من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذَّات، ونعيم أهل التقوى بالطاعات والقربات أعظم وأَجَلُّ. ٨٩.

٤١- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩]:

وهذا تيسيرٌ بالفرقان المتضمِّن للنَّجاةِ، والنَّصرِ، والعلمِ، والنُّورِ الفارق بين الحقِّ والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير. ٩٠.

٤٢- وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٣٠﴾ [آل عمران: ١٣٠]، والفلاح غاية اليُسْر، كما أنَّ الشَّقَاءَ غايةُ العسر. ٩٠.

٤٣- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ [الحديد: ٢٨]، فضَمِنَ لهم - سبحانه - بالتقوى ثلاثةَ أمور:

أعطاهم نَصِيبَين من رحمته؛ نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يُضَاعِفُ لهم نصيبَ الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم.

وهذا غاية التيسير، فقد جعل - سبحانه - التقوى سببًا لكلِّ يُسْرٍ، وتَرْكَ التقوى سببًا لكلِّ عُسْرٍ. ٩١.

٤٤- ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ ﴾:

وفُسِّرَت بـ "لا إله إلا الله"، وفُسِّرت بالجنَّة، وفُسِّرت بالخَلَف، وهي أقوال السلف.

و"اليُسْرَى": صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، أي: الحالة والخَلَّة اليُسْرَى، وهي "فُعْلَى" من اليُسْرِ.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء. ٩١.

٤٥- فإنَّ التصديقَ الحقيقي بـ "لا إله إلا الله" يستلزم التصديقَ بشُعَبِها وفروعِها كلِّها.

وجميعُ الدِّين - أصولُه وفروعُه - من شُعَب هذه الكلمة. ٩١.

٤٦- فإنَّ "النَّفْسَ" لها ثلاثُ قوى:

- قوَّةُ البذل والإعطاء.
- وقوَّةُ الكَفِّ والامتناع
- وقوَّةُ الفَهْم والإدراك. ٩٣.

٤٧- الدِّين: طلبٌ، وخبرٌ. والطلبُ نوعان: طلبُ فعلٍ، وطلبُ تركٍ. ٩٤.

٤٨- قال ابن عباس ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾: "نُهَيِّئُه لعمل الخير، ونيسِّرها عليه".

وقال مقاتل، والكلبي، والفرَّاء: "نُيَسِّرُه للعَود إلى العمل الصالح". ٩٥.

٤٩- وحقيقة "اليُسْرَى" أنَّها الخَلَّةُ والحالَةُ السَّهْلَةُ النافعةُ الواقعة له، وهي ضِدُّ العُسْرَى، وذلك يتضمَّنُ تيسيره للخير وأسبابه، فيُجْرِي الخيرَ ويُيَسِّرُه على قلبِه، ونيتِه، ولسانِه، وجوارحِه. ٩٥.

٥٠- من الأبيات التي استشهد بها:

مُبارَكُ الطَّلْعَةِ مَيْمُونُها يَصْلُحُ للدنيا وللدِّينِ. ٩٦.

٥١- فَسُبْحَانَ من تعرَّفَ إلى خواصِّ عباده بكلامه، وتجلَّى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرًا بعد عَينٍ، ولا يستبدلون الحقَّ بالباطل، والصدق بالمَيْنِ. ٩٨.

٥٢- والنبيُّ ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرَّبُّ - تعالى -: أنَّ العبد ميسَّرٌ لمَا خُلِق له ؛ لا مَجْبُورٌ، فالجَبْر لفظٌ بدعيٌّ، والتيسير لفظ القرآن والسُّنَّة. ٩٩.

٥٣- من النَّاس من خُلِقَ للسَّعادة، ومنهم من خُلِق للشَّقَاوة، خلافًا لمن زعم أنَّهم كلُّهم خُلِقُوا للسَّعَادة، ولكن اختاروا الشَّقَاوة، ولم يُخْلَقُوا لها. ١٠٠.

٥٤- ولو اتَّكَلَ العبدُ على القَدَر ولم يعمل لتعطَّلت الشرائع، وتعطَّلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدِّين، وإنَّما يَسْتَرْوِحُ إلى ذلك مُعَطِّلُو الشرائع، ومن خَلَعَ رِبْقَةَ الأوامر والنواهي من عنقه. ١٠١.

٥٥- وحكمتُهُ الباهِرةُ تأْبَى أن يضع عقوبته في موضعٍ لا تصلُح له، كما تَأْبَى أن يَضَع كرامته وثوابه في مَحَلٍّ لا يصلح له ولا يليق به، بل حكمةُ آحادِ خلقه تَأْبَى ذلك، ومَنْ جعل مَحَلَّ المِسْكِ والرَّجِيعِ واحدًا فهو من أسفه السفهاء. ١٠٢.

٥٦- شأنُ الربوبية خَلْقُ الأشياءِ وأضدادِها، وخَلْقُ المَلْزُومات ولوازِمِها، وذلك هو مَحْضُ الكَمَال. ١٠٣.

٥٧- ووجودُ المَلْزُومِ بدون لازِمِه ممتنعٌ ، ولولا خَلْقُ المُضَادَّاتِ لَمَا عُرِفَ كمالُ القدرة والمشيئة والحكمة، ولَمَا ظهرت أحكامُ الأسماء والصفات، وظهورُ أحكامِها وآثارِها لابدَّ منه، إذ هو مقتضى الكمالِ المقدَّسِ، والمُلْكِ التامِّ. ١٠٣.

٥٨- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [الليل: ١٢، ١٣]:

وقيل: المعنى: من سَلَكَ الهُدَى فعَلَى الله سبيلُه، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وهذا قول مجاهد ، وهو أصحُّ الأقوال في الآية. ١٠٥.

٥٩- والهُدَى التَّامُّ يتضمَّنُ: توحيدَ المطلُوبِ، وتوحيدَ الطَّلَبِ، وتوحيدَ الطريقِ المُوصِلة. ١٠٧.

٦٠- فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصِّدْقَ والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتِّبَاعَ الأمر.

فالأوَّل: يوقع في الشِّرْكِ، والرِّيَاء.

والثاني: يوقع في المعصيةِ، والبَطَالَةِ.

والثالث: يوقع في البدعةِ، ومُفَارَقَةِ السُّنَّةِ، فتأمَّلْهُ. ١٠٧.

٦١- فـ "توحيدُ المطلوب" يعصِمُ من الشِّرْك، و"توحيدُ الطلب" يعصِمُ من المعصية، و"توحيدُ الطريق" يعصِمُ من البدعةِ، والشيطانُ إنَّما يَنْصِبُ فَخَّهُ بهذه الطرق الثلاثة. ١٠٨.

٦٢- ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾:

وفي الآية إرشادٌ إلى أنَّ صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمَّلَ مِنَنَ الخَلْق ونِعَمَهُم، وإن حَمَلَ منها شيئًا بادَرَ إلى جزائهم عليه؛ لئلَّا يبقى لأحدٍ من الخَلْقِ عليه نعمةٌ تُجْزَى، فيكون بعد ذلك عمله كلُّه لله وحده، ليس جزاءً للمخلوق على نعمته. ١٠٨.

٦٣- ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾:

ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبدُ عليه مِنَّةً لأحدٍ من النَّاس، لتكون معاملته كلها لله إبتغاء وجهه، وطلب مرضاته. ١٠٩.

٦٤- ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾:

ونفَى - سبحانه - أن يكون ودَّعَ نبيَّهُ أو قَلَاهُ، فالتوديع: التَّرْكُ، والقِلَى: البُغْضُ، فما تَرَكَهُ منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغَضَهُ منذ أحبَّهُ. ١١١.

٦٥- ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾:

وهذا يَعُمُّ ما يعطيه من القرآنِ، والهُدَى، والنَّصْرِ، وكثرةِ الأتْبَاع، ورَفْع ذِكْرِهِ، وإعلاءِ كلمتِه، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجَنَّة. ١١١.

٦٦- ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾:

قال أكثر المفسِّرين: هو سائل المعروف والصدقة.

وقال الحسن: "أَمَا إنَّه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم".

والتحقيق: أنَّ الآية تتناول النَّوعَين. ١١٤، بتصرف.

٦٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾:

قال مجاهد: "بالقرآن".

وقيل: بالنبوة.

والتحقيق: أنَّ النِّعَم تعُمُّ هذا كلَّه، فأُمِر أن لا ينهر سائلَ المعروفِ والعلمِ، وأن يحدِّثَ بِنعَم الله عليه في الدنيا والدِّين. ١١٦، بتصرف.

٦٨- ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ [العاديات: ١]:

قيل: إبل الحاج.

وقيل: خيل الغزاة. ١١٧، بتصرف.

٦٩- ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ ﴾:

وخصَّ الإغارة بالصُّبْح؛ لأنَّ العَدُوَّ لم ينتشروا إذ ذاك، ولم يفارقوا مَحَلَّهم، وأصحاب الإغارة جامُّون مستريحون، يبصرون مواقع الغَارَة، والعَدُوُّ لم يأخذوا أُهْبَتَهم، بل هم في غِرَّتِهم وغَفْلَتِهم. ١٢١.

٧٠- وتفسير النَّاس يدور على ثلاثة أصول:

١ - تفسيرٌ على اللفظ؛ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون.

٢ - وتفسيرٌ على المعنى؛ وهو الذي يذكره السلف.

٣- وتفسيرٌ على الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

١ - أن لا يناقض معنى الآية.

٢ - وأن يكون معنىً صحيحًا في نفسه.

٣ - وأن يكون في اللفظ إشعارٌ به.

٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباطٌ وتلازُمٌ.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا. ١٢٤.

٧١- ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾:

والكنود: الكفور للنعمة، وأصل اللفظة: منع الحق والخير، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هو الكفور".

وقيل: البخيل، وقيل: اللوام لربه. ١٢٥، بتصرف.

٧٢- وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾؛ فقال ابن عباس: "يريد: وإنَّ ربَّهُ على ذلك لشهيد".

وقيل: وإنَّ الإنسان لشهيدٌ على ذلك، إن أنكره بلسانه شَهِد به عليه حاله.

ويؤيِّد هذا القول اتِّسَاقُ الضمائر، فإنَّ قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ للإنسان، فافتتحَ الخبرَ عن الإنسان بكونه كَنُودًا، ثُمَّ ثنَّاهُ بكونه شهيدًا على ذلك، ثُمَّ ختمَهُ بكونه بخيلًا بماله لحُبِّهِ إيَّاهُ.

ويؤيِّدُ قولَ ابن عباس ﷺ أنَّه أتى بـ "على" فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ أي: مطَّلِعٌ عالمٌ به. ١٢٧.

٧٣- ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾:

و"الخَير" ها هنا: المالُ باتفاق المفسِّرين.

و"الشَّدِيد": البخيل، والمعنى: وإنَّه لبخيلٌ من أَجْل حُبِّ المال، فحُبُّ المال هو الذي حمله على البُخْل، هذا قول الأكثرين. ١٢٩.

٧٤- ومَنَعَت طائفةٌ من النُّحَاة أن يعمل ما بعد "اللَّام" فيما قبلها، وهذه الآيات حُجَّةٌ على الجواز، فإنَّ قوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ معمول ﴿لَكَنُودٌ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ معمول ﴿لَشَهِيدٌ﴾، ولا وجه للتكلُّف البارد في تقدير عامِلٍ مقدَّمٍ محذوفٍ يفسِّرُه هذا المذكور، فالحقُّ جوازُ: إنِّي لِزَيْدٍ لَضَارِبٌ. ١٣٠.

٧٥- فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل. ١٣٠.

٧٦- ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ ﴾:

وجمع - سبحانه - بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبيُّ ﷺ في قوله: «مَلأَ

اللهُ أَجْوَافَهم وقُبُورَهم نارًا» ، فإنَّ الإنسانَ يواري صدرُهُ ما فيه من الخير والشرِّ، ويواري قبرُهُ جسمَهُ، فيُخرِجُ الرَّبُّ جسمَهُ من قبره، وسِرَّهُ من صدره، فيصير جسمُهُ بارزًا على الأرض، وسِرُّهُ باديًا على وجهه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٦]. ١٣١.

٧٧- ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾:

وقيَّدَ - سبحانه - كونه خبيرًا بهم ذلك اليوم - وهو خبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ - إيذانًا بالجزاء، وأنَّه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمرادُ لازِمُهُ، والله أعلم. ١٣٢.

٧٨- ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ ﴾:

وأكثر المفسِّرين على أنَّه الدَّهْر، وهذا هو الراجح.

ونبَّهَ بالمَبْدَأ وهو خَلْقُ الزَّمَان والفاعلين وأفعالهم على المَعَاد، وأنَّ قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المَعَاد، وأنَّ حكمته التي اقتضت خَلْقَ الزَّمان وخَلْقَ الفاعلين وأفعالهم - وجعلها قسمين: خيرًا وشرًّا - تأْبَى أن يُسَوِّي بينهم. ١٣٣، بتصرف.

٧٩- ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، ولم يقل: (وتواصوا)، فإنَّ التَّوَاصي هو أَمْرُ الغَير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فعله، فإنَّ الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره به، فإنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر مرتبةٌ زائدةٌ؛ وقد يكون فرضًا على الأعيان، وقد يكون فرضًا على الكفاية، وقد يكون مستحبًّا. ١٣٤، بتصرف.

٨٠- ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣ ﴾:

و"التواصي بالحقِّ" يدخل فيه: الحقُّ الذي يجب، والحقُّ الذي يستحب. و"الصبر" يدخل فيه: الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب. ١٣٥.

٨١- ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣ ﴾:

فإنَّ العبد له حالتان: حالةُ كمالٍ في نفسه، وحالةُ تكميلٍ لغيره.

وكماله وتكميله موقوفٌ على أمرين: علمٌ بالحقِّ، وصبرٌ عليه. ١٣٦.

٨٢- وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ إرشادٌ إلى منصب الإمامة في الدِّين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامةُ في الدِّين. ١٣٦.

٨٣- و"الصبر" نوعان:

نوعٌ بالمقدور، كالمصائب

ونوعٌ بالمشروع. وهذا النَّوع - أيضًا - نوعان:

١ - صبرٌ على الأوامر.

٢ - وصبرٌ عن المناهي .

فذاك صبرٌ على الإرادة والفعل، وهذا صبرٌ عن الإرادة والفعل. ١٣٦.

٨٤- ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥]:

فالصبر بدون الايمان والتقوى بمنزلة قوَّة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. ١٣٧.

٨٥- ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الروم: ٦٠]:

فمن قَلَّ يقينُه قلَّ صَبْرُه، ومن قَلَّ صبره خَفَّ واستخفَّ. ١٣٨.

٨٦- فالمُوقِنُ الصابرُ رَزِينٌ ملآنُ، ذو لُبٍّ وعقلٍ، ومَنْ لا يقين له ولا صبر خفيفٌ طائشٌ، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرِّياح بالشيء الخفيف. والله المستعان. ١٣٨.

[١٢] (المنار المنيف في الصحيح والضعيف)

١- وكان النبي ﷺ من رَغبته في السّواك- يَستاك إذا قام من نَوم اللّيل، واذا دَخل بَيته، وإذا صَلّى، واستاك عندَ مَوته وهو في السياق. ٨.

٢- ذَبح الشاة الواحدة يوم النَّحر أحب إلى الله من الصدقة بأضعاف أضعاف ثمنها، وإن كَثُر ثواب الصّدَقة. ١١.

٣- قِراءة سُورة بتدبّر ومَعرفة وتَفهُّم، وجَمع القلب عليها، أحب إلى الله تعالى من قِراءة خَتمة سَردًا وهذًّا، وإن كثر ثواب هذه القراءة. ١١.

٤- صلاة ركعتين يُقبل العبد فيهما على الله تعالى بقَلبه وجَوارحه، ويُفرّغ قَلبه كلّه لله تعالى فيهما، أحب إلى الله تعالى من مِئتي ركعة خَالية عن ذلك، وإن كَثُر ثوابها عددًا. ١١.

٥- قال الصحابة رضي الله عنهم : "إنّ اقتصادًا في سَبيل وسُنّة، خَير من اجتهاد في خِلاف سَبيل وسُنّة". ١٢.

٦- فالعمل اليسير الموافق لمرضاة الربّ وسُنّة رسوله: أحب إلى الله تعالى من العمل الكثير، إذا خلا عن ذلك، أو عن بعضه. ١٢.

٧- ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾:

فهو سبحانه وتعالى إنما خَلق السموات والأرض، والموت والحياة، وزَيّن الأرض بما عليها ليَبْلُوَ عِباده أيهم أحسن عملًا، لا أكثر عملًا.

و"الأحسن" هو: الأخلص والأصوب، وهو الموافق لمرضاته ومحبته. ١٢، بتصرف.

٨- قَبول الرِّضا والمحبّة والاعتداد والمباهاة شيء، وقَبول الثواب والجزاء شيء. ١٣.

٩- قال ابن عُمر وغيره من الصحابة: "لو أعلم أنّ الله قَبل مِنّي سَجدة واحدة، لم يكن غائب أحب إلي من الموت". ١٤.

١٠- والقَبول [ثلاثة] أنواع:

قَبول رِضًا ومَحبّة واعتداد ومُباهاة، وثَناء على العامل به بين الملأ الأعلى.

وقَبول جَزاء وثَواب، وإن لم يَقع مَوقع الأوّل.

وقبول إسقاط للعقاب فقط. ١٤.

١١- والأعمال تَتفاضل بتفاضُل ما في القلوب من الإيمان والمحبة والتعظيم والإجلال، وقصد وجه المعبود وحده، دُون شيءٍ من الحظوظ سواه، حتى تكون صورة العمَلين واحدة، وبينهما في الفضل ما لا يُحصيه إلا الله تعالى.

وتَتفاضل أيضًا بتَجريد المتابعة. ١٥.

١٢- قوله في الحديث الصحيح: "من صام رمضان، وأتبعه بستٍّ من شَوال، فكأنّما صام الدّهر":

وفي كونها من شوال سِرّ لَطيف، وهو: أنها تَجري مجرى الجُبْران لرمضان، وتَقضي ما وقع فيه من التقصير في الصوم، فتجري مجرى سُنّة الصلاة بعدها، ومَجرى سجدتي السهو، ولهذا قال: "وأتبعه" أي ألحقه بها. ٢١.

١٣- تَفاضُل الأعمال ليس بكثرتها وعَدَدها، وإنما هو بإكمالها وإتمامها، ومُوافقتها لرضا الربّ وشَرعه. ٢٢.

١٤- مما يعرف به كون الحديث موضوعا:

اشتماله على مجازفات، وتكذيب الحس له، وسماجة الحديث، ومناقضة الحديث لما جاءت به السنة مناقضة بينة، وأن يدعى على النبي ﷺ أنه فعل أمرًا

ظاهرًا بمحضر من الصحابة كلهم، وأنهم اتفقوا على كتمانه. ٣٦، وما بعدها، بتصرف.

١٥- مما يعرف به كون الحديث موضوعا:

أن يكون الحديث باطلاً في نفسه، وأن يكون كلامه لا يشبه كلام الأنبياء، وأن يكون في الحديث تاريخ كذا وكذا، وأن يكون الحديث بوصف الأطباء والطرقية أشبه وأليق. (٤٩)، وما بعدها، بتصرف.

١٦- مما يعرف به كون الحديث موضوعا:

أن كل أحاديث العقل كذب، والأحاديث التي ذكر فيها الخضر وحياته، وأن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، ومخالفة الحديث صريح القرآن. ٦٠، وما بعدها، بتصرف.

١٧- مما يعرف به كون الحديث موضوعاً:

ما يقترن بالحديث من القرائن التي يعلم بها أنه باطل، مثل حديث "وضع الجزية عن أهل خيبر"، فالجزية إنما أنزلت بعد عام تبوك، حين وضعها النبي – عليه الصلاة والسلام – على نصارى نجران، ويهود اليمن، ولم تؤخذ من يهود المدينة. ٩٢، بتصرف.

١٨- من الأحاديث التي ضعفها ابن القيم في "المنار المنيف" حديث: «اشربوا على الطعام؛ تشبعوا»، وقال: فإنّ الشُّرب على الطعام يُفسده، ويَمنع من استقراره في المَعدَة، ومن كمال نُضجه. ٣٩.

١٩- فكل أحاديث الديك كذب، إلا حديثًا واحدًا: "إذا سمعتم صِياح [الدّيَكة]، فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت مَلكًا". ٤٥.

٢٠- وكل حديث فيه "يا حُميراء" أو ذكر "الحميراء". فهو كذب مختلق. ٥٠.

٢١- وكل حَديث فيه ذِكر حِسان الوُجوه، أو الثناء عليهم، أو الأمر بالنظر إليهم، أو التماس الحوائج منهم، أو أنّ النار لا تَمسُّهم: فكذبٌ مختلقٌ، وإفكٌ مُفترى. (٥٥).

٢٢- وكل حديثٍ في طَنين الأذن فهو كذبٌ". ٥٩.

٢٣- وكل حديث في "الصخرة" فهو كذب مفترى. [والقدم] الذي فيها كذبٌ موضوعٌ، مما عملته [أيدي] المزورين.

وأرفع شيءٍ في الصخرة أنها كانت قبلة اليهود، وهي في المكان كيوم السبت في الزمان، أبدل الله بها الأمة الكعبةَ البيت الحرام. ٧٩.

٢٤- أحاديث صلوات الأيام والليالي، كصلاة يوم الأحد، وليلة الأحد، ويوم الاثنين، وليلة الاثنين، إلى آخر الأسبوع؛ كل أحاديثها كذب.

وكذلك: أحاديث صلاة الرغَائب ليلة أول جمعة من رَجَب. ٨٣، بتصرف.

٢٥- وكل حديث في ذكر صوم رَجب، وصلاة بعض الليالي فيه، فهو كذبٌ مفترى، كحديث: "من صلّى بعد المغرب أول ليلة من رَجب عشرين ركعة، جاز على الصراط بلا حساب". ٨٤.

٢٦- من الأحاديث الضعيفة التي ضعفها ابن القيم في "المنار المنيف" أحاديث صلاة ليلة النصف من شعبان. انظر: ٨٦.

٢٧- أحاديث ذَمّ الحبَشة والسودان كلها كذب، كحديث: "الزنجي إذا شَبع زنى، وإذا جاع سرق". ٩٠.

٢٨- من الأحاديث التي ضعفها ابن القيم ﷺ في "المنار المنيف" أحاديث ذَمّ الترك ، وحديث ذَمّ الخصيان، وأحاديث ذَمّ المماليك. انظر: ٩١.

٢٩- أحاديث الحَمَام - بالتخفيف- لا يَصح منها شيءٌ.

ومنها: حديث: "كان يُعجبه النظر إلى الحَمَام". ٩٥.

٣٠- أحاديث اتخاذ الدجاج ليس فيها حديث صحيح، كحديث: "الدجاج غَنم فُقراء أمتي". ٩٨.

٣١- أحاديث ذَمّ الأولاد، كلها كذب من أولها إلى آخرها، كحديث: "لو رَبّي أحدكم بعد الستين ومئة جرو كلب، خير له من أن يربي ولدًا".

وحديث: "إذا كان الولد غيظًا، والمطر قيظًا ... ". ٩٩.

٣٢- الاكتحال يوم عاشوراء، والتزيّن، والتوسعة، والصلاة فيه، وغير ذلك من فضائل؛ لا يصح منها شيءٌ، ولا حديثٌ واحدٌ، ولا يثبت عن النبيﷺ فيه غير أحاديث صيامه. وما عداها فباطلٌ. ١٠٣.

٣٣- ذِكر فضائل السور، وثواب من قرأ سورة كذا فله أجر كذا، من أول القرآن إلى آخره. كما يَذكر ذلك الثعلبي في أول كل سورة، والزمخشري في آخرها.

قال عبد الله بن المبارك: أظن الزنادقة وضعوها. انتهى. ١٠٥.

٣٤- وحديث ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وأنها تعدل ثلث القرآن. ولم يصح في فضائل سورة ما صَحّ فيها. ١٠٦.

٣٥- قال الحافظ أبو يَعلى الخَلِيلي في "كتاب الإرشاد": وضعت الرافضة في فضائل علي، وأهل البيت، نحو ثلاث مئة ألف حديث. ١٠٩.

٣٦- قال إسحاق بن رَاهُويه: لا يَصح في فضل معاوية بن أبي سفيان عن النبيﷺ شيءٌ.

قلت: ومُراده، ومُراد من قال ذلك من أهل الحديث: أنه لم يصح [حديث] في

مناقبة بخصُوصه؛ وإلا فما صح في مناقب الصحابة على العموم، ومناقب قريش فهو داخل فيه. ١١٠.

٣٧- قال ابن القيم في "المنار المنيف" عن معاوية – رضي الله عنه - : وكل حديث في ذَمّه فهو كذبٌ. ١١٠.

٣٨- وكل حديث في ذَمّ عَمرو بن العاص فهو كذبٌ. ١١١.

٣٩- وكل حديث في ذَمّ بني أُمية فهو كذبٌ. ١١١.

٤٠- وكل حديث في مَدح المنصور، والسفّاح، [والرشيد]، فهو كذبٌ. ١١١.

٤١- وكل حديث في مَدح بغداد ودِجْلتها، والبصرة، والكوفة، ومَرو، وقَزوين، وعَسقلان، والإسكندرية، ونَصيبين، وأنطاكية، فهو كذبٌ. ١١١.

٤٢- وكل حديثٍ في تحريم وَلد العباس على النار، فهو كذبٌ. ١١٢.

٤٣- وكل حديثٍ في مَدح أهل خراسان؛ الخارجين مع [عبد الله بن على ولد] العباس، فهو كذبٌ. ١١٢.

٤٤- وكل حديثٍ: أن مَدينة كذا وكذا، من مُدن الجنة، أو من مُدن النار، فهو كذبٌ. ١١٢.

٤٥- وكل حديثٍ فيه ذَمّ يَزِيد فكذب. وكذلك أحاديث ذَمّ الوليد وذَمّ مروان بن الحكم. ١١٢.

٤٦- وحديث عَدد الخلفاء من وَلد العباس كذبٌ. ١١٣.

٤٧- وحديث ذَمّ أبي موسى من أقبح الكذب. ١١٣.

٤٨- وحديث: "نَظر رسول الله ﷺ إلى معاوية، وعَمرو بن العاص، فقال: اركسهما في الفتنة رَكسًا، دُعهما إلى النار دَعًا" كذبٌ ومُختلقٌ. ١١٣.

٤٩- وكل حديث فيه أن الإيمان لا يَزيد ولا ينقص، فكذب مُختلقٌ. ١١٣.

٥٠- إجماع الصحابة، والتابعين، وجميع أهل السنّة، وأئمّة الفقه، على أن القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق. ١١٤.

٥١- وكل حديثٍ في التنشيف [بعد] الوُضوء فإنه لا يصح.

٥٢- وكذا حديث مَسْح الرقبة في الوُضوء باطلٌ.

٥٣- وأحاديث الذّكر على أعضاء الوُضوء كلها باطلٌ، ليس فيها شيءٌ يصح. وأقرب ما رُوي منها أحاديث التّسمية على الوُضوء

٥٤- تقدير أقل الحيض بثلاثة أيام، وأكثره لعشرة. ليس فيها شيءٌ صحيحٌ، بل كله باطلٌ.

وكذلك حديث: "لا صلاة لمن عليه صلاة". ١١٨.

٥٥- من الأحاديث الضعيفة:

أحاديث التحذير من التبرم لحوائج الناس، وأحاديث اتخاذ السراري، وأحاديث مدح العزبة، وأحاديث النهي عن قطع السدر. ١١٨، وما بعدها، بتصرف.

٥٦- من الأحاديث الضعيفة:

أحاديث فضائل الأزهار، وأحاديث الحناء وفضله والثناء عليه، وأحاديث اللعب بالشطرنج إباحة وتحريما، وإنما يثبت فيه المنع عن الصحابة. ١٢٦، وما بعدها، بتصرف.

٥٧- إنّ النُّطفة الخبيثة لا يَتخلّق منها طَيّب في الغالب، ولا يَدخل الجنّة إلا نَفْس طَيّبة، فإن كانت في هذا الجنس طَيبة دَخلت الجنة. ١٢٩.

٥٨- قال العُقيلي: لا يصح في البراغيث عن النبي ﷺ شيءٌ. ١٣٠.

٥٩- من الأحاديث الضعيفة:

حديث الأبدال، والأقطاب، والأغواث، والنُّقباء، والنُّجباء، والأوتاد، كلها باطلةٌ على رسول الله ﷺ.

وأقرب ما فيها: "لا تَسبُّوا أهل الشام فإن فيهم البُدلاء، كلما مات رجلٌ منهم، أبدل الله مكانه رجلًا آخر".

ذكره أحمد. ولا يصح أيضًا؛ فإنه مُنقطع. ١٣٢.

٦٠- المنع من رَفع اليدين في الصلاة، عند الركوع، والرفع منه، كلها باطلةٌ مكذوبة على رسول الله ﷺ، لا يصح شيءٌ منها، كحديث ابن مسعود: "إنما أُصلي بكم صَلاة رسول الله ﷺ. قال: فصلّى فلم يَرفَع يديه إلا في أوّل مَرّة". ١٣٣.

٦١- وحديث: "من عَشق فعَفّ فكتم فمات فهو شهيدٌ". موضوعٌ على رسول الله ﷺ. ١٣٧.

٦٢- اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

أحدها: أنه المسيح عيسى ابن مريم، وهو المهدي على الحقيقة.

القول الثاني: أنه المهدي الذي ولي من بني العباس.

القول الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي – صلى الله عليه وسلم -، من ولد الحسن بن علي، وأكثر الأحاديث تدل على هذا.

القول الرابع: أنه محمد بن الحسن العسكري من ولد الحسين بن علي. ١٤٨، بتصرف.

٦٣- ذكر ابن القيم في "المنار المنيف" سرا لطيفا في كون المهدي من ولد الحسن بن علي ﷺ، فقال:

وفي كونه من ولد الحسن سِرٌّ لطيف، وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمنة للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سنة الله في عباده: أنه من ترك لأجله شيئًا أعطاه الله، أو أعطى ذريته أفضل منه، وهذا بخلاف الحسين ﷺ، فإنه حَرَص عليها، وقاتل عليها فلم يظفر بها، والله أعلم. ١٥١.

قلت: وكذلك الحسين ﷺ نحسبه ما حرص على الخلافة لذات الخلافة، وإنما لأجل الله، وإقامة شرعه، ورد المظالم، وحفظ الحقوق، ونصب ميزان العدالة.

٦٤- وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الدين فتستّروا [بالرفض] والانتساب إلى أهل البيت، ودانوا بدين أهل الإلحاد، ولم يزل أمرهم ظاهرًا إلى أن أنقذ الله الأمة، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستنقذ الملة الإسلامية منهم، وأبادهم، وعادت مصر دار إسلام، بعد أن كانت دار نفاق وإلحاد في زمنهم. ١٥٤.

[١٣] (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)

١- أرسله على حين فترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطُّرق وأوضح السُّبل، وافترض على العباد طاعتَه وتعظيمَه، وتوقيرَه وتبجيلَه، والقيامَ بحقوقه، وسَدَّ إليه جميع الطُّرق فلم يَفْتَح لأحدٍ إلا من طريقه، فشَرَحَ له صدرَه، ورَفَعَ له ذِكْرَه، ووَضَع عنه وِزْرَه، وجعَل الذِّلَّة والصَّغار على من خالف أمرَه، هدى به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة، وبصَّر به من العمى، وأرشدَ به من الغَيِّ، وفتحَ به أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا.

فلم يزل ﷺ قائمًا بأمر الله لا يردُّه عنه رادٌّ، داعيًا إلى الله لا يصدُّه عنه صادٌّ، إلى أن أشرقت برسالته الأرضُ بعد ظلماتها، وتألَّفت به القلوبُ بعد شَتاتها، وسارت دعوتُه مسيرَ الشمس في الأقطار، وبلغ دينُه ما بلغ الليلُ والنَّهار. ٤.

٢- من حكم إهباط الله لآدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض:

أولاً: ليعود إليها على أحسن أحواله.

ثانياً: أراد سبحانه أمرَهم ونهيَهم، وابتلاءهم واختبارهم، وليست الجنةُ دارَ تكليف؛ فأهبطَهم إلى الأرض، وعَرَّضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن ليُنال بدون الأمر والنَّهي.

ثالثاً: أراد سبحانه ولايتهم له، ولم يكن يُنالُ هذا إلا على الوجه الذي قَدَّرَه وقضاه مِنْ إهباطه إلى الأرض وجَعْلِ معيشة أولاده فيها.

رابعاً: أراد الله ظهور أثر أسمائه وصفاته.

خامساً: لأنه سبحانه الملك، والملك يأمر وينهى، وهذا لا يتحقق إلا بإهباطه.

سادساً: لينالوا درجة الإيمان بالغيب.

سابعاً: لتمييز الخبيث من الطيب.

ثامناً: لظهور علمه وحكمته، ومن يعبده من تعترضه أنواع المعارضات، بخلاف الملائكة.

تاسعاً: ليظهر كيد عدوه.

عاشراً: لينالوا الكرامة بتحقيق آثار المحبة الحقة.

حادي عشر: لينالوا محبته – جل جلاله – باتباع أمره، وترك نهيه.

ثاني عشر: لتتحقق العبودية الاختيارية لهم.

ثالث عشر: ليعرفوا قدر النعمة، وخطر ما هم فيه من الإيمان، وما في عدوهم من الشقاء والخذلان.

رابع عشر: ليحذروا مغبة المخالفة.

خامس عشر: ليظهر إيثار العبد لمولاه.

سادس عشر: ليظهر حمد العبد لربه.

سابع عشر: ليظهر شكر العبد لربه حيث كرمه بالإيمان، وخصه بمزيد الفضل والإنعام.

ثامن عشر: ليظهر تذلل العبد لربه.

تاسع عشر: لإظهار أحكام دينه وأمره.

عشرون: لأن ظهور أمور يحبها الله تتوقف على أسباب لا تقع إلا في دار البلاء.

واحد وعشرون: لأن الجنة درجات، فلا بد للعباد من تفاوت في أعمالهم، ولا

يقع العمل إلا في دار الابتلاء.

اثنان وعشرون: ليكون الشوق أعظم، والحب أتم. ٥، وما بعدها، بتصرف.

٣- فإنَّ الله سبحانه له الحمدُ المطلقُ الكاملُ الذي لا نهاية بعده، فكان ظهورُ الأسباب التي يُحْمَدُ عليها مِنْ مقتضى كونه محمودًا، وهي من لوازم حمده تعالى، وهي نوعان: فضلٌ، وعدل؛ إذ هو سبحانه المحمودُ على هذا وعلى هذا، فلا بدَّ من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمَّياتها، ليترتَّب عليها كمالُ الحمد الذي هو أهلُه. ١٤.

٣- فإنَّ محبةَ الشيء وطلبه والشَّوق إليه من لوازم تصوُّره، فمن باشر طِيبَ شيءٍ ولذَّته وتذوَّق به لم يكد يصبرُ عنه؛ وهذا لأنَّ النفسَ ذوَّاقةٌ توَّاقة، فإذا ذاقَت تاقَت، ولهذا إذا ذاق العبدُ طعمَ الإيمان وخالطت بشاشتُه قلبَه رسخَ فيه حبُّه، ولم يُؤْثِر عليه شيئًا أبدًا. ٢٣.

٤- فذَكَره سبحانه باسم عبوديَّته في أشرف مقاماته: في مقام الإسراء، ومقام الدَّعوة، ومقام التحدِّي.

فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل: "برسوله"، ولا: "نبيه"؛ إشارةً إلى أنه نال هذا المقامَ الأعظم بكمال عبوديَّته لربه.

وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]

وقال في مقام التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. ١٠.

٥- ومعلومٌ أن كمال العبودية المطلوبَ من الخلق لا يحصُل في دار النعيم والبقاء، إنما يحصُل في دار المحنة والابتلاء، وأما دار البقاء فدار لذَّةٍ ونعيم، لا دار ابتلاءٍ وامتحانٍ وتكليف. ١٢.

٦- محبةُ الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلًا. ١٣.

٧- المحبةُ الصَّادقةُ إنما تتحقَّقُ بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس، واحتمال أعظم المشاقِّ في طاعته ومرضاته. ١٣.

٨- فإنَّ المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصَّوارف هي المحبةُ الحقيقيةُ النافعة، وأمَّا المحبةُ المشروطة بالعافية والنعيم واللذَّة وحصول مراد المحبِّ من محبوبه فليست محبةً صادقة، ولا ثباتَ لها عند المعارضات والموانع؛ فإنَّ المعلَّق على الشرط عدمٌ عند عدمه، ومَنْ وَدَّك لأمرٍ ولَّى عند انقضائه.

وفرقٌ بين من يعبدُ الله على السرَّاء والرخاء والعافية فقط، وبين من يعبده على السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرخاء، والعافية والبلاء. ١٤.

٩- ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجًا له من العبد: أن يرى غيرَه في ضدِّ حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح. ١٦.

١٠- فإنه سبحانه لا شيء أحبَّ إليه من العبد مِنْ تذلُّله بين يديه، وخضوعه وافتقاره، وانكساره وتضرُّعه إليه. ١٧.

١١- قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: مهملًا معطَّلًا لا يؤمرُ ولا يُنهى، ولا يثابُ ولا يعاقَب. ١٧.

١٢- والله سبحانه أفرحُ بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في أرضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكةٍ إذا وجدَها. ١٨.

١٣- وعلى هذا حملَ غيرُ واحدٍ ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال، كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقوله تعالى:

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: ٣٢].

قالوا: وأما نفيُ دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ: "لن يَدْخُل الجنةَ أحدٌ بعمله" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا"، فالمرادُ به نفيُ أصل الدخول.

وأحسنُ من هذا أن يقال: الباءُ المقتضيةُ للدخول غيرُ الباء التي نُفِيَ معها الدخول؛ فالمقتضيةُ هي باءُ السببية الدالَّة على أن الأعمال سببٌ للدخول مقتضيةٌ له كاقتضاء سائر الأسباب لمُسَبَّباتها، والباءُ التي نُفِيَ بها الدخولُ هي باءُ المُعاوَضة والمقابلة التي في نحو قولهم: اشتريتُ هذا بهذا. ٢٠.

١٤- فإنَّ النفسَ مُولَعةٌ بحبِّ العاجلة وإيثارها على الآخرة، وهذا من لوازم كونه خُلِقَ من عَجَل وخُلِقَ عجولًا. ٢٢.

١٥- فإنَّ محبةَ الشيء وطلبه والشَّوق إليه من لوازم تصوُّره، فمن باشر طِيبَ شيءٍ ولذَّته وتذوَّق به لم يكد يصبرُ عنه؛ وهذا لأنَّ النفسَ ذوَّاقةٌ توَّاقة، فإذا ذاقَت تاقَت، ولهذا إذا ذاق العبدُ طعمَ الإيمان وخالطت بشاشتُه قلبَه رسخَ فيه حبُّه، ولم يُؤْثِر عليه شيئًا أبدًا. ٢٣.

١٦- يتحدث عن المؤمن وهروبه إلى الجنة فيقول:

فاستجاب من خُلِقَ لها وخُلِقَت له، وسارع إليها، ولم يَثْنِه عنها العاجلة، بل يَعُدُّ نفسَه كأنه فيها ثم سَباه العدوُّ، فيراها وطنه الأوَّل وقد أُخرِجَ منه، فهو دائمُ الحنين إلى وطنه لا يقرُّ قرارُه حتى يرى نفسه فيه، كما قيل:

نَقِّل فُؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى ... ما الحُبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ

كم منزلٍ في الأرضِ يَألَفُه الفتى ... وحنينُه أبدًا لأوَّلِ منزل

ولي من أبياتٍ تُلِمُّ بهذا المعنى:

وحيَّ على جنَّـاتِ عـدنٍ فإنهـا منازلُـك الأولى وفيهـا المُخَـيَّمُ

ولكنَّنـا سـبيُ العـدوِّ فهـل تُـرى نعـودُ إلى أوطانِنـا ونُسَـلَّمُ. ٢٣.

١٧- الغاياتِ المطلوبة لا تُنال إلا بأسبابها التي جعلها اللهُ أسبابًا مفضيةً إليها، ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلُها وأجلُّها، فلا تُنال إلا بأسبابٍ نَصَبَها مفضيةً إليها.

وإذا كانت الغاياتُ التي هي دون ذلك لا تُنال إلا بأسبابها - مع ضعفها وانقطاعها -، كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا؛ فكيف يُتَوهَّم حصولُ أعلى الغايات وأشرف المقامات بلا سببٍ يفضي إليه؟! ٢٤.

١٨- وقولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ يردُّ ما قال؛ لأنَّ المقاسَمة ليست وسوسة، ولكنَّها مخاطبةٌ ومشافَهة، ولا تكونُ إلا من اثنين، شاهدَين غير غائبَين، ولا أحدهما.

ومما يدلُّ على أنَّ وسوستَه كانت مخاطبةً قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ الآية، فأخبر أنه قال له، ودلَّ ذلك على أنه إنما وسوسَ إليه مخاطبةً، لا أنه أوقَع ذلك في نفسه بلا مقاوَلة، فمن ادَّعى على الظاهر تأويلًا ولم يُقِم عليه دليلًا لم يجب قبولُ قوله. ٣٢.

١٩- وجنةُ الخلد لا نوم فيها بإجماع المسلمين؛ لأنَّ النومَ وفاة، وقد نطق به القرآن، والوفاةُ تقلُّب حال، ودارُ السَّلام مسلَّمةٌ من تقلُّب الأحوال، والنائمُ ميِّتٌ أو كالميِّت. ٣٤.

٢٠- فنقول: أما ما ذكرتموه من كون الجنة التي أُهبِط منها آدمُ ليست جنةَ الخلد، وإنما هي جنةٌ غيرها، فهذا مما قد اختلف فيه الناس، والأشهَر عند الخاصَّة

والعامة الذي لا يخطرُ بقلوبهم سواه أنها جنة الخُلد التي أُعِدَّت للمتقين، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ من السَّلف على ذلك. ٣٧.

٢١- جنةُ الخلد بعينها جاءت مُعَرَّفةً بلام التعريف في جميع المواضع، كقوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، ولا جنةَ يعهدُها المخاطَبون ويعرفونها إلا جنةَ الخُلدِ التي وَعَدَ الرحمنُ عبادَه بالغيب، فقد صار هذا الاسمُ عَلَمًا عليها بالغَلَبة، وإن كان في أصل الوضع عبارةً عن البستان ذي الثمار والفواكه، وهذا كالمدينة لـ "طيبة" والنجم لـ "الثريا"، ونظائرها. (٤٤)، بتصرف.

٢٢- قد اتفق أهلُ السنة والجماعة على أنَّ الجنة والنار مخلوقتان، وقد تواترت الأحاديثُ عن النبي ﷺ بذلك، كما في "الصحيحين" عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدُك حتى يبعثك الله يوم القيامة». ٤٥.

٢٣- فقولُه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨﴾ هو صيغةُ وعدٍ مرتبطةٌ بما قبلها، والمعنى: إن اجتنبتَ الشجرةَ التي نهيتُك عنها، ولم تقرَبها، كان لك هذا الوعد. والحكمُ المعلَّقُ بالشرط عدمٌ عند عدم الشرط؛ فلما أكل من الشجرة زال استحقاقُه لهذا الوعد. ٦٠.

٢٤- فقولُ إبليس: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ لا يدلُّ على أنه أرادَ بالخُلد ما لا يتناهى، فإنَّ الخُلدَ في لغة العرب هو اللُّبثُ الطويل، كقولهم: قَيْدٌ مُخَلَّد، وحبسٌ مُخَلَّد، وقد قال تعالى لعادٍ: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩]؛ وكذلك قولُه: ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ

﴿١٤٠﴾ يرادُ به المُلكُ الطويلُ الثابت. ٦٠.

٢٥- التأكيدُ اللفظيُّ المجرَّدُ لا يقعُ في القرآن. ٦٤، بتصرف.

٢٦- ومن تدبَّر حكمته سبحانه، ولطفَه وبرَّه بعباده وأحبابه، في كَسْرِه لهم ثم جَبْرِه بعد الانكسار، كما يَكْسِرُ العبدَ بالذَّنب ويُذِلُّه به ثم يَجْبُره بتوبته عليه ومغفرته له، وكما يَكْسِرُه بأنواع المصائب والمحن ثمَّ يَجْبُره بالعافية والنعمة= انفتحَ له بابٌ عظيمٌ من أبواب معرفته ومحبته. ٦٥.

٢٧- ولا يُنالُ رضا المحبوب وقربُه والابتهاجُ والفرحُ بالدُّنوِّ منه والزلفى لديه إلا على جسرٍ من الذُّل والمسكنة، وعلى هذا قام أمرُ المحبة، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك، كما قيل:

تَذلَّلْ لمن تَهْوى لِتَحْظى بِقُرْبِه ... فكم عِزَّةٍ قد نالها العبدُ بالذُّلِّ

إذا كان من تهوى عزيزًا ولم تكن ... ذليلًا له فاقْرَ السَّلامَ على الوَصْل

وقال آخر:

اخْضَعْ وذِلَّ لمن تحبُّ فليس في ... شرعِ الهوى أنفٌ يُشَالُ ويُعْقَدُ

وقال آخر:

وما فَرِحَتْ بالوصل نفسٌ عزيزةٌ ... وما العِزُّ إلا ذُلُّها وانكسارُها. ٦٦.

٢٨- ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾:

ونفيُ الخوف والحزن عن متَّبع الهدى نفيٌ لجميع أنواع الشرور؛ فإنَّ المكروهَ الذي ينزلُ بالعبد متى عَلِمَ بحصوله فهو خائفٌ منه أن يقع به، وإذا وقع به فهو حزينٌ على ما أصابه منه، فهو دائمًا في خوفٍ وحزن، فكلُّ خائفٍ حزينٌ، وكلُّ حزينٍ خائفٌ، وكلٌّ من الخوف والحزن يكونُ على فوت المحبوب وحصول المكروه.

فالأقسامُ أربعة: خوفٌ من فَوْت المحبوب وحصول المكروه، وحزنٌ على فَوْت المحبوب وحصول المكروه، وهذا جماعُ الشرِّ كلِّه. ٩٢.

٢٩- وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾، فنفى عن متَّبع هداه أمرين: الضلال، والشقاء.

قال عبد الله بن عباس ﷺ: "تكفَّل اللهُ لمن قرأ القرآنَ وعملَ بما فيه أن لا يضلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة"، ثمَّ قرأ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾. ٩٣.

٣٠- قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]:

وقال بعضُ العارفين: "إنه لتمرُّ بي أوقاتٌ، أقولُ فيها: إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيِّب". ٩٥.

٣١- قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾، فذكر المغضوبَ عليهم وهم أهلُ الشقاء، والضَّالِّين وهم أهلُ الضلال، وكلٌّ من الطائفتين له الضَّلالُ والشقاء، لكنْ ذَكَر الوصفين معًا لتكونَ الدَّلالةُ على كلٍّ منهما بصريح لفظِه.

وأيضًا؛ فإنه ذكر ما هو أظهرُ الوصفين في كلِّ طائفة، فإنَّ الغضب على اليهود أظهر؛ لعنادهم الحقَّ بعد معرفته، والضلال في النصارى أظهر؛ لغلبة الجهل فيهم، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالُّون». ١٠٠.

٣٢- وقولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ هو خطابٌ لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ وكلا الخطابين لأبوي الثَّقلين.

وهو دليلٌ على أنَّ الجنَّ مأمورون منهيُّون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمَّة، وأنَّ نبينا ﷺ بُعِثَ إليهم كما بُعِثَ إلى الإنس، كما لا خلاف بينها أنَّ مسيئهم مستحقٌّ للعقاب. وإنما اختلف علماءُ الإسلام في المسلم منهم: هل يدخل الجنة؟

فالجمهورُ على أنَّ محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

وقيل: بل ثوابهم سلامتُهم من الجحيم، وأمَّا الجنة فلا يدخلُها أحدٌ من أولاد إبليس، وإنما هي لآدم وصالحي ذريته خاصَّة. وحُكِيَ هذا القولُ عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى. ١٠٠.

٣٣- قولُه تعالى في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]؛ فهذا يدلُّ على أنَّ مؤمني الجنِّ والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ من الحُور، فدلَّ على أنَّ مؤمنيهم يتأتَّى منهم طمثُ الحور العين بعد الدخول، كما يتأتَّى من الإنس، ولو كانوا ممَّن لا يدخلُ الجنةَ لمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك. ١٠٣.

٣٤- فإنَّ رحمتَه سبقت غضبَه، والفضلُ أغلبُ من العدل. ١٠٦.

٣٥- ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾:

ومتابعةُ هدى الله التي رتَّب عليها هذه الأمور هي:

تصديقُ خبره من غير اعتراض شبهةٍ تقدحُ في تصديقه.

وامتثالُ أمره من غير اعتراض شهوةٍ تمنعُ امتثالَه.

وعلى هذين الأصلين مدارُ الإيمان، وهما: تصديقُ الخبر، وطاعةُ الأمر.

ويتبعُهما أمران آخران، وهما:

* نفيُ شبهات الباطل الواردة عليه، المانعة من كمال التصديق، وأن لا يَخْمِشَ بها وجهَ تصديقه.

* ودفعُ شهوات الغيِّ الواردة عليه، المانعة من كمال الامتثال. ١٠٧.

٣٦- وهذان الأمران - أعني: الشُّبهات، والشَّهوات - أصلُ فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أنَّ الأصلين الأوَّلين - وهما: تصديقُ الخبر، وطاعةُ الأمر - أصلُ سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده. ١٠٨.

٣٧- فالشبهةُ تؤثِّر فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يُداوِها بدفعها، والشهوةُ تؤثِّر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يُداوِها بإخراجها. ١٠٨.

٣٨- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ - ٢]؛ فـ ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليلٌ على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحقِّ المبين، ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ دليلٌ على كمال رشده وأنه أبرُّ العالمين؛ فهو الكاملُ في علمه وفي عمله. ١٠٩.

٣٩- داءُ الأولين والآخرين:

الاستمتاعُ بالخَلاق، وهو النصيبُ من الدُّنيا، والاستمتاعُ به متضمِّنٌ لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدُّنيا وشهواتها فإنه لا يستمتعُ بنصيبه كلِّه، ولا يُذْهِبُ طيِّباته في حياته الدُّنيا، بل ينالُ منها ما ينالُ ليتقوَّى به على التزوُّد لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة. ١١٠، بتصرف.

٤٠- ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٦]، فذكروا الأصلين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدِّين، وإيثار الشهوات وما يستلزمُه من ترك الصَّلوات

وإطعام ذوي الحاجات. ١١٢.

٤١- حقيقة القلبُ السليم هو:

الذي قد سَلَّمَ لعبودية ربِّه حبًّا وخوفًا ورجاءً؛ ففَنِيَ بحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلَّم لأمره ولرسوله تصديقًا وطاعة، واستسلَم لقضائه وقدره. ١١٣.

٤٢- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]:

فتلاوةُ القرآن تتناولُ تلاوةَ لفظه ومعناه، وتلاوةُ المعنى أشرفُ من مجرَّد تلاوة اللفظ، وأهلُها هم أهلُ القرآن الذين لهم الثناءُ في الدنيا والآخرة، فإنهم أهلُ متابعةٍ وتلاوةٍ حقًّا. ١١٥.

٤٣- ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾، أي: تُتْرَكُ في العذاب، كما تركتَ العملَ بآياتنا. فذكرَ عذابَ البرزخ، وعذابَ دار البوار. ١١٧.

٤٤- فقولُ الملائكة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ المرادُ به عذابُ البرزخ، الذي أوَّلُه يومُ القبض والموت. ١١٧.

٤٥- ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ :

فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاش عليه، ويُبْعَثُ على ما مات عليه.

وبهذا يظهرُ أنَّ الصوابَ هو القولُ الآخر، وأنه عمى البصر؛ فإنَّ الكافر يعلمُ الحقَّ يوم القيامة عِيانًا، ويُقِرُّ بما كان يجحدُه في الدُّنيا، فليس هو أعمى عن الحقِّ يومئذ. ١٢٣.

٤٦- فالقرآن يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا

كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ [النساء: ٨٢]. ١٢٤.

٤٧- وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنما يتمُّ بهذين النوعين: هِمَّةٌ ترقِّيه، وعلمٌ يبصِّره ويهديه= فإنَّ مراتبَ السعادةِ والفلاح إنما تفوتُ العبدَ من هاتين الجهتين، أو من إحداهما:

* إمَّا أن لا يكون له علمٌ بها، فلا يتحركُ في طلبها.

* أو يكون عالمًا بها ولا تنهضُ همَّتُه إليها. ١٢٥.

٤٨- فالطرقُ كلُّها إلا طريقَه ﷺ مسدودة، والقلوبُ بأسرها إلا قلوبَ أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسةٌ مصدودة. ١٢٦.

٤٨- بين لمحات عن منهجه في كتابه:

فلا جَرَمَ كان وضعُ هذا الكتاب مؤسَّسًا على هاتين القاعدتين، ومقصودُه التعريف بشرف هذين الأصلين، وسمَّيتُه: «مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة»؛ إذ كان هذا من بعض النُّزُلِ والتُّحَف التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلًا، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلًا، فما خابَ من أنزل به حوائجَه، وعلَّق به آمالَه، وأصبح ببابه مقيمًا وبحِمَاه نزيلًا.

ولما كان العلمُ إمام الإرادة، ومقدَّمًا عليها، ومفصِّلًا لها، ومرشدًا إليها، قدَّمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة.

ثم نُتْبِعُه - إن شاء الله - بعد الفراغ منه كتابًا في الكلام على المحبة، وأقسامها، وأحكامها، وفوائدها، وثمراتها، وأسبابها، وموانعها، وما يقوِّيها، وما يُضْعِفُها، والاستدلال بسائر طرق الأدلَّة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذَّوق والوَجْد على تعلُّقها بالإله الحقِّ الذي لا إلٰه غيره، بل لا ينبغي أن تكونَ إلا له، ومِنْ

أجله، والردِّ على من أنكر ذلك، وتبيين فساد قوله عقلًا ونقلًا، وفطرةً وقياسًا، وذوقًا ووَجْدًا.

فهذا مضمونُ هذه التحفة، وهذه عرائسُ معانيها الآن تُجْلى عليك، وخُودُ أبكارها البديعة الجمال تَرْفُلُ في حُلَلِها وهي تُزَفُّ إليك، فإما «شمسٌ منازلُها بسَعْد الأسعد»، وإما «خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مُقْعَد»، فاختر لنفسك إحدى الخُطَّتين، وأنزِلها فيما شئتَ من المنزلتين.

ولا بدَّ لكلِّ نعمةٍ من حاسد، ولكلِّ حقٍّ من جاحدٍ ومعاند.

هذا، وإنَّ ما أُودِعَ من المعاني والنفائس رهنٌ عند متأمِّله ومُطالِعه، له غُنْمُه وعلى مؤلِّفه غُرْمُه، وله ثمرتُه ومنفعتُه ولصاحبه كَدُّه ومشقَّتُه، مع تعرُّضه لمطاعن الطاعنين، ولاعتراض المنافسين، وعَرْضِه بضاعتَه المزجاة وعقلَه المَكْدُود على عقول العالمين، وإلقائه نفسَه وعِرْضه بين مخالب الحاسدين، وأنياب البغاة المعتدين.

فلك أيها القاراء صَفْوُه ولمؤلِّفه كدرُه، وهو الذي تجشَّم غِراسَه وتعبَه ولك ثمرُه، وها هو قد استَهْدَف لسهام الرَّاشقين، واستَعْذَر إلى الله من الزلل والخطأ، ثم إلى عباده المؤمنين.

اللَّهُمَّ، فعياذًا بك ممَّن قَصُرَ في العلم والدِّين باعُه، وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعُه، فهو لجهله يرى الإحسانَ إساءةً والسنةَ بدعةً والعُرْفَ نُكرًا، ولظلمه يجزي بالحسنة سيئةً كاملةً وبالسيئة الواحدة عشرًا.

قد اتَّخذ بَطَر الحقِّ وغَمْط الناس سُلَّمًا إلى ما يحبُّه من الباطل ويرضاه، ولا يعرفُ من المعروف ولا ينكرُ من المنكر إلا ما وافقَ إرادتَه أو خالفَ هواه يستطيلُ على أولياء الرسول وحزبه بأصغرَيْه، ويجالسُ أهلَ الغيِّ والجهالة ويزاحمُهم بركبتَيْه.

قد ارتوى من ماءٍ آجنٍ وتضلَّع، واستشرفَ إلى مراتب ورثة الأنبياء وتطلَّع، يركضُ في ميدان جهله مع الجاهلين، ويبرزُ عليهم في الجهالة فيظنُّ أنه من السابقين، وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزِل، وإذا نزل الورثةُ منازلهم منها فمنزلتُه منها أقصى وأبعدُ منزِل.

نَزَلـوا بمكَّـةَ في قبائـل هاشـمٍ ونزلـت بالبيـداءِ أبعـدَ مـنزلِ

وعياذًا بك ممَّن جعلَ الملامةَ بضاعتَه، والعَذْلَ نصيحتَه، فهو دائمًا يُبدي في الملامةِ ويُعِيد، ويكرِّرُ على العَذْل فلا يفيد ولا يستفيد.

بل عياذًا بك من عدوٍّ في صورة ناصح، ووليٍّ في مِسْلاخ بعيدٍ كاشِح، يجعلُ عداوتَه وأذاه حذرًا وإشفاقًا، وتنفيرَه وتخذيلَه إسعافًا وإرفاقًا!

وإذا كانت العينُ لا تكادُ إلا على هؤلاء تفتَح، والميزانُ بهم يخفُّ ولا يَرْجَح، فما أحرى اللبيبَ بأن لا يُعِيرَهم من قلبه جزءًا من الالتفات، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفرَه إلى الأحياء بين الأموات وما أحسنَ ما قال القائل:

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهلـه وأجسـامُهم قبـلَ القبـورِ قبـورُ

وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومِهم وليس لهـم حـتى النُّشـورِ نُشـورُ

اللَّهُمَّ فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل ١٢٦.

٤٩- ذكر مئة وثلاثا وخمسين وجها في فضل العلم وأهله. ١٣١.

٥٠- فعادت رفعةُ الدَّرجات كلُّها إلى العلم والجهاد اللذَين بهما قِوامُ الدِّين. ١٣٧.

٥١- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا حصرٌ لخشيته في أولي العلم. ١٣٧.

٥٢- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا». ١٣٨.

٥٣- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وفي القرآن بضعةٌ وأربعون مثلًا.

وكان بعضُ السلف إذا مرَّ بمثلٍ لا يفهمُه يبكي ويقول: لستُ من العالِمين. ١٣٨.

٥٤- ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨ ، وفُسِّرَ فضلُ الله بالإيمان، ورحمتُه بالقرآن، والإيمانُ والقرآنُ هما العلمُ النافعُ والعملُ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحقِّ، وهما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عمل. ١٣٩.

٥٥- ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابنُ قتيبة والجمهور: الحكمةُ إصابةُ الحقِّ والعملُ به. وهي العلمُ النافعُ والعملُ الصالح. ١٤٠.

٥٦- ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢]:

وليس على دين الرسل أضرُّ من الجُهَّال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة. ١٤٤.

٥٧- العلمَ حياةٌ ونور، والجهلَ موتٌ وظُلمَة، والشرُّ كلُّه سببه عدمُ الحياة والنور، والخيرُ كلُّه سببه النورُ والحياة؛ فإنَّ النورَ يكشفُ عن حقائق الأشياء، ويبيِّنُ مراتبها، والحياةُ هي المصحِّحةُ لصفات الكمال، المُوجِبةُ لتسديد الأقوال والأعمال. ١٤٥.

٥٨- قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كان ميتًا بالجهل فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في الناس. ١٤٥.

٥٩- ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: نورَ الإيمان على نور القرآن، كما قال بعضُ السلف: "يكادُ المؤمنُ ينطقُ بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمعَ فيها بالأثر كان نورًا على نور". ١٤٧.

٦٠- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة: ٤]، ولولا مزيَّةُ العلم والتعليم وشرفُهما كان صيدُ الكلب المعلَّم والجاهل سواءً. ١٥٠.

٦١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، قال الشافعي رضي الله عنه: "لو فكَّر الناسُ كلُّهم في هذه السورة لكفتهم".

٦٢- وبيانُ ذلك: أنَّ المراتب أربعة، وباستكمالها يحصلُ للشخص غايةُ كماله:

أحدها: معرفةُ الحقِّ.

الثانية: عملُه به.

الثالثة: تعليمُه من لا يحسنُه.

الرابعة: صبرُه على تعلُّمه، والعمل به، وتعليمه. ١٥٢.

٦٣- ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ :

فإنَّ الكمال أن يكون الشخصُ كاملًا في نفسه، مكمِّلًا لغيره، وكمالُه بإصلاح قُوَّتيه العلمية والعملية، فصلاحُ القوة العلمية بالإيمان، وصلاحُ القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميلُه غيرَه بتعليمه إيَّاه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. ١٥٣.

٦٤- والحمدُ لله الذي جعل كتابه كافيًا من كلِّ ما سواه، شافيًا من كلِّ داء، هاديًا إلى كلِّ خير. ١٥٣.

٦٥- والمقصودُ أنَّ الله سبحانه سمَّى علم الحجَّة: سلطانًا؛ لأنها تُوجِبُ تسلُّطَ صاحبها واقتدارَه، فله بها سلطانٌ على الجاهلين.

بل سلطانُ العلم أعظمُ من سلطان اليد، ولهذا ينقادُ الناسُ للحجَّة ما لا ينقادونَ لليد؛ فإنَّ الحجَّةَ تنقادُ لها القلوب، وأما اليدُ فإنما ينقادُ لها البدن. ١٦٠.

٦٦- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠ - ١١]، فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون. والسمعُ والعقلُ هما أصلُ العلم، وبهما يُنال. ١٦٠.

٦٧- قال الإمام أحمد: "الناسُ محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليوم مرةً أو مرتين والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدد الأنفاس". ١٦٤.

٦٨- فآياتُ القرآن تحيي القلوبَ كما تحيي الأرضُ بالماء، وتُحْرِقُ خبثَها وشبهاتها وشهواتها وسخائمَها كما تُحْرِقُ النارُ ما يلقى فيها، وتميِّزُ زَبَدَها من زُبَدِها كما تميِّزُ النارُ الخبثَ من الذهب والفضَّة والنحاس ونحوه منه. ١٦٦.

٦٩- والنجومُ زينةٌ للسماء، وكذلك العلماءُ زينةٌ للأرض.

وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراق السَّمع؛ لئلا يَلبِسوا بما يَسْتَرِقُونه من الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته، وكذلك العلماءُ رجومٌ لشياطين الإنس. ١٧٨.

٧٠- فإنَّ أرواحَ البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل

دون هذه النسبة بكثير، ولهذا كُلُّ روحٍ لم يربِّها الرسولُ لم تُفْلِح ولم تَصْلُح لصالحة؛ كما قيل:

ومـن لا يُرَبِّيـه الرسـولُ ويَسْـقِهِ ... لِبانَ هُدًى قد دَرَّ مِنْ ثَدْيِ قُدْسِـهِ

فـذاكَ لَقِـيطٌ مـا له نِسْـبةُ الـوَلَا ... ولا يتعدَّى طَوْرَ أبناءِ جِنْسِه. ١٨٠.

٧١- وقال أبو الدرداء: "من رأى الغُدُوَّ والرَّواحَ إلى العلم ليس بجهادٍ فقد نقصَ عقلُه ورأيه". ١٩٣.

٧٢- فإنَّ النبيَّ ﷺ دعا لمن سمعَ كلامَه، ووعاه، وحَفِظه، وبلَّغه. وهذه هي مراتبُ العلم. ١٩٦.

٧٣- ولهذا يجمعُ سبحانه بين السُّرور والنَّضرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان: ١١]؛ فالنَّضرةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم. ١٩٧.

٧٤- فالإخلاصُ هو سبيلُ الخَلاص، والإسلامُ مركبُ السلامة، والإيمانُ خاتمُ الأمان. ١٩٩.

٧٥- ولا ريب أنَّ أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد. ٣٣٤.

٧٦- فمن طلبَ العلمَ ليحيي به الإسلامَ فهو من الصِّدِّيقين، ودرجتُه بعد درجة النبوَّة. ٣٣٨.

٧٧- وكلما طالت المخالطةُ ازدادت أسبابُ الشرِّ والعداوة وقَوِيَت؛ وبهذا السَّبب كان الشرُّ الحاصلُ من الأقارب والعُشَراء أضعاف الشرِّ الحاصل من الأجانب والبُعَداء. ٣٧٥.

٧٨- نسبةَ العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن. ٣٨٣.

٧٩- ومن لم تغلِبْ لذَّةُ إدراكه للعلم وشهوتُه على لذَّة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجةَ العلم أبدًا، فإذا صارت شهوتُه في العلم ولذَّتُه في إدراكه رُجِيَ له أن يكون من جملة أهله.

٨٠- وبالجملة؛ فلا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكُّل والرضا والتفويض والشكرَ والصبرَ وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فسادُ القلب وهلاكُه. ٥٣٥.

[١٤] (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)

١- ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر: ١٩].

والعَجبُ كلُّ العجب مِنْ غفلة مَنْ لحظاتُه معدودةٌ عليه، وكل نَفَسٍ من أنفاسه لا قيمة له، وإذا ذهب لم يرجع إليه، فمَطَايا الليلِ والنَّهار تُسرِعُ به، ولا يتَفَكَّرُ إلى أين يُحْمل، ويسارُ به أعظم من سير البَرِيْدِ، ولا يدري إلى أيِّ الدَّارين يُنقل. ٨.

٢- فيَا عَجبًا من سفيهٍ في صورة حكيم ، ومعتوهٍ في مِسْلَاخ عاقلٍ، آثر الحظ الفاني الخسيس، على الحظِّ الباقي النفيس. ٩.

٣- من أبيات له رحمه الله:

وصُمْ يومَكَ الأدنى لعلَّك في غدٍ ... تفوزُ بعيد الفطر، والنَّاسُ صُوَّمُ

وأقدمْ ولا تقنعْ بعيشٍ مُنَغَّصٍ ... فما فاز باللَّذاتِ من ليس يُقدِمُ

وإنْ ضاقت الدنيا علَيك بأسرها ... ولم يكُ فيها مَنْزِلٌ لك يُعْلَمُ

فحيَّ على جنَّاتِ عدنٍ فإنَّها ... منازلُك الأولى وفيها المُخيَّمُ

ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ فهل ترى ... نَعودُ إلى أوطاننا ونسلمُ

إلى أن قال:

فإنْ كُنْتَ لَا تدري فتلكَ مصيبةٌ ... وإنْ كنتْ تَدْري فالمصيبة أعظمُ

١٤، بتصرف.

٤- نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أنْ تكون الجنة الآن مخلوقة،

وقالت: بل اللَّهُ ينشئها يومَ المعاد.

وحَمَلَهم على ذلك أصلهم الفاسد الَّذي وضعوا به شريعةً لِمَا يفعله اللَّه تعالى، وأنَّه ينبغي له أنْ يفعلَ كذا، ولا ينبغي له أنْ يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعاله، فهم مُشبِّهة في الأفعالِ، ودخل التجهُّم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات. وقالوا: خَلْقُ الجنَّة قبل الجزاءِ عبث، فإنَّها تصير معطلة مُدَدًا متطاولة ليس فيها سكانها. ٢٤، بتصرف.

٥- يذكر السلفُ في عقائدهم: أنَّ الجنَّة والنَّارَ مخلوقتان، ويذكر من صنَّف في المقالات أنَّ هذه مقالة أهل السنَّة، والحديث قاطبة لا يختلفون فيها. ٢٥.

٦- من عقيدة أهل السنة والجماعة: أن "أسماء اللَّه تعالى لا يقال: إنَّها غير اللَّه، كما قالت المعتزلة والخوارج". ٢٦، نقلا عن أبي الحسن الأشعري.

٧- من عقيدة أهل السنة والجماعة: أنهم "يقولون: إنَّ القرآن كلام اللَّهُ غير مخلوق، والكلام في الوقف واللَّفظ من قال باللَّفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال: اللَّفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق". ٢٧، نقلاً عن أبي الحسن الأشعري.

٨- من عقيدة أهل السنة والجماعة: أنهم "يقرون بأنَّ الإيمان: قولٌ وعمل، يزيد وينقص، ولا يقولون: مخلوق، ولا غير مخلوق". ٢٩، نقلاً عن أبي الحسن الأشعري.

٩- من عقيدة أهل السنة والجماعة: أنهم "يقولون: إنَّ اللَّه تعالى لم يأمر بالشَّرِّ، بل نهى عنه، وأمرَ بالخيرِ، ولم يَرْضَ بالشَّرِّ، وإنْ كان مريدًا له". ٢٩، نقلاً عن أبي الحسن الأشعري.

١٠- من عقيدة أهل السنة والجماعة: "أنَّ السُّنَّة لا تُنْسَخُ بالقرآن". ٣١، نقلاً عن أبي الحسن الأشعري.

١١- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

وقابل سبحانه بين الجوع والعُرْي، والظمأ والضحى، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعري والضحى؛ فإنَّ الجوعَ ذلُّ الباطن، والعُري ذلُّ الظَّاهرِ، والظمأُ حرُّ الباطنِ، والضحى حرُّ الظاهرِ؛ فنفى عن ساكنها ذلَّ الظاهر والباطن، وحرَّ الظاهر والباطن ، وهذا شأن ساكن جنَّة الخلدِ. ٥٨.

١٢- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾:

فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنَّةِ، ولهذا أتى فيه بضمير الجمعِ. ٥٩.

١٣- كرَّر سبحانه الإهباط ثانيًا بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

والظَّاهرُ أنَّ هذا الإهباط الثاني غيرُ الأوَّل، وهو إهباط من السماء إلى الأرضِ، والأوَّل إهباط من الجنَّة، وحينئذٍ فتكون الجنَّة التي أُهْبِطُوا منها أوَّلًا فوق السَّماءِ = جنة الخلدِ. ٥٩.

١٤- بين ابن القيم ﷺ أن الله أكد العداوة بين الشيطان والإنسان، وأمَّا آدم وزوجته، فإنَّه إنَّما أخبر في كتابه أنَّه خلقها ليسكن إليها، وجعل بينهما مودة ورحمة، فالمودةُ والرحمة بين الرجل وزوجته ، والعداوة بين الإنسانِ والشيطان. ٦٠، بتصرف.

١٥- ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ ﴾ ([طه: ١٢٣]:

فالضمير في قوله: ﴿ٱهۡبِطَا﴾ إمَّا أنْ يرجعَ إلى آدم وزوجه، أو إلى آدمَ وإبليس، ولم يذكر الزوجة؛ لأنَّها تبع له وعلى هذا، فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط، وهما: آدم وإبليس، فالأمر ظاهر، وأمَّا على الأوَّل، فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط.

والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه، وبين إبليس؛ ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني دون الأوَّل، ولا بدَّ أن يكون إبليسُ داخلًا في حكمِ هذه العداوة قطعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال للذرية: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]. ٦١.

١٦- في قصة آدم عليه السلام مع إبليس يقول ابن القيم:

وتأمَّل كيفَ اتَّفقت المواضع التي فيها ذِكْرُ العداوةِ على ضمير الجمعِ دون التثنية؟

وأمَّا الإهباط: فتارة يُذْكَرُ بلفظِ الجمع، وتارةً بلفظِ التثنية، وتارة بلفظِ الإفرادِ، كقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وكذلك في سورة (ص)، وهذا لإبليس وحده.

وحيثُ وردَ بصيغة الجمع: فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذْ مدار القصَّة عليهم.

وحيث وردَ بلفظ التثنية: فإمَّا أن يكون لآدم وزوجه، إذ هما اللَّذانِ باشرا الأكلَ من الشجرة، وأقدما على المعصية.

وإمَّا أنْ يكون لآدمَ وإبليس، إذ هما أَبَوَا الثقلين، وأصْلا الذُّريَّة، فذكر حالهما، وما آل إليه أمرهما ليكون عظةً وعبرة لأولادهما، وقد حُكِيت القولان في

ذلك. ٦٢.

١٧- والَّذي يوضح أنَّ الضمير في قوله: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ﴾ [طه: ١٢٣] لآدم وإبليس، أنَّ اللَّه سبحانه لمَّا ذكرَ المعصيةَ أفرد بها آدم دون زوجه، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٣]. وهذا يدلُّ على أنَّ المخاطب بالإهباطِ هو آدم ومن زين له المعصية، ودخلت الزوجة تبعًا، فإنَّ المقصودَ إخبار اللَّه سبحانه للثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذكر أبويهما أبلغُ في حصولِ هذا المعنى، من ذِكْر أَبَوَي الإنس فقط. ٦٢.

١٨- وجنة الخُلْد لا نوم فيها بالنَّص، وإجماع المسلمين، فإنَّ النَّبي ﷺ سُئِلَ: أينامُ أهلُ الجنَّة في الجنَّة؟ قال: «لا، النومُ أخو الموتِ» والنوم وفاةٌ، وقد نطق به القرآن، والوفاة تَقَلُّبُ حالٍ، ودار السَّلام مسلَّمةٌ من تقلب الأحوالِ، والنَّائمُ ميت أو كالميت". ٧٠.

١٩- فإنْ قيلَ: فإذا كان آدمُ عليه السلام قد علم أنَّ له عمرًا مُقَدَّرًا، وأجلًا ينتهي إليه، وأنَّه ليسَ من الخالدين، فكيف لم يَعْلَمْ كَذبَ إبليس في قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [طه: ١٢٠]؟ وقوله: ﴿أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠].

فالجوابُ من وجهين:

أحدهما: أنَّ الخُلد لا يستلزم الدوام والبقاء، بل هو المكث الطويل.

الثاني: أنَّ إبليس لما حلف لهُ، وغَرَّه وأطمعه في الخلود نسي ما قُدِّرَ له من عُمُره. ٧٥، بتصرف.

٢٠- لفظ الخُلْد أعمُّ من الدَّوام الَّذي لا انقطاع له، فإنَّهُ في اللغة: المُكْثُ الطَّويل.

ومكث كل شيء بحسبه، ومنه قولهم: رجل مخلَّد. إذا أَسَنَّ وكَبر، ومنه قولهم لأثافيِّ الصخور: خَوالِد. لطول بقائها بعد دروس الأطلال. قال:

إلَّا رمـــادًا هامِـــدًا دفعـــت عنـــه الريـــاح خـــوالدٌ سَـــحْم

ونظير هذا إطلاقهم القديم على ما تقادم عهده، وإن كان له أوَّل، كما قال تعالى: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩] ، وَ ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١١]، وقد أطلق تعالى الخلود في النَّارِ على عذاب بعض العصاة، كقاتل النفس، وأطلقه النَّبي -صلى الله عليه وسلم- على قاتل نفسه. ٨٢، بتصرف.

٢١- فقد وردت الجنة مُعَرَّفة باللَّام، غير مرادٍ بها جنَّة الخلد قطعًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾. ٨٣، بتصرف.

٢٢- ولفظُ العَوْد لا يستلزم الرجوع إلى عَيْنِ الحالةِ الأولى، ولا زمانها ولا مكانها، بل ولا إلى نظيرها، كما قال شعيب لقومه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقد جعل اللَّهُ سبحانه المُظَاهِرَ عائدًا بإرادته الوطء ثانيًا، أو بنفس الوطء، أو بالإمساكِ، وكل منها غيرُ الأوَّلِ لا عينه. ٨٥.

٢٣- جنَّة الخلدِ إنَّما يقع الدخول إليها يوم القيامة، ولم يأتِ زمن دخولها بَعْدُ.

هذا حقٌّ في الدخول المطلق، الَّذي هو دخول استقرارٍ ودوامٍ، وأمَّا الدخول العارض، فيقع قبل يوم القيامة. ٨٦، بتصرف.

٢٤- العري والنصب والحزن واللغو والكذب وغيرها منتف عن الجنة إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة. ٨٦، بتصرف.

٢٥- يمتنع أنْ تكون الجنة دارَ تكليفٍ إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، فحينئذٍ

ينقطع التكليف. وأما وقوع التكليف فيها في دار الدنيا، فلا دليلَ على امتناعه البَتَّة. ٨٧.

٢٦- التكليف في الجنة لم يكن بالأعمالِ التي يكلَّف بها النَّاس في الدنيا: من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها، وإنَّما كان حَجْرًا عليهما في شجرةٍ واحدةٍ من جملة أشجارها، إمَّا واحدة بالعَيْن أو بالنَّوع، وهذا القدرُ لا يمتنع وقوعه في دار الخلد. ٨٨، بتصرف.

٢٧- أرض الجنة مخلوقة، والذِّكْر يُنشئ اللَّهُ سبحانه لقائله منه غراسًا في تلك الأرضِ، وكذا بناءُ البيوت فيها بالأعمال المذكورة، والعبد كلَّما وسَّع في أعمال البر وُسِّعَ له في الجنَّة، وكلَّما عمل خيرًا غُرِسَ له به هناك غِراس، وبُنِيَ له به بناء ، وأُنْشئ له من عمله أنواع ممَّا يتمتَّع به، فهذا القدرُ لا يدلُّ على أنَّ الجنَّة لم تخلق بعد، ولا يسوغ إطلاق ذلك. ٩٥، بتصرف.

٢٨- نقل عن الإمام أحمد ابن حنبل – رحم الله الجميع –:

فإنْ احتج مبتدعٌ، أو زنديقٌ بقول اللَّهِ ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كُلُّ شيءٍ ممَّا كتب اللَّهُ عليه الفناء والهلاك هالك، والجنَّة والنَّار خلقتا للبقاءِ لا للفناءِ ولا للهلاكِ، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يَمُتْنَ عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدًا؛ لأنَّ اللَّهَ ﷻ خلقهنَّ للبقاءِ، لا للفناءِ، ولم يكتب عليهنَّ الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضلَّ عن سواء السبيل. ٩٨.

٢٩- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]،

وقال فى صفة النَّار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بغير واو.

فقالت طائفة: هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنَّة، لكونها ثمانية، وأبواب النَّار سبعة فلم تدخل الواو.

وهذا قولٌ ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب، ولا أئمة العربية، وإنَّما هذا من استنباط بعض المتأخرين. ١٠١.

٣٠- في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وفي صفة النار ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ قال بعضهم بزيادة الواو.

قال ابن القيم:

وهذا أيضًا ضعيف، فإنَّ زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليقُ بأفصح الكلام أنْ يكون فيه حرفٌ زائد بغير معنى ولا فائدة. ١٠١.

٣١- حذف الجواب في صفة الجنة ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وقال في صفة النار: ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ لأن الملائكة تسوق أهل النَّارِ إليها، وأبوابُها مُغلقة، حتَّى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم ففجأهم العذابُ بغتةً.

وأمَّا الجنَّة فيرغب أهلها إلى مالكها، ويستشفعون برسول الله ﷺ عند ربه، فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه، ويفتحها تعظيمًا لخطرها، وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه. ١٠٢، بتصرف.

٣٢- ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا﴾ أي: سلامتكم ودخولها بطيبكم، فإنَّ اللَّهَ حرَّمها إلَّا على الطيبين، فبشَّروهم بالسَّلامة وبالطيبِ، والدخول والخلود. ١٠٤.

٣٣- قيل لأهل الجنة: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ ولأهل النار ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾:

ادخلوا أبوابها صَغَارًا لهم، وإذْلالًا وخزيًا، ثمَّ قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرَّد دخول الأبواب الفظيعة، ولكن وراءها الخلود في النَّار. ١٠٥.

٣٤- وتأمَّل قوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١﴾ [ص: ٥٠ - ٥١] كيف تجد تحته معنى بديعًا، وهو أنَّهم إذا دخلوا الجنَّة لم تغلق أبوابُها عليهم بل تبقى مفتحة كما قال. ١٠٦.

٣٥- وأمَّا النَّارُ فإذا دخلها أهلها أُغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨﴾ [الهمزة: ٨] أي مطبقة مغلقة ، ومنه سُمِّيَ الباب وصِيدًا وهي: ﴿مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَۭ ۝٩﴾ قد جعلت العُمُد مُمْسكة للأبواب من خلفها، كالحجر العظيم الَّذي يُجْعل خلف الباب. ١٠٦.

٣٦- ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ ﴾:

فإنَّ في تفتيح الأبواب لهم إشارةٌ إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتَبوُّهم من الجنَّة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتُّحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يَسُرُّهم عليهم كل وقت.

وأيضًا: إشارة إلى أنَّها دارُ أمْنٍ لا يحتاجون فيها إلى غَلْقِ الأبوابِ، كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا. ١٠٦.

٣٧- ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾:

أيد ابن القيم ﷺ قول الكوفيين بأن التقدير: (مفتحة لهم أبوابها)، وقال:

المضاف إليه يكون بدلًا من التنوين، والتنوين بدلٌ من الإضافة، بمعنى: التَّعَاقب والتَّوارد ولا يريدون بقولهم: هذا بدلٌ من هذا، أنَّ معنى البدلِ معنى المُبْدَل منه، بل قد يكون في كلٍّ منهما معنى لا يكون في الآخر. ١٠٨.

٣٨- ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾:

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: "هو الجنَّة".

وكذلك تلقَّاهُ النَّاسُ عنه. ١٢٨.

٣٩- ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾:

عن ابن عباس: "الخيرُ والشر كلاهما يأتي من السماء"، وعلى هذا المعنى أسباب الجنَّة والنَّار مُقدَّرٌ ثابتٌ في السماء من عند اللَّه. ١٢٨، بتصرف.

٤٠- «إنَّ في الجنَّة مئة درجة ما بين كلِّ درجتين كما بينَ السماء والأرضِ أعدَّها اللَّهُ للمجاهدين في سبيله».

وشيخنا يرجح هذا اللفظ ، وهو لا ينفي أنْ يكون دَرجَ الجنَّة أكثر من ذلك، ونظير هذا قوله في الحديث الصحيح: «إنَّ للَّه تسعةً وتسعين اسمًا، مَنْ أَحْصاها دَخَلَ الجنَّة».

ويدل على صحة هذا أنَّ منزلة نبينا ﷺ فوق هذا كلِّه، في درجةٍ في الجنَّة ليس فوقها درجة، وتلك المئة ينالها آحاد أُمَّته بالجهاد. ١٣٣، بتصرف.

٤١- والجنَّة مُقَبَّبة أعلاها أوسعها، ووسطها: هو الفردوس، وسقفه العرش، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا سألتمُ اللَّه فاسألوه الفِرْدَوس، فإنَّه وسَطُ الجنَّة وأعلى الجنَّة ، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهار الجنَّة». ١٣٤.

٤٢- يقال لقارئ القرآن: "اقرأ وارقَ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تَقْرؤها" .

وهذا يحتمل شيئين: أن تكون منزلته عند آخر حِفْظه، وأنْ تكون عند آخر تلاوته لمحفوظه، واللَّهُ أعلم. ١٣٥.

٤٣- وقد جعل اللَّهُ سبحانه لكلِّ مطلوب مفتاحًا يفتح به، فجعل مفتاح الصلاة:

الطهور، كما قال ﷺ: "مفتاح الصلاةِ: الطُّهور، ومفتاح الحج: الإحرام، ومفتاح البِرِّ: الصدق، ومفتاح الجنَّة: التوحيد، ومفتاح العلم: حسن السؤال وحسن الإصغاء. ١٣٨.

٤٤- جعل الله سبحانه مفتاح النصر والظفر: الصبر، ومفتاح المزيد: الشكر، ومفتاح الولاية والمحبة: الذكر ، ومفتاح الفلاح: التقوى، ومفتاح التوفيق: الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة: الدعاء، ومفتاح الرغبة في الآخرة: الزهد في الدنيا. ١٣٩، بتصرف.

٤٥- جعل الله سبحانه مفتاح الإيمان: التفكر فيما دعا اللَّه عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح الدخول على اللَّهِ: إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحُبِّ والبغض والفعل والتَّرك. ١٣٩، بتصرف.

٤٦- جعل الله سبحانه مفتاح حياة القلب: تدبر القرآن، والتضرع بالأسحارِ، وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة: الإحسان في عبادة الخالق، والسَّعي في نفع عبيده، ومفتاح الرزق: السعي مع الاستغفار والتقوى. ١٣٩، بتصرف.

٤٧- جعل الله سبحانه مفتاح العِزِّ: طاعة اللَّهِ ورسوله، ومفتاح الاستعداد للآخرة: قِصَرُ الأملِ، ومفتاح كلِّ خيرٍ: الرغبة في اللَّهِ والدار الآخرة، ومفتاح كلِّ شرٍّ: حُب الدنيا، وطول الأمل. ١٣٩، بتصرف.

٤٨- بابٌ عظيم من أنفع أبواب العلمِ، وهو معرفة مفاتيح الخير والشر، لا يُوَفَّق لمعرفته ومراعاته إلَّا من عَظُمَ حظه وتوفيقه، فإنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى جعل لكلِّ خير وشرٍّ مفتاحًا وبابًا يُدْخَل منه إليه. ١٣٩.

٤٩- جعل الله الشرك والكبر والإعراض عمَّا بعث اللَّهُ به رسوله، والغفلة عن ذكره

والقيام بحقه = مفتاحًا للنَّار، وكما جعل الخمر: مفتاح كلِّ إثمٍ، وجعل الغناء: مفتاح الزنا، وجعل إطلاق النظر في الصُّوَرِ: مفتاح الطلَب والعِشْق». ١٤٠، بتصرف.

٥٠- جعل الله سبحانه الكسل والراحة: مفتاح الخيبة والحرمان، وجعل المعاصي: مفتاح الكفر، وجعل الكذب: مفتاح النِّفاق، وجعل الشح والحرص: مفتاح البخل وقطيعة الرحم، وأخذ المال من غير حِلِّهِ، وجعل الإعراض عمَّا جاء به الرسول ﷺ: مفتاح كل بدعة وضلالة. ١٤٠، بتصرف.

٥١- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ١٨ - ٢١]. وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾:

وخصَّ تعالى كتاب الأبرار بأنَّه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقرَّبين من الملائكة والنَّبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار = تنويهًا بكتاب الأبرار. ١٤١.

٥٢- وأمَّا طرق الجحيم: فأكثر من أن تُحْصى، ولهذا يُوَحِّد الله سبحانه سبيله، ويجمع سبل النَّار كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩]. أي: ومن السُّبُل جائر عن القصد وهي: سُبُل الغي، وقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾. ١٤٧.

٥٣- ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] قيل: هي سُبُل تجتمع في سبيلٍ واحدٍ،

وهي بمنزلة الجوادِّ والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي شعب الإيمان يجمعها الإيمان، وهي شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي اللَّهِ بتصديق خبره، وطاعة أمره، فطريق الجنَّة هي إجابة الدَّاعي إليها ليس إلَّا. ١٤٨.

٥٤- ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦]:

وتأمَّل قوله: كيف أوقع التَّفْضيل أوَّلًا بدرجة، ثمَّ أوقعه ثانيًا بدرجات، فقيل: الأوَّل بين القاعد والمعذور والمجاهد، والثاني بين القاعد بلا عذر والمجاهد. ١٥٣.

٥٥- عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنَّة لَيتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدُّرِّي الغابرَ من الأُفق: من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول اللَّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: "بلى، والَّذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا باللَّهِ وصدَّقوا المرسلين».

ولفظ البخاري "في الأفق": وهو أبْيَن .

والغابر: هو الذَّاهب الماضي الَّذي قد تدلَّى للغروب. وفي التمثيل به دون الكوكب المسامت للرَّأس، وهو أعلى = فائدتان:

أحدهما: بُعْدُهُ عن العيون.

والثانية: أنَّ الجنَّة درجات بعضها أعلى من بعض، وإنْ لم تُسامت العليا السُّفلى، كالبساتين المُمْتدة من رأس الجبل إلى ذيله، واللَّهُ أعلم. ١٥٣.

٥٦- ولا تناقض بين تقدير ما بين الدرجتين في الجنة بالمائة وتقديرها بالخمس مائة لاختلاف السَّير في السرعة والبُطْءِ. ١٥٩، بتصرف.

٥٧- وفي "الصحيحين" من حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حينَ يسمع النَّداء: اللَّهم رَبَّ هذِهِ الدعوة التَّامَّة، والصَّلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة».

هكذا لفظ الحديث: "مقامًا" بالتَّنكير ليوافق لفظ الآية؛ ولأنَّهُ لمَّا تعين وانحصر نوعه في شخصه جرى مجرى المعرفة، فَوُصِفَ بما توصف به المعارف، وهذا ألطف مِنْ جَعْلِ "الَّذي وعدته" بدلًا، فتأمله. ١٦١.

٥٨- وفي "المسند" من حديث عمارة بن غَزِيَّة، عن موسى بن وَرْدَان عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الوسيلة درجةٌ عند اللَّهِ ﷻ، ليس فوقها درجةٌ، فسلوا الله لي الوسيلة" .

وسُمِّيت درجة النَّبي ﷺ الوسيلة؛ لأنَّها أقرب الدرجات إلى عرش الرب تبارك وتعالى، وهي أقرب الدرجات إلى اللَّهِ. ١٦١، ١٦٤.

٥٩- قال صالح بن عبد الكريم: قال لنا فُضَيل بن عِيَاض: تدرون لِمَ حسنت الجنَّة؟ لأنَّ عرش رب العالمين سقفها . ١٦٤.

٦٠- وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كلَّ الكشف بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فقوله: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾، هو تفسير للوسيلة التي يبتغيها هؤلاء الَّذين يدعونهم المشركون من دون اللَّهِ، فَيُنَافِسُون في القرب منه. ١٦٦.

٦١- ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وفُسِّرت السِّياحة: بالصيام، وفُسِّرت: بالسفر في طلب العلم،

وفُسِّرت: بالجهاد، وفُسِّرت: بدوام الطاعة.

والتحقيق فيها: أنَّها سياحة القلب في ذكر اللَّه ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعالِ. ١٦٩.

٦٢- ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾:

وتأمَّل كيف جعل سبحانه التوبة والعبادة قرينين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب. والحمد والسياحة قرينين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذا سياحة القلب في حُبَّه وذكره وإجلاله. ١٦٩.

٦٣- ﴿ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾:

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينين في صفة الأزواج: فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب. ١٦٩.

٦٤- وجعل سبحانه الإسلام والإيمان قرينين: فهذا علانية، وهذا في القلب. ١٦٩، بتصرف.

[١٥] (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام)

١- لا خلاف أن لفظة "اللَّهُمَّ" معناها: "يا الله"، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب، واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم، فقيل: زيدت عوضا من حرف النداء، وقيل: زيدت للتعظيم والتفخيم، وهذا القول صحيح؛ إيذانًا بجميع أسمائه وصفاته.١٤٠، ١٤٦، ١٥٣، بتصرف.

٢- والدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك وذُلِّك، فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحدًا من الأمرين، فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث، فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل. ١٥٥.

٣- قال الحسن البصري: "اللَّهُمَّ مجمع الدعاء". ١٥٦.

٤- وأصل هذه اللفظة – أي الصلاة - في اللغة يرجع إلى معنيين:

أحدهما: الدعاء والتبريك.

والثاني: العبادة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]. ١٥٩، بتصرف.

٥- والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع كما أن السائل داع،

وبهما فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قيل: أطيعوني أثبْكم، وقيل: سلوني أعْطِكم، وفُسِّر بهما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والصواب: أن الدعاء يعم النوعين، وهو لفظ متواطئ لا اشتراك فيه. ١٦٠.

٦- والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقةً لا مجازًا، ولا من منقولة. ١٦١.

٧- وأما صلاة الله سبحانه وتعالى على عبده فنوعان: عامَّة، وخاصَّة.

أما العامَّة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومنه دعاء النبي ﷺ الصلاة على آحاد المؤمنين، كقوله: «اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوْفَى».

النوع الثاني: صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله، خصوصًا على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. ١٦١، بتصرف.

٨- الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز. ١٦٧.

٩- أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقوله: «إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي». ١٧٧.

١٠- وقال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، قال غير واحد من السلف: معلمًا للخير أينما كنت. وهذا جزء المسمى، فالمبارك كثير الخير في نفسه، الذي يُحصِّله لغيره تعليمًا وإقدرًا ونصحًا وإرادةً واجتهادًا، ولهذا يكون

العبد مباركًا، لأن الله تعالى بارك فيه وجعله كذلك، والله تعالى مُتَبارِك؛ لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١]. ١٧٩.

١١- ومعلوم أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق سبحانه وتعالى لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه سبحانه، ولا إثبات أصل الصفة له يقتضي إثبات خصائص المخلوق له، كما أن ما نُفِيَ عن صفات الرب سبحانه وتعالى من النقائص والتشبيه لا يقتضي نفيه عن صفة المخلوق، ولا ما ثبت لها من الوجوب والقدم والكمال يقتضي ثبوته للمخلوق، لإطلاق الصفة على الخالق والمخلوق. ١٨٠.

١٢- فمحمد: هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يُحْمَد مرة بعد أخرى. ١٨٣.

١٣- وهذا شأن أسماء الرب سبحانه وتعالى وأسماء كتابه وأسماء نبيه، هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تُضادُّ فيها العَلَمِيَّةُ الوَصْفَ، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين. ١٨٤.

١٤- وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح، ولو كانت ألفاظًا مجردة لا معاني لها؛ لم تدل على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ١٨٥.

١٥- وأيضًا فإنَّه سبحانه يُعَلِّل أحكامه وأفعاله بأسمائه، ولو لم يكن لها معنى لما كان

التعليل صحيحًا، كقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾. ١٨٦.

١٦- وهذه طريقة القرآن، يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة، كقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾. ١٨٨.

١٧- وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤]، لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم، قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾، وفي هذا: معنى التعليل، أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات، وشكر لنا الحسنات. ١٨٨.

١٨- وأيضًا فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك، كقول هارون عليه السلام لِعبَدَةِ العِجْل: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠]. ١٨٩.

١٩- وأيضًا فإن الله سبحانه يعلق بأسمائه المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلامًا محضة لم يصح فيها ذلك، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾. ١٩٠.

٢٠- وأيضًا فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلًا على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. ١٩٠.

٢١- هل الأسماء الحسنى متباينة أم مترادفة؟

قال ابن القيم رحمه الله:

والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى الذات، متباينة بالنظر إلى الصفات، وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة، وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام. ١٩٠.

٢٢- وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته ﷺ.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم. ١٩٦، بتصرف.

٢٣- وممّا يُحْمدُ عليه ﷺ: ما جَبَلَه الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشِّيَم، فإن مَنْ نظر في أخلاقه وشِيَمِه ﷺ علم أنها خير أخلاق بني آدم، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثًا وأحلمهم، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالًا، وأعظمهم عفوًا ومغفرةً، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حِلْمًا. ١٩٧.

٢٤- مما استشهد به ابن القيم من الأبيات في حق نبينا – عليه الصلاة والسلام -:

بَـــــرْدٌ على الأدْنَى ومرْحَمـــــةٌ وعَلَى الأعادِي مــازنٌ جــلد. ١٩٨.

٢٥- وهذا كمال المحبة، أنْ تُقْرَنَ بالتعظيم والهيبة. ٢٠٣.

٢٦- ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]، ولم تكن تَسْويتهم لهم بالله في كونهم خَلَقُوا السماوات والأرض، أو خَلَقوْهم، أو خلقوا آباءهم وإنما سوُّوهم بربِّ العالمين سبحانه وتعالى في الحُبِّ لهم كما يحب الله تعالى، فإن حقيقة العبادة هي الحبُّ والذلُّ، وهذا هو الإجلال والإكرام الذي وَصَفَ به نفسه سبحانه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [الرحمن: ٧٨]. ٢٠٣.

٢٧- ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

وأصحُّ القولين في ذلك: أن الجلال هو التَّعظيم، والإكرام هو الحب، وهو سِرُّ قول العبد: "لا إله إلا الله، والله أكبر"، ولهذا جاء في مسند الإمام أحمد: من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أي: الزموها والهجوا بها. ٢٠٤.

٢٨- قال الحسن البصري رحمه الله: "إنَّ المُؤمنَ رُزِقَ حَلَاوَة ومَهَابة".

يعني يُحَبُّ ويُهَابُ ويُجَلَّ بما ألبسة الله سبحانه من ثوب الإيمان المقتضي لذلك، ولهذا لم يكن بشر أحب إلى بشر ولا أهيب وأجل في صدره من رسول الله ﷺ في صدر الصحابة رضي الله عنهم. ٢٠٥.

٢٩- والفرق بين لفظ "محمد" و"أحمد" من وجهين:

أحدهما: أن "محمدًا" هو المحمود حمدًا بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. "وأحمد" أفعل تفضيل من الحمد يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فمحمد زيادة حمد في الكمية، و"أحمد" زيادته فى الكيفية، فيحمد أكثر حمد وأفضل حَمْدٍ حَمِدَه البَشَر.

الوجه الثانى: أن "محمدًا" هو المحمود حمدًا متكررًا، "وأحمد" هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره. ٢٠٦، بتصرف.

٣٠- ولهذا لا تتمُّ شريعة المسيح إلا بالتوراة وأحكامها، فإن المسيح عليه السلام وأمّته مُحَالُونَ في الأحكام عليها، والإنجيل كأنَّه مُكمِّل لها متمم لمحاسنها، والقرآن جامع لمحاسن الكتابين. ٢٢٤.

٣١- قيل: إنَّ الشرائع الثلاثة: شريعة عدل، وهي شريعة التوراة، فيها الحُكْم

والقِصَاص، وشريعة فَضْل، وهي شريعة الإنجيل، مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان؛ كقوله: "من أخذ رداءك فأعطه ثوبك، ومن لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلًا فامش معه ميلين" ونحو ذلك. وشريعة نبينا جمعت هذا وهذا، وهي شريعة القرآن. ٢٢٤.

٣٢- ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل: أن الآل إنْ أُفْرد دخل فيه المضاف إليه، كقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]. ٢٣٥.

٣٣- واخْتُلِفَ في آلِ النَّبيِّ ﷺ على أربعةِ أقوال:

فقيل: هم الذين حُرِمَتْ عليهم الصدقة، وفيهم ثلاثة أقوال.

والقول الثاني أنهم ذريته وأزواجه خاصة

والقول الثالث: أنهم أتباعه إلى يوم القيامة

والقول الرابع: أنهم الأتقياء من أمته.

والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني، وأما الثالث والرابع فضعيفان. ٢٣٦، بتصرف.

٣٤- وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفردًا وجمعًا .

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

والإخبار عن أهل الشرك بلفظ "المرأة" قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ [المسد: ١ - ٤]

قلت: ولو قيل: إن السِّرَّ في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج أنَّ هذا اللفظ مُشْعِرٌ بالمُشَاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه، فإن الزوجين هما الشيئان المتشابهان المتشاكلان أو المتساويان، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. ٢٥٨، بتصرف.

٣٥- ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى قطع المشابهة والمشاكلة بين الكافر والمؤمن، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. ٢٦١.

٣٦- وتأمل هذا المعنى في آية المواريث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزَّوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]، إيذانًا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتَّشاكل والتَّناسب؛ والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. ٢٦١.

٣٧- وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين. ٢٦٢.

٣٨- واختلف في تفضيل خديجة على عائشة ﵂ على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف. وسألت شيخنا ابن تيمية ﵀ فقال: اخْتَصَّ كل واحدة منهما بخاصة، فخديجة كان تأثيرها في أوَّل الإسلام، وكانت تُسَلِّي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرَّة الإسلام، واحْتَمَلَت الأذى في الله، وفي رسوله ﷺ، وكانت نصرتها للرسول ﷺ في أعظم أوقات الحاجَّة، فلها من النُّصرة والبَذْل ما ليس لغيرها. وعائشة ﵂ تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التَّفقُّه في الدين، وتبليغه إلى الأُمَّة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه ﵁. ٢٦٣، بتصرف.

٣٩- ولخديجة خصائص ﵂.

منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها.

ومنها: أن أولاده كلهم منها إلا إبراهيم ﵁، فإنه من سُرِّيَّتِه مارية ﵂.

ومنها: أنها خير نساء الأمة. ٢٦٢.

٤٠- من خصائص خديجة ﵂:

أن الله سبحانه بعث إليها السلام مع جبريل فبلغها النبي ﷺ ذلك.

وأنها لم تسُؤْه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء ولا عَتَب قط، ولا هجر، وكفى به منقبة وفضيلة.

وأنَّها أوَّل امرأة آمنت بالله ورسوله ﷺ من هذه الأُمّة. ٢٦٣، بتصرف.

٤١- من خصائص الصديقة عائشة ﵂:

أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، وأنه لم يتزوج امرأة بكرًا غيرها.

وأنه كان ينزل عليه الوحي وهو في لِحَافِها دون غيرها.

وأن الله لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها

وأن الله برأها في القرآن. ٢٦٥، بتصرف.

٤٢- وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا، وهو عند الله حقيرًا. ٢٦٨.

٤٣- من خصائص الصديقة عائشة ﵂:

أن الأكابر من الصحابة ﵃ كان إذا أشْكَل عليهم الأمر من الدِّيْن اسْتفْتوها، فيجدون علمه عندها.

وأن رسول الله ﷺ توفي في بيتها، وفي يومِها، وبين سَحْرِها ونَحْرِها، ودفن في بيتها. ٢٦٩، بتصرف.

٤٤- من خصائص الصديقة عائشة ﵂:

أن المَلَك أرَى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في سَرقةِ حَرِيْر، فقال: "إنْ يكن هذا مِن عند الله يُمْضِه".

وأن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يومها من رسول الله ﷺ. ٢٦٩، بتصرف.

٤٥- ولا خلاف بين أهل اللغة أن الذرية تقال على الأولاد الصغار، وعلى الكبار أيضًا، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ٢٩٦.

٤٦- إبراهيم بالسِّرْيانية معناه "أبٌ رحيم". والله سبحانه وتعالى جعل إبراهيم الأب الثالث للعالم، فإن أبانا الأول آدم عليه السلام، والأب الثاني نوح عليه السلام، وأهل الأرض كلهم من ذُرِّيته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]. ٣٠٣.

٤٧- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ :

فالأُمَّة هو: القدوةُ المعلِّم للخير، والقانتُ: المطيعُ لله تعالى الملازمُ لطاعته، والحنيفُ: المقبلُ على الله تعالى، المعْرض عَمَّا سواه. ٣٠٥.

٤٨- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]:

فإن إقامة الوجه للدين هو: إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره.

والحنيف: المُفْرِدُ لمعبوده لا يريد غيره.

فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك، الأول: توحيد الطلب، والثاني: توحيد المطلوب. ٣٠٦.

٤٩- والخُلَّة هي كمال المحبة، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة. ٣١٣.

٥٠- وهذا شأن المبطلين إذا غُلِبُوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى عليه السلام وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]. ٣١٤.

٥١- ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، ولا ريب أنه لا يقدر أحد أن يحسن

بقدر ما أحسن الله تعالى إليه، وإنما أريد به أصل الإحسان، لا قدره. ٣٢٦.

٥٢- قولة تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهذا التشبيه في أصل الوحي، لا فى قدره وفضل الموحى به. ٣٢٦.

٥٣- ولا ريب أن الصلاة الحاصلة لآل إبراهيم ورسول الله ﷺ معهم أكمل من الصلاة الحاصلة له دونهم. ٣٣٤.

٥٤- لم جاء في عامة الأحاديث ذكر محمد وآل محمد بالاقتران وجاء الاقتصار على إبراهيم وآله في عامتها؟

قال ابن القيم رحمه الله:

وجواب ذلك: أن الصلاة على النبي ﷺ، وعلى آله ذُكِرَتْ في مقام الطَّلب والدُّعَاء، وأما الصلاة على إبراهيم فإنما جاءت في مقام الخَبَر وذِكْرِ الواقع، لأن قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ صل على محمد وعلى آل محمد» جملة طلبية، وقوله: «كما صليت على آل إبراهيم» جملة خبرية، والجملة الطلبية إذا وقعت موقع الدعاء والسؤال، كان بسطُها وتطويلُها أنْسَب من اختصارها وحذفها، ولهذا يُشْرع تكرارها، وإبداؤها، وإعادتها. ٣٤٢.

٥٥- والله سبحانه كُلَّما سألته كنت أقربَ إليه وأحبَّ إليه، وكلما ألْحَحْتَ عليه في الدعاء أحبَّك، ومن لم يسأله يغضب عليه:

فاللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه ... وبُنَيُّ آدمَ حِيْنَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فالمطلوب يزيد بزيادة الطلب وينقص بنقصانه. ٣٤٤.

٥٦- وحقيقة البركة: الثبوت واللزوم والاستقرار. ٣٤٧، بتصرف.

٥٧- وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص: ٢٩]، وهو أحق أن يسمى مباركًا من كل شيء، لكثرة خيره ومنافعه، ووجوه البركة فيه، والرب تعالى يقال في حقه: "تبارك" ولا

يقال: مبارك. ٣٤٨.

٥٨- قال النبي ﷺ: «والشَّرُّ لَيْسَ إليْكَ»، وإنما يقع الشر في مفعولاته ومخلوقاته، لا في فعله سبحانه. ٣٤٩.

٥٩- وتأمل كيف جاء في القرآن: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣] ولم يذكر إسماعيل؛ منبهًا لنا على ما حصل في أولاده من نُبُوَّة موسى عليه السلام وغيره، وما أُوتُوهُ من الكتاب والعلم، مستدعيًا من عباده الإيمان بذلك، والتصديق به، وأن لا يُهْمِلُوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النبوة منهم. ٣٥٤، بتصرف.

٦٠- ومن تأمل تسليط الله سبحانه مَنْ سَلَّطه على البلاد والعباد من الأعداء علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه، فَسَلَّط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتى إن البلاد التي لآثار النبي ﷺ وسننه وشرائعه فيها ظهور دُفِعَ عنها بحسب ظهور ذلك بينهم. ٣٦١.

٦١- وأما الوَدُوْدُ: ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يُحِبُّ أنبياءَه ورسلَه وأولياءه وعباده المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مَوْدُوْد، وهو المحبوب الذي يستحقُّ أنْ يُحَبَّ الحُبَّ كلَّه. ٣٦٥.

٦٢- والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود. ٣٦٦.

٦٣- والله سبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ مَا، والإحسان كله له ومنه، فهو سبحانه وتعالى أحق بكل حمد، وبكل حب من كُلِّ جهة، فهو أهل أن يُحَبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه، ولكل ما صَدَرَ منه سبحانه وتعالى. ٣٦٧.

٦٤- وأما المَجْد فهو مستلزم للعظمة والسعة والجلال كما يدلُّ عليه موضوعه في اللُّغة، فهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال، والحمد يدل على صفات الإكرام. ٣٦٧.

٦٥- وكلُّ كَمَال في العبد غير مسْتلزم للنَّقصْ، فالرَّبُّ أَحَقُّ به. ٣٧١.

٦٦- فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أُمَمِهم والناس تبع لهم. ٤٩٢.

٦٧- وتبليغُ سُنَّته إلى الأُمَّة أفضل من تَبْليغ السِّهام إلى نُحُور العَدُوّ، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أُمَمِهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنِّه وكرمه. ٤٩٢.

٦٨-ذكر ابن القيم ﷺ في كتابه "جلاء الأفهام" أحد وأربعين موطنا من مواطن الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. انظر: ٣٨٠، وما بعدها.

٦٩- ذكر ابن القيم ﷺ أربعين ثمرة من ثمرات الصلاة والسلام على خير الأنام محمد ﷺ في كتابه "جلاء الأفهام". انظر: ٥٢١.

٧٠- من ثمرات الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

امثتال أمر الله، وموافقته سبحانه في الصلاة عليه، وموافقة ملائكته فيها، وحصول عشر صلوات من الله على المصلي عليه مرة، وأنه يرفع له عشر درجات، ويكتب له عشر حسنات، ويمحى عنه عشر سيئات. ٥٢١، بتصرف.

٧١- من ثمرات الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، وأنها سبب لشفاعته إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها، وأنها سبب لغفران الذنوب، وأنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه. ٥٢١، بتصرف.

٧٢- من ثمرات الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة، وأنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة، وأنها سبب لقضاء الحوائج، وأنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه. ٥٢٢، بتصرف.

٧٣- من ثمرات الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

أنها زكاة للمصلي وطهارة له، وأنها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته، وأنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة، وأنها سبب لرد النبي ﷺ الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه. ٥٢٢، بتصرف.

٧٤- ولا شيء أَقرَّ لعين المُحِبِّ من رؤية محبوبه ولا أَقرَّ لقلبه من ذكره وإخطاره وإخطار محاسنه

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ: ذَكَرْتُ حِبِّي وَهلْ أَنْسَى فأذْكُرُ ما نَسِيْتُ؟!

٥٢٥، بتصرف.

٧٥- مما استشهد به ابن القيم من الأبيات في "جلاء الأفهام":

أُرِيْدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فكأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِيْ لَيْلَى بكلِّ سَبِيْلِ. ٥٢٦

٧٦- مما استشهد به ابن القيم في "جلاء الأفهام" من الأبيات:

يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانكُم وتَأْبَى الطِّبَاعُ على النَّاقِل. ٥٢٦.

٧٧- والمثل المشهور: "من أحب شيئًا أكثر من ذكره"، وفي هذا الجناب الأشرف أحق ما أُنشد:

لوْ شُقَّ عَنْ قَلْبِي فِرَى وسطه ذِكْرُك والتَّوحِيْد فِيْ سَطْرِ. ٥٢٦.

٧٨- دوامَ الذِّكْر سببٌ لدوام المحبَّة، فالذِّكْر للقلب كالماء للزَّرع، بل كالماء للسَّمك،

لا حياةَ له إلا به. ٥٢٩.

٧٩- وذكره سبحانه خمسة أنواع:

ذِكْرُه بأسمائه، وصفاته، والثناء عليه بها.

- الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذِّكر عند المتأخرين.

- الثالث: ذِكْرُه بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذِكْرُ أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذِكْرُهم لربِّهم.

- ومن أفضل ذِكْرِهِ ذِكْرُهُ بكلامه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، فذِكْرُهُ هنا: كلامُه الذي أنْزله على رسوله، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

- ومن ذِكْره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتَضرُّع إليه. ٥٣٠، بتصرف.

٨٠- ذِكْرُ الله سبحانه، كلَّما كان العبدُ به أعْرف، وله أطْوع، وإليه أحبّ، كان ذِكْرُهُ غير ذِكْرِ الغافلين اللَّاهِيْن. ٥٣١.

٨١- مما استشهد به ابن القيم من الأبيات في "جلاء الأفهام":

ومَنْ خَطَرَتْ منـه بِبَالِـك خَطْـرَة حَقِيْقٌ بأنْ يَسْمُو وأنْ يتَقَدَّمَا. ٥٣٢

٨٢- والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره. ٥٣٥.

[١٦] (أعلام الموقعين عن رب العالمين)

١- فسبحان من أفاض على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأودع الكتاب الذي كتبَه، أنَّ رحمته تغلب غضبَه. ٤.

٢- وتبارك من له في كلِّ شيء على ربوبيته ووحدانيته وعلمه وحكمته أعدل شاهد.٤

٣- ولو لم يكن إلا أن فاضَلَ بين عباده في مراتب الكمال حتى عُدَّ الآلاف المؤلَّفة منهم بالرجل الواحد. ذلك ليعلم عباده أنه أنزل التوفيق منازله، ووضع الفضل مواضعه، وأنه يختص برحمته من يشاء وهو العليم الحكيم، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: ٢٩]. ٤.

٤- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات. وعليها أُسِّست الملة، ونُصِبت القبلة.

ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد، وبها أمر الله سبحانه جميع العباد.

وهي فطرة الله التي فطرَ الناس عليها، ومفتاح عبوديته التي دعا الأممَ على ألسُن رسله إليها.

وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وأساس الفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه "لا إله إلا الله" دخل الجنّة. ٤، بتصرف.

٥- قال عن نبينا ﷺ:

وافترض على العباد طاعته ومحبته والقيام بحقوقه، وسدَّ الطرق كلَّها إليه وإلى جنته، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه. فهو الميزان الراجح الذي على أخلاقه وأقواله

وأعماله توزن الأخلاق والأقوال والأعمال، والفرقان المبين الذي باتباعه تميَّز أهلُ الهدى من أهل الضلال. ٦.

٦- ولم يزل ﷺ مشمِّرًا في ذات الله لا يردُّه عنه رادّ، صادعًا بأمره لا يصدُّه عنه صادّ، إلى أن بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حقَّ الجهاد. فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألَّفت به القلوب بعد شتاتها، وامتلأت به الدنيا نورًا وابتهاجًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا. ٦.

٧- ولما كان العلم للعمل قرينًا وشافعًا، وشرفه لشرف معلومه تابعًا، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد، وأنفعها علم أحكام العبيد. ٧.

٨- ولما كان التلقِّي عنه ﷺ على نوعين: نوع بواسطة، ونوع بغير واسطة؛ وكان التلقِّي بلا واسطة حظَّ أصحابه الذين حازوا قصَباتِ السِّباق...

تالله لقد وردوا رأسَ الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زُلالًا، وأطَّدوا قواعد الإسلام، فلم يدَعوا لأحد بعدهم مقالًا. فتحوا القلوب بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان. وألقوا إلى التابعين ما تلقَّوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا، وكان سندهم فيه عن نبيِّهم ﷺ عن جبريل عن ربِّ العالمين سندًا صحيحًا عاليًا. ٨، بتصرف.

٩- قال الشافعي قدَّس الله روحه: أجمع المسلمون على أنّ من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس. ١٠.

١٠- وقال أبو عمر وغيره من العلماء: أجمع الناس على أن المقلِّد ليس معدودًا من أهل العلم، وأنَّ العلم معرفة الحق بدليله.

وهذا كما قال أبو عمر ﷺ، فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة

عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد. ١٠.

١١- ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وكان التبليغ عنه نوعين: تبليغَ ألفاظ ما جاء به، وتبليغَ معانيه= كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين:

أحدهما: حفاظ الحديث وجهابذته ونُقّاده

القسم الثاني: فقهاء الإسلام. ١٣، بتصرف.

١٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

والتحقيق: أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم؛ فكما أن طاعة العلماء تبعٌ لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبعٌ لطاعة العلماء.١٦.

١٣- ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلُّهم لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس. قيل: من هم؟ قال: الملوك والعلماء.١٦.

١٤- وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ ... وقد يورِثُ الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سَوءٍ ورهبانُها. ١٦.

١٥- وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحلِّ الذي لا يُنكَر فضله، ولا يُجهَل قدرُه، وهو من أعلى المراتب السنيَّات، فكيف بمنصب التوقيع عن ربِّ الأرض والسماوات؟. ١٧.

١٦- وكفى بما تولّاه الله بنفسه تعالى شرفًا وجلالةً، إذ يقول في كتابه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. وَلْيعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، وَلْيوقن أنه مسؤول غدًا وموقوف بين يدي الله. ١٧.

١٧- ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]. فكانت فتاويه ﷺ جوامعَ الأحكام، ومشتملةً على فصل الخطاب. وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانيةُ الكتاب. ١٨.

١٨- والذين حُفظت عنهم الفتوى من الصحابة مائة ونيف وثلاثون نفسًا، ما بين رجل وامرأة. وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم. ١٩.

١٩- وكما أنَّ الصحابة سادة الأمة وأئمتها وقادتها، فهم سادات المفتين والعلماء.

قال الليث عن مجاهد: العلماء أصحاب [٨/أ] محمد ﷺ.

وقال سعيد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] قال: أصحاب محمد ﷺ. ١٢٥.

٢٠- وقال أبو البَخْتري: قيل لعلي بن أبي طالب: حدِّثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: عن أيِّهم؟ قالوا: عن عبد الله بن مسعود. قال: قرأ القرآن، وعلِم السنَّة، ثم انتهى، وكفاه بذلك. قالوا: فحدِّثنا عن حذيفة. قال: أعلم أصحاب محمد

بالمنافقين. قالوا: فأبو ذر. قال: كُنَيْفٌ مُلئ علمًا عجز فيه. قالوا: فعمار. قال: مؤمن نَسِيٌّ، إذا ذكَّرته ذكَر. خلط الله الإيمان بلحمه ودمه، ليس للنار فيه نصيب. قالوا: فأبو موسى. قال: صُبِغ في العلم صَبْغةً. قالوا: فسلمان. قال: علِمَ العلمَ الأول والآخر، بحر لا يُنزَح، منَّا أهلَ البيت. قالوا: فحدِّثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين. قال: إياها أردتم! كنت إذا سألتُ أُعطِيتُ، وإذا سكتُّ ابتُدِئتُ. ٢٨.

٢١- وقال مسلم عن مسروق: شامتُ أصحاب محمد ﷺ، فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة: إلى علي، وعبد الله، وعمر، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء، وأُبي بن كعب. ثم شامتُ الستة، فوجدتُ علمهم انتهى إلى علي وعبد الله. ٢٩.

٢٢- وقال مسروق أيضًا: جالستُ أصحاب محمد ﷺ، فكانوا كالإخاذ: الإخاذ يُروي الراكب، والإخاذ يُروي الراكبين، والإخاذ يُروي العشرة. والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، وإنَّ عبد الله من تلك الإخاذ. ٢٩.

٢٣- وقال الشعبي: إذا اختلف الناس في شيء فخذوا بما قال عمر. ٣٠.

٢٤- وقال ابن مسعود: إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم. ٣٠.

٢٥- وقال ابن مسعود: لو أنَّ عِلمَ عمر وُضِع في كفّة الميزان، ووُضِع علُم أهل الأرض في كفّة، لرجَح علمُ عمر. ٣٠، بتصرف.

٢٦- وقال حذيفة: كأنَّ علم الناس مع علم عمر دُسَّ في جُحْر. ٣٠.

٢٧- وقال الشعبي: قضاة هذه الأمة أربعة: عمر، وعلي، وزيد، وأبو موسى. ٣٠.

٢٨- وقال سعيد بن المسيِّب: كان عمر يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن. ٣١.

٢٩- وشهد رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود بأنه "غُلَيِّم معلَّم".

وبدأ به في قوله: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أمِّ عبد، ومن أبي بن كعب،

ومن سالم مولى أبي حذيفة، ومن معاذ بن جبل». ٣١.

٣٠- ولما ورد أهل الكوفة على عمر أجازهم، وفضَّل أهلَ الشام عليهم في الجائزة، فقالوا: يا أمير المؤمنين تُفضِّل أهلَ الشام علينا؟ فقال: يا أهل الكوفة، أجزعتم أن فضَّلتُ أهلَ الشام عليكم لبعد شُقَّتهم، وقد آثرتُكم بابن أمِّ عبد؟. ٣١.

٣١- وقال عُقْبة بن عمرو: ما أرى أحدًا أعلمَ بما أُنزل على محمد ﷺ من عبد الله بن مسعود، فقال أبو موسى: إن تقل ذاك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل. ٣٢.

٣٢- وقال عبد الله: ما أُنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أنّي أعلم أنَّ رجلًا أعلمَ بكتاب الله منِّي تبلُغه الإبلُ لأتيتُه. ٣٢.

٣٣- وقال زيد بن وهب: كنت جالسًا عند عمر، فأقبل عبد الله، فدنا منه، فأكبَّ عليه، وكلَّمه بشيء، ثم انصرف. فقال عمر: كُنَيْفٌ مُلئ علمًا!. ٣٢.

٣٤- وقال الأعمش عن إبراهيم: إنه كان لا يعدِل بقول عمر وعبد الله إذا اجتمعا. فإذا اختلفا كان قولُ عبد الله أعجبَ إليه، لأنه كان ألطف. ٣٢.

٣٥- وقال أبو موسى: لَمجلسٌ كنتُ أجالسه عبدَ الله أوثقُ في نفسي من عملِ سَنة. ٣٣.

٣٦- وقال عبد الله بن بريدة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۖ﴾ [محمد: ١٦] قال: هو عبد الله بن مسعود. ٣٣.

٣٧- وقيل لمسروق: كانت عائشة تحسن الفرائض؟ قال: والله لقد رأيتُ الأخيار من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض. ٣٣.

٣٨- وقال أبو موسى: ما أشكل علينا - أصحابَ محمَّد ﷺ - حديثٌ قطُّ، فسألناه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا. ٣٣.

٣٩- وقال ابن سيرين: كانوا يرون أنَّ أعلمهم بالمناسك عثمان بن عفان، ثم ابن عمر بعده. ٣٣.

٤٠- وقال شهر بن حَوشَب: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدَّثوا وفيهم معاذ نظروا إليه هيبةً له. ٣٤.

٤١- وقال علي: أبو ذرٍّ وعَى علمًا، ثم أوكَى عليه، فلم يُخرِج منه شيئًا حتى قُبِض. ٣٤.

٤٢- وقال مسروق: قدمتُ المدينة، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم. ٣٤.

٤٣- وقال الجُريري عن أبي تَميمة: قدِمنا الشام، فإذا الناس مجتمعون يُطِيفون برجل. قال: قلتُ: من هذا؟ قالوا: هذا أفقه مَن بقي من صحابة محمد ﷺ، هذا عمرو البِكَالي. ٣٤.

٤٤- وقال سعيد: قال ابن عباس - وهو قائم على قبر زيد بن ثابت -: هكذا يذهب العلم!. ٣٥.

٤٥- وكان ميمون بن مِهران إذا ذُكِر ابنُ عباس وابنُ عمر عنده يقول: ابن عمر أورعهما، وابن عباس أعلمهما. ٣٥.

٤٦- وقال أيضًا: ما رأيتُ أفقهَ من ابن عمر، ولا أعلمَ من ابن عباس. ٣٥.

٤٧- وكان ابن سيرين يقول: اللَّهُمَّ أبقِني ما أبقيتَ ابن عمر، أقتدي به. ٣٦.

٤٨- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضمَّني رسولُ الله ﷺ وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمه الحكمة».

وقال أيضًا: دعاني رسولُ الله ﷺ، فمسح على ناصيتي، وقال: «اللَّهُمَّ علِّمه الحكمةَ وتأويلَ الكتاب». ٣٦.

٤٩- ولما مات ابن عباس قال محمد ابن الحنفية: مات رَبَّانيُّ هذه الأمة. ٣٦.

٥٠- وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: ما رأيت أحدًا أعلمَ بالسنّة، ولا أجلدَ رأيًا، ولا أثقبَ نظرًا حين ينظر، مِن ابن عباس. ٣٦.

وإن كان عمر بن الخطاب لَيقول له: قد طرأتْ علينا عُضَلُ أقضيةٍ أنتَ لها ولأمثالها.

٥١- وقال عطاء بن أبي رباح: ما رأيت مجلسًا قطُّ أكرمَ من مجلس ابن عباس: أكثر فقهًا وأعظم [جفنةً]! إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده. يُصْدِرُهم كلَّهم في وادٍ واسع. ٣٧.

٥٢- وقال ابن عباس ﷺ: كان عمر بن الخطاب يسألني مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ. ٣٧.

٥٣- وقال ابن مسعود: لو أنَّ ابن عباس أدرك أسناننا ما عَشَره منّا رجل. ٣٧.

٥٤- وقال مغيرة: قيل لابن عباس: أنَّى أصبتَ هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول. ٣٨.

٥٥- وقال مجاهد: كان ابن عباس يسمَّى "البحر" من كثرة علمه. ٣٨.

٥٦- وقال طاوس: أدركت نحوًا من خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ، إذا ذكر ابنُ عباس شيئًا فخالفوه، لم يزل بهم حتى يقرِّرَهم. ٣٩.

٥٧- وقيل لطاوس: أدركتَ أصحاب محمد ﷺ، ثم انقطعتَ إلى ابن عباس! فقال: أدركتُ سبعين من أصحاب محمد ﷺ إذا تدارؤوا في شيء انتهَوا إلى قول ابن عباس. ٣٩.

٥٨- وقال ابن أبي نَجيح: كان أصحاب ابن عباس يقولون: ابن عباس أعلم من عمر ومن علي ومن عبد الله. ويعدُّون ناسًا، فيثِب عليهم الناس، فيقولون: لا تعجَلوا علينا، إنه لم يكن أحد من هؤلاء إلا وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه،

وكان ابنُ عباس قد جمعه كلَّه. ٣٩.

٥٩- وقال الأعمش: كان ابن عباس إذا رأيتَه قلتَ: أجملُ الناس، فإذا تكلَّم قلت: أفصحُ الناس، فإذا حدَّث قلت: أعلمُ الناس. ٤٠.

٦٠- وقال مجاهد: كان ابن عباس إذا فسَّر الشيءَ رأيتُ عليه النور. ٤٠.

٦١- قال الشعبي: من سرَّه أن يأخذ بالوثيقة في القضاء فليأخذْ بقول عمر. ٤٠.

٦٢- وقال مجاهد: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما صنع عمر، فخذوا به. ٤٠.

٦٣- وقال ابن المسيِّب: ما أعلم أحدًا بعد رسول الله ﷺ أعلمَ من عمر بن الخطاب.

وقال أيضًا: كان عبد الله يقول: لو سلك الناس واديًا وشِعْبًا، وسلك عمرُ واديًا وشِعْبًا، لسلكتُ وادي عمر وشِعبه. ٤٠.

٦٤- وقال بعض التابعين: دُفِعتُ إلى عمر، فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان، قد استعلى عليهم في فقهه وعلمه. (٤١).

٦٥- قال محمد بن جرير: ولم يكن أحدٌ له أصحاب معروفون حرَّروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود. وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر، وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه، ويرجع من قوله إلى قوله. (٤١).

٦٦- وأما علي بن أبي طالب، فانتشرت أحكامه وفتاواه، ولكن قاتل الله الشيعة، فإنهم أفسدوا كثيرًا من علمه بالكذب عليه. ولهذا أصحابُ الحديث من أهل الصحيح لا يعتمدون من حديثه وفتاواه إلا ما كان من طريق أهل بيته وأصحاب عبد الله بن مسعود كعَبيدة السَّلماني وشُريح وأبي وائل ونحوهم. وكان رضي الله عنه يشكو عدمَ حَمَلة العلم الذي أُودعه، كما قال: إنَّ هاهنا علمًا لو أصبتُ له حَمَلة!. ٤٢.

٦٧- والدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عباس، وأصحاب عبد الله بن عمر؛ فعلمُ الناسِ عامّتُه عن أصحاب هؤلاء الأربعة. فأما أهل المدينة، فعلمُهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر. وأما أهلُ مكة، فعلمُهم عن أصحاب عبد الله بن عباس. وأما أهل العراق، فعلمُهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود. ٤٢.

٦٨- وقال ابن وهب: حدثني موسى بن عُلَيّ اللخمي عن أبيه أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية، فقال: من أراد أن يسأل عن الفرائض فَلْيأتِ زيدَ بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فَلْيأتِ معاذ بن جبل، ومن أراد المال فَلْيأتِني.٤٣.

٦٩- وأما عائشة فكانت مقدَّمةً في العلم بالفرائض والأحكام والحلال والحرام. وكان من الآخذين عنها الذين لا يكادون يتجاوزون قولها المتفقهين بها: القاسم بن محمد بن أبي بكر ابنُ أخيها، وعروة بن الزبير ابنُ أختها أسماء. ٤٣.

٧٠- قال مسروق: لقد رأيت مَشْيَخةَ أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض. (٤٤).، أي: عائشة رضي الله عنها.

٧١- وقال عروة بن الزبير: ما جالستُ أحدًا قطُّ كان أعلم بقضاء، ولا بحديث بالجاهلية، ولا أروى للشعر، ولا أعلم بفريضة ولا طبٍّ= من عائشة. (٤٤).

٧٢- وقال الأعمش: فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيِّب، وعروة، وقَبيصة، وعبد الملك. ٤٥.

٧٣- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة: عبد الله بن عباس،

[وعبد الله بن عمر]، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص؛ صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي. فكان فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح، وفقيه أهل اليمن طاوس، وفقيه أهل اليمامة يحي بن أبي كثير، وفقيه أهل الكوفة إبراهيم، وفقيه أهل البصرة الحسن، وفقيه أهل الشام مكحول، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني؛ إلا المدينة فإنَّ الله خصَّها بقرشي، فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيِّب غير مدافع. (٤٦).

٧٤- وقال مالك عن يحي بن سعيد، عن سعيد بن المسيِّب قال: مررتُ بعبد الله بن عمر، فسلَّمتُ عليه، ومضيتُ. قال: فالتفتَ إلى أصحابه فقال: لو رأى رسول الله ﷺ هذا لَسرَّه. فرفع يديه جدًّا، وأشار بيده إلى السماء. (٤٦).

٧٥- وكان سعيد بن المسيِّب صهر أبي هريرة، زوَّجَه أبو هريرة ابنتَه، وكان إذا رآه قال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. ولهذا أكثر عنه من الرواية. (٤٦).

٧٦- وكان المفتون بالمدينة من التابعين: ابن المسيِّب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. وهؤلاء هم الفقهاء السبعة، وقد نظمهم القائل فقال:

إذا قيل: مَن في العلم سبعةُ أبحر ... روايتُهم ليست عن العلم خارجَه

فقُلْ: هم عبيد الله عروةُ قاسمٌ ... سعيدٌ أبو بكر سليمانُ خارجَـــه. ٤٧.

٧٧- وكان بمدينة السلام من المفتين خلق كثير. ولمّا بناها المنصور أقدَمَ إليها من الأئمة والفقهاء والمحدثين بشرًا كثيرًا، فكان من أعيان المفتين بها أبو عبيد القاسم بن سلام، وكان جبلًا نُفِخ فيه الروحُ علمًا وجلالةً ونبلًا وأدبًا. ٥٧.

٧٨- وكان بها إمام أهل السنّة على الإطلاق أحمد بن حنبل الذي ملأ الأرض علمًا وحديثًا وسنّةً، حتى إن أئمة الحديث والسنّة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة. وكان ﷺ شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحبُّ تجريد الحديث، ويكره أن يُكتَب كلامُه، ويشتدُّ عليه جدًا، فعلِم الله حسن نيته وقصده، فكُتِب من كلامه وفتاواه أكثر من ثلاثين سِفْرًا. ٥٧.

٧٩- ومن تأمَّل فتاواه وفتاوى الصحابة رأى مطابقةَ كلٍّ منهما للأخرى، ورأى الجميعَ كأنها تخرج من مشكاة واحدة، حتَّى إنَّ الصحابة إذا اختلفوا على قولين جاء عنه في المسألة روايتان. ٥٨.

٨٠- وكان تحرِّيه لفتاوى الصحابة كتحرِّي أصحابه لفتاويه ونصوصه، بل أعظم، حتَّى إنَّه لَيُقدِّم فتاواهم على الحديث المرسل.

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ في "مسائله": قلتُ لأبي عبد الله: حديثٌ عن رسول الله ﷺ مرسلٌ برجالٍ ثَبَتٍ أحبُّ إليك أو حديثٌ عن الصحابة والتابعين متصلٌ برجال ثَبَت؟ قال أبو عبد الله ﷺ: عن الصحابة أعجَبُ إليَّ. ٥٨.

٨١- وكانت فتاوي أحمد على خمسة أصول:

أحدها: النصوص.

والثاني: فتاوى الصحابة.

والثالث: تخير ما أفتى به الصحابة إذا اختلفوا، ولا يخرج عنهم.

والرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف.

والخامس: القياس عند الضرورة. ٥٨، بتصرف.

٨٢- ولم يكن أحمد ﷺ يُقدِّم على الحديث الصحيح عملًا ولا رأيًا ولا قياسًا، ولا

قولَ صاحب، ولا عدمَ علمِه بالمخالف، الذي يسمِّيه كثير من الناس إجماعًا ويقدِّمونه على الحديث الصحيح. ٦٠.

٨٣- الحديث الضعيف عند أحمد قسيم الصحيح، وقسمٌ من أقسام الحسن. ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف، بل إلى صحيح وضعيف، والضعيفُ عنده مراتب. ٦٤، بتصرف.

٨٤- وأما مالك فإنه يقدِّم الحديثَ المرسل والمنقطع والبلاغات وقولَ الصحابي على القياس. ٦٦.

٨٥- وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف، كما قال لبعض أصحابه: إياك أن تتكلَّم في مسألةٍ ليس لك فيها إمام. ٦٧.

٨٦- وقال أبو داود في "مسائله": ما أحصي ما سمعتُ أحمدَ سئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم، فيقول: لا أدري. ٦٩.

٨٧- وقال عبد الله بن أحمد في "مسائله": سمعتُ أبي يقول: قال عبد الرحمن بن مهدي: سأل رجلٌ من أهل الغرب مالكَ بن أنس عن مسألة فقال: لا أدري. فقال: يا أبا عبد الله تقول: لا أدري؟ قال: نعم، فأَبلِغْ مَن وراءك أنِّي لا أدري. ٦٩.

٨٨- وقال عبد الله: كنت أسمع أبي كثيرًا يُسأل عن المسائل، فيقول: لا أدري؛ ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف. وكثيرًا ما كان يقول: سَلْ غيري. فإن قيل له: من نسأل؟ قال: سَلُوا العلماء، ولا يكاد يسمِّي رجلًا بعينه. ٦٩.

٨٩- وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرُّعَ في الفتوى، ويودُّ أحدُهم أن يكفيه إياها غيرُه. فإذا رأى أنها قد تعيَّنت عليه بذَلَ اجتهادَه في معرفة

حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين، ثم أفتى. ٧٠.

٩٠- وقال عبد الله بن المبارك: ثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركتُ عشرين ومائةً من أصحاب رسول الله ﷺ - أراه قال: في المسجد - فما كان منهم محدِّث إلّا ودَّ أنَّ أخاه كفاه الحديثَ، ولا مفتٍ إلّا ودَّ أنّ أخاه كفاه الفتيا. ٧٠.

٩١- وقال مالك عن يحيى بن سعيد قال: قال ابن عباس: إنَّ كلَّ من أفتى الناسَ في كلِّ ما يسألونه عنه لَمجنون. ٧١.

٩٢- وقال سَحنون بن سعيد: أجسَرُ الناس على الفتيا أقلُّهم علمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم، يظنُّ أنَّ الحقَّ كلَّه فيه.

قلت: الجرأة على الفتيا تكون من قلّة العلم ومن غزارته وسعته. فإذا قلَّ علمُه أفتى عن كلِّ ما يُسأل عنه بغير علم، وإذا اتسع علمه اتسعت فتياه.

ولهذا كان ابنُ عباس من أوسع الصحابة فُتيا، وقد تقدَّم أنَّ فتاواه جُمِعت عشرين سِفْرًا. وكان سعيد بن المسيِّب أيضًا واسع الفتيا، وكانوا يسمُّونه "الجريء". ٧٢.

٩٣- وقال ابن وهب: ثنا أشهل بن حاتم، عن عبد الله بن عون، عن ابن سيرين قال: قال حذيفة: إنما يفتي الناسَ أحدُ ثلاثة: من يَعلم ما نُسِخ من القرآن، أو أميرٌ لا يجد بُدًّا، أو أحمق متكلِّف. قال: فربما قال ابن سيرين: فلستُ بواحد من هذين، ولا أحبُّ أن أكون الثالث! ٧٣.

٩٤- وقال عمر بن الخطاب ﷺ: ويلٌ لِدَيَّانِ مَن في الأرض مِن دَيَّانِ مَن في السماء يوم يلقونه، إلَّا مَن أمرَ بالعدل، وقضَى بالحق، ولم يَقْضِ على هوًى، ولا على قرابة، ولا على رَغَبٍ ولا رَهَبٍ؛ وجعَل كتابَ الله مرآةً بين عينيه. ٧٦.

٩٥- فكلُّ خطرٍ على المفتي فهو على القاضي، وعليه من زيادة الخطر ما يختَصُّ به. ولكنَّ خطرَ المفتي أعظم من جهة أخرى فإنَّ فتواه شريعة عامة تتعلَّق بالمستفتي وغيره. وأما الحاكم، فحكمُه جزئيٌّ خاصٌّ لا يتعدَّى إلى غير المحكوم عليه وله. فالمفتي يُفتي حكمًا عامًّا كُلِّيًّا أن من فعل كذا ترتَّب عليه كذا، ومن قال كذا لزمه كذا؛ والحاكم يقضي قضاءً معيَّنًا على شخص معيّن، فقضاؤه خاصٌّ ملزم، وفتوى العالم عامَّة غير ملزمَة. فكلاهما. ٧٩.

٩٦- وقد حرَّم الله سبحانه القولَ عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرَّمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]. فرتَّب المحرَّماتِ أربعَ مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشدُّ تحريمًا منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشدُّ تحريمًا من ذلك كلِّه، وهو القولُ عليه بلا علم. وهذا يعُمُّ القولَ عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. ٨٠.

٩٧- وقد نصَّ محمد بن الحسن على أنَّ كلَّ مكروه فهو حرام، إلا أنه لما لم يجد فيه نصًّا قاطعًا لم يُطلق عليه لفظ "الحرام". ٨٧.

٩٨- وأما أصحاب مالك، فالمكروه عندهم مرتبة بين الحرام والمباح، ولا يطلقون عليه اسم الجواز. ويقولون: إنَّ أكلَ كلِّ ذي ناب من السباع مكروه غير مباح. ٨٨.

٩٩- وقد قال مالك في كثير من أجوبته: أكره كذا، وهو حرام. فمنها: أن مالكًا نصَّ على كراهة الشِّطْرَنج. وهذا عند أكثر أصحابه على التحريم، وحمله بعضهم على

الكراهة التي هي دون التحريم. ٨٩.

١٠٠- وقد قال تعالى عقيب ذكر ما حرَّمه من المحرَّمات من عند قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إلى آخر الآيات. ثم قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٨].

وفي "الصحيح": "إنَّ الله عزَّ وجلَّ كرِه لكم قيلَ وقال، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال".

فالسلف كانوا يستعملون "الكراهة" في معناها الذي استُعملت فيه في كلام الله ورسوله، ولكن المتأخرون اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحرَّم، وتركُه أرجح من فعله. ثم حمَل مَن حمَل منهم كلامَ الأئمة على الاصطلاح الحادث، فغلِط في ذلك.

وأقبَحُ غلطًا منه مَن حمل لفظ الكراهة أو لفظ "لا ينبغي" في كلام الله ورسوله على المعنى الاصطلاحي الحادث. وقد اطَّرَد في كلام الله ورسوله استعمال "لا ينبغي" في المحظور شرعًا أو قدرًا، وفي المستحيل الممتنع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩٢] وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١١]. وقوله على لسان نبيه: "كذَّبني ابنُ آدم وما ينبغي له، وشتَمني ابنُ آدم وما ينبغي له"، وقوله ﷺ: «إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»، وقوله ﷺ في لباس الحرير: «لا ينبغي هذا للمتقين»، وأمثال ذلك. ٨٩.

١٠١- قال الإمام أحمد في رواية ابنه صالح عنه: ينبغي للرجل إذا حمَل نفسَه على الفتيا أن يكون عالمًا بوجوه القرآن، عالمًا بالأسانيد الصحيحة، عالمًا بالسُّنن. وإنما جاء خلافُ من خالف لقلَّةِ معرفتهم بما جاء عن النبي ﷺ، وقلَّةِ معرفتهم بصحيحها من سقيمها. ٩٣.

١٠٢- وقال محمد بن عبيد الله بن المنادي: سمعتُ رجلًا يسأل أحمد: إذا حفظ الرجلُ مائة ألف حديث يكون فقيهًا؟ قال: لا. قال: فمائتي ألف؟ قال: لا. قال: فثلاثمائة ألف؟ قال: لا. قال: فأربعمائة ألف؟ قال بيده هكذا، وحرَّك يدَه. قال أبو الحسين: وسألتُ جدِّي محمد بن عبيدالله، قلتُ: فكم كان يحفظ أحمد بن حنبل؟ قال: أجاب عن ستمائة ألف. ٩٤.

١٠٣- هل يجوز الفتوى بالتقليد؟

قال ابن القيم:

هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال لأصحاب أحمد:

أحدها: أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد، لأنه ليس بعلم، والفتوى بغير علم حرام. ولا خلاف بين الناس أنَّ التقليد ليس بعلم، وأنَّ المقلِّد لا يطلَق عليه اسمُ عالم. وهذا قول أكثر الأصحاب وقول جمهور الشافعية.

والثاني: أن ذلك يجوز فيما يتعلَّق بنفسه.

والقول الثالث: أنه يجوز ذلك عند الحاجة وعدم العالم المجتهد. وهو أصحُّ الأقوال، وعليه العمل. ٩٥، بتصرف.

١٠٤- وقال علي بن شَقيق: قيل لابن المبارك: متى يفتي الرجل؟ قال: إذا كان عالمًا بالأثر، بصيرًا بالرأي. ٩٨.

١٠٥-وقيل ليحيى بن أكثم: متى تحبُّ للرجل أن يفتي؟ فقال: إذا كان بصيرًا بالرأي، بصيرًا بالأثر.

قلت: يريدان بالرأي القياس الصحيح والمعاني والعلل الصحيحة التي علَّق الشارع بها الأحكام، وجعَلهَا مؤثِّرةً فيها طردًا وعكسًا. ٩٨.

١٠٦- قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]. فقسَّم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى؛ فكلُّ ما لم يأتِ به الرسولُ فهو من الهوى. ٩٨.

١٠٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]:

أهل الإيمان لا يُخرجهم تنازعُهم في بعض مسائل الأحكام عن حقيقة الإيمان، إذا ردُّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شرَطه الله عليهم بقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [النساء: ٥٩]. ولا ريب أنَّ الحكم المعلَّق على شرط ينتفي عند انتفائه. ٩٩، وما بعدها، بتصرف.

١٠٨- قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق الشرط تعُمُّ كلَّ ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين: دِقَّه وجِلَّه، جليَّه وخفيَّه. ١٠٢.

١٠٩-وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]. فإذا كان رفعُ أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديمُ آرائهم وعقولهم

وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به، ورفعُها عليه؟ أوَ ليس هذا أولى أن يكون مُحبِطًا لأعمالهم؟ ١٠٦.

١١٠- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]. فإذا جعَل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه. وإذنُه يُعرَف بدلالة ما جاء به على أنّه أذِن فيه. ١٠٦.

١١١- قال حمّاد بن سلمة: ثنا أيوب السَّختياني، عن أبي قِلابة، عن يزيد بن أبي عمرة، عن معاذ بن جبل قال: تكون فِتَنٌ، فيكثُر فيها المال. ويُفتَح القرآنُ حتَّى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن. فيقرؤه الرجلُ فلا يُتَّبع. فيقول: والله لأقرأنَّه علانيةً، فيقرؤه علانيةً فلا يُتَّبع. فيتَّخذ مسجدًا، ويبتدع كلامًا ليسَ من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ. فإيَّاكم وإيَّاه، فإنه بدعة وضلالة. قاله معاذ ثلاث مرات. ١٢٥.

١١٢- قال تعالى في المضطرِّ إلى الطعام المحرَّم: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣] فالباغي: الذي يبتغي الميتةَ مع قدرته على التوصُّل إلى الذَّكيّ! والعادي: الذي يتعدَّى قدرَ الحاجة بأكلها. ١٤١.

١١٣- وكلُّ من له مُسكةٌ من عقل يعلم أنَّ فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل. وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكُه، ولا في أمَّةٍ إلا وفسد أمرُها أتمَّ فساد. فلا إلهَ إلا الله، كم نُفِي بهذه الآراء من حقٍّ، وأُثبِتَ بها من باطل، وأُمِيت بها من هُدًى،

وأُحْيِيَ بها من ضلالة! وكم هُدِم بها من معقِلٍ للإيمان، وعُمِر بها من دَيْرٍ للشيطان! وأكثرُ أصحاب الجحيم هم أهلُ هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل، بل هم شرٌّ من الحُمُر، وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ١٠]. ١٤٤.

١١٤- وقال الأوزاعي: عن عَبْدة بن أبي لُبابة: وددتُ أنَّ حظِّي من أهل هذا الزمان أن لا أسألهم عن شيء ولا يسألوني. يتكاثرون بالمسائل، كما يتكاثر أهلُ الدراهم بالدراهم. ١٤٨.

١١٥- ولبعض أهل العلم:

العلم: قال اللهُ قال رسولُه ... قال الصحابةُ، ليس خُلْفٌ فيهِ

ما العلمُ نصبَك لِلخِلاف سفاهةً ... بينَ النصوص وبينَ رأيِ سفيهِ

كلَّا ولا نصبَ الخلافِ جهالةً ... بينَ الرسول وبينَ رأيِ فقيهِ

كلَّا ولا ردَّ النصوصِ تعمُّدًا ... حذَرًا من التجسيم والتشبيهِ

حاشا النصوصَ من الذي رُمِيَتْ به ... مِن فرقة التعطيل والتمويه. ١٧٢.

١١٦- صحّةُ الفهم وحسنُ القصد من أعظم نِعَم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعْطِيَ عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضلَ ولا أجلَّ منهما. بل هما ساقا الإسلام، فقيامه عليهما. وبهما بايَنَ العبدُ طريقَ المغضوب عليهم الذين فسد قصدُهم، وطريقَ الضالين الذين فسدت فهومُهم، ويصير من المنعَم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهلُ الصراط المستقيم الذين أُمِرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطَهم في كلِّ صلاة. ١٨٨.

١١٧- وصحّةُ الفهم نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، يميِّز به بين الصحيح والفاسد،

والحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والغيّ والرشاد. ويُمِدُّه حسنُ القصد، وتحرِّي الحق، وتقوى الربِّ في السرِّ والعلانية. ويقطع مادَّتَه اتباعُ الهوى، وإيثارُ الدنيا، وطلبُ محمَدة الخلق، وتركُ التقوى. ١٨٩.

١١٨- فالعالِمُ مَن يتوصَّل بمعرفة الواقع والتفقُّه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما توصَّل شاهدُ يوسف بشَقِّ القميص من دُبُرٍ إلى معرفة براءته وصدقه. ١٩٠.

١١٩- ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩]:

والمقصود: أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخَلاق وبين الخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلُّم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق. فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى. وهذان هما أصلُ كلِّ شرٍّ وفتنة وبلاء، وبهما كُذِّبت الرسل، وعُصي الرَّبُّ، ودُخِلت النار، وحَلَّت العقوبات. فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحبَ هوًى فتَنَه هواه، وصاحبَ دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنةَ العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتون.

فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحقَّ ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالِّين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد ﷺ: عن الدنيا ما كان أصبره! وبالماضين ما كان أشبهه! أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها. ٢٨٦.

١٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:

٢٤]. فبالصبر تُترَك الشهوات، وباليقين تُدفَع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥﴾ [ص: ٤٥]. ٢٨٨.

١٢١-وفي بعض المراسيل: إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات. ٢٨٨.

١٢٢- فقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة. وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المتبدعة وأهل الأهواء والخصومات. وكثيرًا ما يجتمعان، فقلَّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله. ٢٨٩.

[١٧] (تحفة المودود بأحكام المولود)

١- ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ :

وبدأ ـ سبحانه ـ بذِكْرِ الإناثِ. فقيل: جبرًا لهنَّ، لأَجْلِ استثقالِ الوالِدَيْنِ لِمكَانِهنَّ.

وقيل ـ وهو أحسن ـ: إنما قدَّمَهُنَّ، لأنَّ سياقَ الكلامِ أنه فاعلٌ ما يشاءُ لا ما يشاءُ الأبَوانِ، فإنَّ الأبَوَيْنِ لا يريدانِ إلا الذُّكورَ غالبًا، وهو ـــ سبحانه ـــ قد أخبرَ أنه يخلُق ما يشاءُ، فبدأ بذِكْرِ الصِّنفِ الذي يشاءُ، ولا يُريدُه الأبَوَانِ.

وعندي وجهٌ آخرُ: وهو أنه ـ سبحانه ـ قدَّم ما كانت تؤخِّرُه الجاهليَّةُ من أمْرِ البناتِ حتى كانُوا يَئِدُونَهُنَّ. أي: هذا النوعُ المؤخَّر الحقيرُ عندَكُم مقدَّمٌ عندي في الذِّكْرِ. ٢٤.

٢- ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾:

وتأمَّل كيف نَكَّر ـ سبحانه ـ الإناثَ، وعرَّف الذكورَ، فجبر نَقْصَ الأُنُوثةِ بالتَّقديمِ، وجَبَرَ نَقْصَ التَّأخيرِ بالتعريفِ، فإنَّ التعريف تنويهٌ، كأنَّه قال: ويَهَبُ لمَنْ يشاءُ الفُرْسَانَ الأعلامَ المذكُورِينَ الذين لا يَخْفَون عليكم!

ثم لمَّا ذكَر الصِّنْفَيْنِ معًا قدَّمَ الذُّكُورَ إعطاءً لكلٍّ من الجنسينِ حقَّه من التقديم والتأخير. والله أعلم بما أراد من ذلك. ٢٥.

٣- التسخُّطَ بالإناثِ من أخلاقِ الجاهليَّة الَّذين ذمَّهم اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل/ ٥٨ ـ ٥٩]. ٢٥.

٤- وقد قال الله تعالى في حقِّ النساء: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء/ ١٩].

٥- وهكذا البنات أيضًا: قد يكون للعبد فيهنَّ خيرٌ في الدنيا والآخرة، ويكفي في قُبْح كَرَاهَتِهنَّ أن يَكْرَهَ ما رَضِيَهُ اللهُ وأعطاهُ عَبْدَهُ.

٦- وقال صالحُ بنُ أحمدَ: كان أبي إذا وُلِدَ لهُ ابنةٌ يقولُ: الأنْبِيَاءُ كانُوا آباءَ بناتٍ. ويقولُ: قد جاءَ في البناتِ ما قد عَلِمْتَ. ٣١.

٧- وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا﴾ [آل عمران/ ٣٩].

ولما كانت البشارة تَسُرُّ العَبْدَ وتُفْرِحُه، استُحِبَّ للمُسْلِم أن يبادر إلى مَسَرَّة أخيه وإعلامِه بما يُفْرِحُه. ٣٣.

٨- من أسرار التأذين في أذن المولود اليمنى والإقامة في اليسرى:

أ- أن يكون أولَ ما يقرعُ سَمْعَ الإنسانِ كلماتُه المتضمِّنةُ لكبرياء الربِّ وعظمتِهِ، والشهادةُ التي أوَّلُ ما يَدخلُ بها في الإسلامِ، فكان ذلك كالتَّلقينِ لهُ شعارَ الإسلامِ عند دخولِه إلى الدُّنيا، كما يُلَقَّنُ كلمةَ التوحيدِ عند خُرُوجِهِ منها.

ب- هروبُ الشَّيطانِ من كلماتِ الأذان.

ج- أن تكونَ دعوتُه إلى اللهِ وإلى دِيْنِهِ الإسلامِ وإلى عبادتهِ سَابِقَةً على دعوةِ الشَّيطانِ، كما كانت فطرةُ الله التي فُطِر عليها سابقةً على تغيير الشيطانِ لها، ونَقْلِهِ عنها، ولغيرِ ذلك من الحِكَمِ. والله أعلم. ٣٧، بتصرف.

٩- أنكر أصحاب الرأي أن تكون العقيقة سنة... فأما أهلُ الحديثِ قاطبةً،

وفقهاؤهُم، وجمهورُ أهلِ العِلْمِ، فقالوا: هي من سُنَّةِ رسولِ اللهﷺ.

واحتجُّوا على ذلك بما رواه البُخَاريّ في "صحيحه" عن سَلْمانَ بنِ عامر الضَّبّيِّ، قال: قال رسولُ اللهﷺ: «مع الغُلامِ عَقِيقَتُهُ، فأهْرِيقُوا عنهُ دَمًا، وأَمِيطُوا عنهُ الأذَى». ٤٦، ٤٩، بتصرف.

١٠- بين الاسمِ والمُسمَّى علاقةً ورابطةً تُنَاسِبُه وقلَّما يتخلَّف ذلك؛ فالألفاظُ قَوَالِبُ المعاني، والأسماءُ قَوالبُ المسمَّيات.

وقَلَّ إنْ أَبْصَـرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَـبٍ إلَّا ومَعْنَـاهُ، إنْ فَكَّـرْتَ، في لَقَبِـهْ

فقُبحُ الاسمِ عنوانُ قُبحِ المسمَّى، كما أنَّ قُبْح الوجه عنوان قبح الباطن. ٦٧.

١١- فلما كان اسم العَقِيقة بينه وبين العُقُوق تناسب وتشابه، كرههﷺ وقال: "إن الله لا يحب العُقُوق" ثم قال: "من وُلِدَ له مولودٌ فأحبَّ أن يَنْسُك عنه فَلْيفعلْ". ٧١.

١٢- والتحقيقُ في الموضعين: كراهةُ هَجْرِ الاسْمِ المشروعِ من العِشاءِ والنَّسِيكةِ، والاستبدالِ به اسمَ العَقيقةِ والعتَمَةِ. ٧٣.

١٣- العقيقة اختلفوا في حكمها، والظاهرية يرونها واجبة فرضا، وكان مالك يقول: هي سنَّةٌ واجبةٌ يجبُ العملُ بها. وهو قَولُ الشّافِعِيّ، وأَحْمَدَ بنِ حَنْبَل، وإسْحَاق، وأبي ثَوْر، والطَّبريِّ". هذا كلام أبي عمر.

قلت: والسنَّةُ الواجبةُ ـ عند أصحاب مالك ـ ما تأكَّد استحبابُه وكُرِهَ تَرْكُهُ، فيسمُّونه واجبًا وجوبَ السُّنَنِ وقد حكى أصحاب أَحمدَ عنه في وجوبها روايتين، وليس عنه نصٌّ صريحٌ في الوجوب. ٧٤، بتصرف.

١٤- قلَّ من يتركُ أبواه العقيقةَ عنه إلا وهو في تخبيطٍ من الشيطانِ. ٩١.

١٥- الصوابُ أنَّ الذكر والأنثى يشتركانِ في مشروعية العقيقة وإن تَفاضَلا في قَدْرِهَا. ٩١.

١٦- وأما أهلُ الكتابِ، فليست العقيقةُ عندهم للأنثى، وإنَّما هي للذَّكَرِ خاصَّة. وقد ذهبَ إلى ذلك بعضُ السَّلَفِ.

قال أبو بكر ابنُ المُنْذِر: "وفي هذا الباب قولٌ ثالثٌ قاله الحَسَنُ وقَتَادَةُ: كانا لا يريان عن الجارِيَة عَقِيقةً". ٩١.

١٧- الذبحُ في موضعهِ أفضلَ من الصَّدقة بثمنه ولو زادَ، كالهدايا والأضَاحِي، فإنَّ نَفْسَ الذَّبح وإراقةِ الدم مقصودٌ، فإنه عبادةٌ مقرونةٌ بالصلاة، كما قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر/٢]. ٩٢.

١٨- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام/ ١٦٢].

ففي كلّ مِلَّةٍ صلاةٌ ونَسِيكَةٌ لا يقوم غيرُهما مقامَهما، ولهذا لو تصدَّق عن دمِ المُتْعَةِ والقِرَان بأضعافِ أضعاف القيمةِ لم يقُمْ مقامَهُ، وكذلك الأضحيةُ، والله أعلم. ٩٢.

١٩- كان أهل الجاهلية يلطخون رأس المولود بدم العقيقة تبركا به، فعوض أهل الإسلام بما هو أنفع للأبَوَينِ وللمولودِ وللمساكين، وهو حَلْقُ رأسِ الطفل والتصدُّقُ بِزِنَةِ شعرِهِ ذهبًا أو فضةً. وسنَّ لهم أن يلطِّخوا الرأس بالزّعْفَران الطيِّبِ الرائحةِ، الحَسَنِ اللَّونِ، بدلاً عن الدَّم الخبيثِ الرائحة، النجسِ العينِ، والزَّعفرانُ من أطيبِ الطِّيب وألطفِه وأحسنِه لونًا. وكان حَلْقُ رأسه إماطةَ الأذى عنه، وإزالةَ الشَّعْرِ الضعيفِ، ليخلفه شَعْرٌ أقوى وأمْكَنُ منه، وأنفعُ للرأس، ومع ما فيه من التَّخفيف عن الصبيِّ، وفَتْحِ مَسَام الرّأسِ لِيَخْرجَ البخارُ منها بيُسرٍ وسهولةٍ، وفي ذلك تقويةُ بصرِه وشمِّه وسَمْعِهِ. ١٠١، بتصرف.

٢٠- وشُرِعَ في المذبوح عن الذَّكَرِ أن يكون شاتين، إظهارًا لشرفه، وإبانة لمحلِّه

الذي فضَّله الله به على الأُنثى، كما فضَّله في الميراث والدِّيَة والشَّهادةِ. ١٠١.

٢١- وقد اختُلِفَ في معنى هذا الحَبْسِ والارْتِهَانِ:

٢٢- اختلفوا في معنى الرهن في الحديث: «كل غلام مرتهن بعقيقته»:

فقالت طائفةٌ: هو محبوسٌ مرتهنٌ عن الشَّفاعة لوالدَيه، كما قال عطاء، وتبعه عليه الإمامُ أَحمد وفيه نظرٌ لا يخفى، فإنَّ شفاعةَ الولدِ للوالد ليستْ بأولى من العكس، وكونُه والدًا له، ليس بجهةٍ للشَّفاعةِ فيه، وكذا سائرُ القَراباتِ والأرْحَام، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [لقمان/ ٣٣]. ١٠٢.

٢٣- فلا يشفع أحدٌ لأحدٍ يومَ القيامةِ، إلَّا مِنْ بعد أن يأذنَ اللهُ لمن يشاءُ ويَرْضَى، وإذْنُه ـ سبحانه ـ في الشَّفاعةِ موقوفٌ على عَمَلِ المشفُوعِ له مِنْ تَوْحيدِه وإخلاصِه. ١٠٣.

٢٤- ومرتبةُ الشَّافع: مِن قُربِه عند الله، ومنزلتِه، ليست مستحقَّةً بقرابةٍ ولا بُنُوَّةٍ ولا أُبوَّة، وقد قال سيِّدُ الشُّفَعَاءِ وأَوْجَهُهُمْ عند الله لعمِّه وعَمَّته وابنتِه: "لا أُغنِي عنكم مِنَ الله شيئًا". ١٠٣.

٢٥- سنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ أحقُّ وأَوْلَى أن تُتَّبَعَ، وهو الذي شرعَ الاشتراكَ في الهدايا، وشرعَ في العَقِيقَةِ عن الغُلام دَمَينِ مُسْتقِلَّينِ، لا يقوم مَقامَهُما جَزُورٌ ولا بَقَرةٌ. والله أعلم. ١١٩.

٢٦- والقزع أربعة أنواع:

(أحدها): أن يحلق من رأسه مواضع من ها هنا وها هنا. مأخوذ من تَقَزُّعِ السَّحاب وهو تَقَطُّعُه.

(الثاني): أن يحلق وسطه ويترك جوانبه، كما يفعله شَمَامِسَةُ النَّصارى.

(الثالث): أن يحلق جوانبه ويترك وسطه، كما يفعله كثير من الأوباش والسفل.

(الرابع): أن يحلق مقدّمه ويترك مؤخَّره، وهذا كلُّه من القَزَع. والله أعلم. ١٤٧.

٢٧- فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أجرى العادةَ التي أوجبتْها حكمتُه، بأنَّ الشمسَ إنَّما تُكسف ليالي السّرار، كما أن القمر إنما يكسف في الإبْدَار، كما أجرى العادةَ بطلوعِ الهلال أوَّلَ الشهرِ وإبْدَارِهِ في وَسْطِهِ ومُحاقِهِ في آخرِهِ. ١٦٠.

٢٨- وقد اختلف الفقهاء في أحب الأسماء إلى الله، فقال الجمهور: أحبها إليه عبد الله وعبد الرَّحمن. ١٦٤.

٢٩- وكذلك تحرم التسمية بسيِّد الناس وسيِّد الكل، كما يحرم بسيِّد ولد آدم، فإن هذا ليس لأحدٍ إلا لرسول الله ﷺ وحده، فهو سيِّدُ ولدِ آدمَ، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يُطْلِق على غيرِهِ ذلك. ١٦٨.

٣٠- من الأسماء المكروهة:

التسمية بأسماء الشياطين، وأسماء الفراعنة والجبابرة، وأسماء الملائكة، والأسماء التي لها معان تكرهها النفوس. ١٧١، وما بعدها، بتصرف.

٣١- من الأسماء المكروهة: التسمي بنافع، أو يسار، أو رباح، أو نجيح، أو أفلح، أو برة؛ لدخولها في باب المنطق المكروه؛ لأنه يقال: أعندك نجيح، فيقول: لا، فيتطير به، ولما فيها من تزكية النفس. ١٦٨، بتصرف.

٣٢- وقد كان النبيّ ﷺ يشتدُّ عليه الاسم القبيح ويكرهه جدًّا من الأشخاص والأماكن والقبائل والجبال. ١٧٥.

٣٣- ومَنْ تأمَّل السنَّةَ وجدَ معانيَ الأسماءِ مرتبطةً بها، حتى كأنَّ مَعانِيَهَا مأخوذةٌ

منها، وكأنَّ الأسماءَ مشتقَّةٌ من معانِيْهَا، فتأمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ: "أسلمُ سالمَها اللهُ، وغِفَارٌ غفرَ اللهُ لها، وعصيَّةُ عصتِ الله". ١٧٦.

٣٤- وإذا أردتَ أن تعرفَ تأثيرَ الأسماءِ في مسمَّياتِها فتأمَّلْ حديثَ سعيدِ بنِ المسيِّب، عن أبيه، عن جدِّه، قال: أتيتُ إلى النبيِّ ﷺ فقال: «ما اسمُك؟ » قلتُ: حَزْنٌ، فقال: «أنت سهلٌ». قال: لا أغيِّر اسمًا سمَّانِيهُ أَبِي. قال ابن المسيِّب: فما زالت تلك الحُزُونَة فينا بعدُ. رواه البُخَاريّ في "صحيحه".

والحزُونَةُ: الغِلْظَةُ، ومنه أرضٌ حزنة، وأرض سهلة. ١٧٧.

٣٥- فَحِفْظُ المنطقِ وتخيُّر الأسماء من توفيق الله للعبدِ. ١٧٩.

٣٦- وكان أبو بكر الصدِّيق ﷺ يتمثَّلُ بهذا البيتِ:

احْذَرْ لِسَانَكَ أنْ يَقُولَ فَتُبْتَلَى ... إنَّ البَلَاء مُوَكَّلٌ بِالمَنْطقِ

ولما نزل الحُسَيْن وأصحابه بكَرْبَلَاء، سألَ عنِ اسْمِهَا؟ فقيل: كَرْبَلَاء، فقال: "كَرْبٌ وبَلاءٌ". ١٨٠.

٣٧- ومما يُمنَع تسميةُ الإنسانِ به: أسماءُ الربِّ ﷻ فلا يجوز التسميةُ بالأحَدِ ولا بالصَّمَدِ، ولا بالخَالقِ ولا بالرَّازق، وكذلك سائِرُ الأسماءِ المختصَّةِ بالربِّ تبارك وتعالى.

ولا تجوز تسميةُ الملوكِ بالقاهر والظاهر، كما لا يجوز تسميتُهم بالجبَّار والمتكبِّر، والأوَّلِ والآخرِ، والباطنِ، وعلَّام الغُيوبِ. ١٨٢.

٣٨- لا يجوز لأحدٍ أن يتسمَّى بأسماء الله المختصَّةِ به.

وأمَّا الأسماءُ التي تُطلَق عليه وعلى غيره: كالسَّميع، والبَصير، والرَّؤوفِ، والرَّحيمِ، فيجوز أن يُخبر بمعانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمَّى بها على الإطلاق

بحيث يُطلَق عليه كما يُطلق على الربِّ تعالى. ١٨٤.

٣٩- ومما يُمنع منه التسميةُ بأسماءِ القرآنِ وسُوَرِهِ، مثل: طَهَ، ويس، وحَم، وقد نصَّ مالكٌ على كراهة التسمية بـ: "يس". ذكره السُّهَيْليُّ. ١٨٤.

٤٠- وأمَّا ما يذكره العوامُّ: أنَّ يس وطه من أسماء النبيّ ﷺ، فغيرُ صحيحٍ، ليس ذلك في حديثٍ صحيحٍ، ولا حَسَنٍ، ولا مُرْسَلٍ، ولا أثَرٍ عن صاحبٍ، وإنَّما هذه الحروف مثل: الم و حم و الر، ونحوها. ١٨٤.

٤١- ويكره تسميتُها: "يثرب" كراهةً شديدة، وإنما حكى الله تسميتها "يثرب" عن المنافقين، فقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب/ ١٢ ـ ١٣]. ١٩٣.

٤٢- وكان أَنَسٌ يكنَّى قبل أن يُولَدَ له بأبي حَمْزَة، وأبو هريرة كان يكنَّى بذلك، ولم يكن له ولدٌ إذْ ذاك.

وأَذِنَ النبيُّ ﷺ لعَائِشَةَ أن تكنَّى بأمِّ عبدِ الله، وهو عبدُ الله بنُ الزُّبَير، وهو ابنُ أختِها أسماء بنتِ أبي بكرٍ. هذا هو الصحيح. ١٩٤.

٤٣- ويجوز تكنيةُ الرَّجل الذي له أولادٌ بغير أولادِه، ولم يكن لأبي بكرٍ ابنٌ اسمُه بكرٌ، ولا لعمرَ ابنٌ اسمه حَفْصٌ، ولا لأبي ذرٍّ ابنٌ اسمُه ذَرٌّ، ولا لخالدٍ ابنٌ اسمُه سليمانُ، وكان يكنَّى أبا سليمان، وكذلك أبو سلمةَ. وهو أكثر من أن يُحصى. فلا يلزمُ من جواز التكنيةِ أن يكونَ له ولدٌ، ولا أن يكنَّى باسمِ ذلكَ الوَلدِ، والله أعلم. ١٩٥.

٤٤- والتكنيةُ نوعُ تكبيرٍ وتفخيمٍ للمكنَّى، وإكرامٌ له، كما قال:

أَكْنِيــهِ حِــيْنَ أُنَادِيــهِ لِأُكْرِمَــهُ وَلَا أُلَقِّبُهُ، والسَّـوْأَةُ اللَّقَـبُ. ١٩٦.

٤٥- التَّسميةَ حقٌّ للأبِ، لا للأمِّ

هذا مما لا نزاع فيه بين النَّاس، وإن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد، فهي للأب. والأحاديثُ المتقدمةُ كلُّها تدلُّ على هذا.

وهذا كما أنه يُدْعَى لأبيه لا لأمه، فيقال: فلانُ ابنُ فلانٍ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب /٥]. ١٩٧.

٤٦- والولدُ يتْبَعُ أمَّه في الحريَّة والرِّقِّ، ويتبع أباه في النَّسَبِ، والتسميةُ تعريفٌ للنَّسَب والمنْسُوبِ، ويتبع في الدِّين خيرَ أبَوَيهِ دينًا. فالتعريفُ كالتعليمِ والعَقيقةِ، وذلك إلى الأب، لا إلى الأم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «وُلد ليَ اللَّيلةَ مَولُودٌ فسمَّيتُه باسمِ أبي إبراهِيمَ». وتسميةُ الرَّجُلِ ابنَهُ كتَسْمِيَةِ غُلامِهِ. ١٩٧.

٤٧- اللَّقبُ غالبُ استعمالِه في الذمّ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات/ ١١].

ولا خلاف في تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه، سواءٌ كان فيه أو لم يكن، وأمَّا إذا عُرِف بذلك، واشتهر به كالأَعْمَشِ، والأَشْتَرِ، والأَصَمِّ، والأَعْرَجِ، فقد اضطرد استعمالُه على ألسنة أهل العِلم قديمًا وحديثًا، وسهَّل فيه الإمام أحمدُ. ١٩٨، بتصرف.

٤٨- وإمَّا أن لا يُفْهِمَ مَدْحًا ولا ذمًّا، فإن صُدِّر بأبٍ أو أمٍّ، فهو الكُنْيَةُ، كأبي فلان وأم فلان، وإن لم يصدَّرْ بذلك، فهو الاسمُ، كزيدٍ، وعَمْرو. وهذا هو الذي كانت تعرفُه العرب، وعليه مدارُ مُخاطباتِهم.

وأمّا فلانُ الدِّين، وعِزُّ الدين، وعِزُّ الدَّولة، وبهاءُ الدَّولة، فإنَّهم لم يكونوا يعرفونَ ذلك، وإنَّما أَتَى هذا من قِبَلِ العَجَمِ. ١٩٩.

٤٩- فقلَّ أنْ تَرى اسمًا قبيحًا، إلا وهو على مسمًّى قبيحٍ، كما قيل:

وقَلَّ أنْ أَبْصَـرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ إلَّا وَمَعْنَـاهُ إنْ فَكَّـرْتَ فِي لَقَبِـهْ

والله ـ سبحانه ـ بحكمته في قضائه وقدَره يُلْهِمُ النفوسَ أن تضعَ الأسماءَ على حسب مُسمَّياتها، لِتُناسِبَ حكمتَه تعالى بين اللفظ ومعناه، كما تناسبتْ بين الأسباب ومسبَّباتها. ٢١٢.

٥٠- ولما أسلم وَحْشِيٌّ ـ قاتِلُ حَمزَة ـ وقف بين يدي النبيّ ﷺ فَكَرِهَ اسْمَه وفِعْلَهُ وقال: "غيِّبْ وَجْهَكَ عنِّي". ٢١٢.

٥١- وبالجملة: فالأخلاقُ والأفعالُ القبيحةُ تستدعي أسماء تُناسبُها، وأضدادُها تستدعي أسماء تناسبها، وكما أنَّ ذلك ثابت في أسماء الأوصاف، فهو كذلك في أسماء الأعلام. ٢١٣.

٥٢- والفطرةُ فِطْرَتَانِ: فطرةٌ تتعلَّقُ بالقلب، وهي معرفةُ الله ومحبتُه وإيثارُه على ما سواه، وفطرةٌ عمليَّةٌ، وهي هذه الخصالُ.

فالأولى تزكِّي الروحَ وتطهِّر القلبَ، والثانية تطهِّر البدنَ، وكلٌّ منهما تمدُّ الأخْرَى وتقوِّيها، وكان رأسُ فطرةِ البدنِ: الختان. ٢٣٤.

٥٣- وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة، وأخْذِ الفضلات المستقذَرةِ التي يألفها الشيطان، ويجاورها من بني آدم، وله بالغُرْلَةِ اتصالٌ واختصاص. ٢٣٤.

٥٤- وقال غير واحدٍ من السَّلَف: من صلَّى وحجَّ واخْتَتَنَ فهو حنيفٌ، فالحجُّ والختانُ: شعارُ الحنيفيَّة، وهي فطرةُ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عليها.

قال الرَّاعي يخاطبُ أبا بكرٍ رضي الله عنه:

أَخَلِيْفَـةَ الـرَّحْمَنِ إنَّـا مَعْشَـرٌ حُنَفَـاءُ، نَسْـجُدُ بُكْـرَةً وَأَصِـيْلَا

عَـــرَبٌ، نَـــرَى لله في أمْوالِنَـــا حَـقَّ الـزَّكَاةِ مُـنَزَّلًا تَـنْزِيلًا. ٢٣٤.

٥٥- احتج الموجبون للختان بخمسة عشر دليلا ذكرها ابن القيم في كتابه [تحفة المودود] ص٢٣٧.

٥٦- ومن أظهر ما يفرّق بين عُبَّاد الصلبان وعُبَّاد الرَّحمن: الختانُ، وعليه استمرَّ عمل الحنفاءِ من عهد إمامِهم إبراهيمَ إلى عهد خاتَمِ الأنبياء، فبُعِثَ بتكميل الحنيفية وتقريرها، لا بتحويلها وتغييرها. ٢٥٣.

٥٧- فالسُّنَّةُ: هي الطريقةُ المتَّبَعَةُ وجوبًا واستحبابًا، لقولهﷺ: "مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي". وقوله: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ مِنْ بَعْدِي". ٢٥٥.

٥٨- وقال ابن عبَّاس: من خالف السنة كَفرَ. ٢٥٦.

٥٩- وتخصيصُ السنَّةِ بما يجوز تَرْكُه اصطلاحٌ حادثٌ، وإلا فالسنَّة ما سَنَّه رسولُ الله ﷺ لأمته من واجبٍ ومستحبٍ. فالسنَّةُ: هي الطريقةُ، وهي الشِّرْعَةُ، والمِنْهَاجُ، والسَّبيلُ. ٢٥٦.

٦٠- والمقصود أنَّ صبغة الله هي الحنيفية التي صبغتِ القلوبَ بمعرفتِه ومحبَّتِهِ، والإخلاصِ له، وعبادتِهِ وحدَه لا شريكَ لهُ، وصَبغتِ الأبدانَ بِخِصَالِ الفِطْرةِ من الختانِ، والاسْتِحْدَادِ، وقَصِّ الشَّاربِ، وتقليمِ الأظفارِ، ونَتْفِ الإبْطِ، والمضْمَضَةِ، والاسْتِنْشَاقِ، والسِّواكِ، والاستنجاءِ، فظهرتْ فطرةُ الله على قلوبِ الحُنَفَاءِ وأَبْدَانِهم. ٢٧٢.

٦١- المسقطات لوجوب الختان أمور:

أحدها: أن يولد الرجل ولا قلفة له.

الثاني: ضعف المولود عن احتماله.

الثالث: أن يسلم الرجل كبيراً، ويخاف على نفسه، فهذا يسقط عند الجمهور.

الرابع: الموت باتفاق الأمة. ٢٩٠.

٦٢- أمَّا أُذُن البنتِ، فيجوز ثَقْبُها للزِّينة. نصَّ عليه الإمام أَحْمَد، ونصَّ على كراهته في حقِّ الصبيِّ. ٣٠٨.

٦٣- والقياس في مقابلة السنَّة مردودٌ. ٣١٩.

٦٤- وقد فُرِّق بين الغُلامِ والجَارِيَة في المعنى بعدَّةِ فُرُوقٍ:

(أحدها): أنّ بول الغُلام يتطاير وينتشر هاهنا وهاهنا، فيشقُّ غَسْلُه، وبولُ الجارِيةِ يقع في موضعٍ واحد فلا يشقُّ غَسْله.

(الثاني): أنّ بَولَ الجَارِيَة أنتنُ من بول الغُلام، لأنَّ حرارةَ الذَّكَرِ أَقوى، وهي تؤثِّر في إنضاج البول وتخفيفِ رائحتِهِ.

(الثالث): أنَّ حَمْلَ الغُلام أكثر من حمْل الجَارِيَة لتعلُّق القلوب به، كما تدلُّ عليه المشاهدة. ٣١٩.

٦٥- ولأبي داود: بينما نحن ننتظرُ رسولَ الله ﷺ في الظُّهر أو العصر، وقد دعَاه بلالٌ إلى الصَّلاة، إذْ خرج إلينا، وأمامةُ بنتُ أبي العَاصِ، بنتُ بنتِه، على عُنُقِهِ، فقام رسولُ الله ﷺ في مُصَلَّاهُ، وقُمْنا خَلْفَهُ، وهي في مَكانِهَا الذي هي فيه، فكبَّر، فكبَّرْنَا، حتى إذا أراد رسولُ الله ﷺ أنْ يركعَ أخذَها فوضَعَها، ثمَّ ركعَ وسجَدَ حتى إذا فرغَ من سُجودِهِ ثمَّ قامَ، أخذَها فردَّها في مكانها، فما زال رسولُ الله ﷺ يصنعُ بها ذلك في كلِّ رَكعةٍ، حتى فرغَ من صلاتِه ﷺ.

وهذا صريحٌ أنه كان في الفريضة، وفيه:

أ- ردٌّ على أهل الوَسْوَاسِ.

ب- وفيه أنَّ العمل المتفرِّقَ في الصلاة لا يُبْطِلُها إذا كان للحاجة.

ج- وفيه الرحمةُ بالأطفال.

د- وفيه تعليمُ التَّواضُعِ ومكارمِ الأخلاقِ.

هـ- وفيه أنَّ مسَّ الصغيرةِ لا ينقضُ الوضوءَ. ٣٢٤.

٦٦- قال سفيان الثَوْريُّ: ينبغي للرجل أن يُكرِه ولدَه على طلبِ الحديثِ؛ فإنَّه مسؤولٌ عنه. ٣٣١.

٦٧- وقال سفيان الثوري: إنَّ هذا الحديث عزٌّ، من أرادَ بهِ الدُّنيا وَجَدَها، ومن أرادَ به الآخرةَ وَجَدَهَا. ٣٣١.

٦٨- وقال عبد الله بن عمر: أدِّب ابنَك؛ فإنَّك مسؤولٌ عنه، ماذا أدَّبتَهُ؟ وماذا علَّمتَه؟ وهو مسؤولٌ عن بِرِّكَ وطَوَاعِيَتِهِ لكَ. ٣٣١.

٦٩- وكان السَّلَفُ يستحبُّون أن يعدلُوا بين الأولاد في القُبْلةِ. ٣٣٦.

٧٠- وقال بعض أهلِ العِلْمِ: إنَّ الله سبحانه يسألُ الوالدَ عن وَلَدِهِ يومَ القيامةِ قبلَ أنْ يسألَ الولدَ عن وَالِدِهِ، فإنَّه كما أنَّ للأبِ على ابْنِه حقًّا، فللابنِ على أبيهِ حقٌّ؛ فكما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت/ ٨]. قال تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم/ ٦]. قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: علِّمُوهُمْ وأدِّبُوهُمْ. ٣٣٦.

٧١- وقال النبيّ ﷺ: «اعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ»، فوصيَّةُ الله للآباءِ بأَوْلَادِهِمْ سَابِقةٌ على وصيَّة الأولادِ بآبَائِهِمْ. ٣٣٧.

٧٢- وأكثرُ الأولادِ إنَّما جاء فَسَادُهُمْ مِنْ قِبَلِ الآباءِ وإهمالِهم لهم، وتَرْكِ تَعْليمِهم فرائضَ الدِّين وسُنَنِهُ، فأضاعُوهُمْ صغارًا، فلم يَنْتَفِعُوا بأنْفُسِهِمْ، ولم يَنْفَعُوا

آباءَهُمْ كِبَارًا، كما عاتبَ بعضُهُم وَلَدَهُ على العُقُوقِ، فقال: يا أَبَتِ إنَّك عَقَقْتَنِي صغيرًا، فعقَقْتُك كبيرًا، وأَضَعْتَنِي وليدًا، فأضعتُك شيخًا كبيرًا! ٣٣٧.

٧٣- يَنْبَغِي أنْ يكونَ رضاعُ المولودِ مِن غير أمِّه بعد وضْعِه يومينِ أو ثلاثةً، وهو الأجْوَدُ، لِما في لَبَنِهَا ذلكَ الوقتِ من الغِلظ والأخْلاطِ، بخلافِ لَبَنِ مَنْ قد استقلَّت على الرّضاع. وكلُّ العرب تعتني بذلك حتى تَسْتَرضِعَ أولادَها عند نساءِ البَوَادِي، كما اسْتُرْضِعَ النبيُّ ﷺ في بَني سَعْدٍ. ٣٣٨.

٧٤- وينبغي أن يُمنع مِنْ حَمْلِ الأطفال، والطوافِ بهم حتى يأتيَ عليهم ثلاثةُ أشهرٍ فصاعدًا؛ لقُرْب عَهْدِهِمْ ببطونِ الأمَّهاتِ، وضَعْفِ أبْدَانِهِمْ. ٣٣٨، بتصرف.

٧٥- وينبغي أن يُقتصرَ بالأطفال على اللَّبَنِ وحدَه إلى نباتِ أَسنانِهم؛ لضَعْفِ مَعِدَتِهم وقوَّتِهِمْ الهَاضِمَةِ عن الطعامِ، فإذا نبتتْ أسنانُه قَوِيَت معدته، وتغذَّى بالطعام، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أخَّر إنباتَها إلى وقتِ حاجتِه إلى الطعامِ لحِكْمَتِه ولُطْفِهِ، ورحمةً منه بالأُمِّ وحَلَمَةِ ثَدْيِها، فلا يعضُّه الولدُ بأَسْنَانِهِ. ٣٣٩، بتصرف.

٧٦- وينبغي تَدْرِيْجُ الأطفال في الغذاءِ، فأوَّل ما يُطْعِمُونَهُمْ: الغذاء اللَّيِّن، فيطعمونهم الخبزَ المنقوعَ في الماء الحار، واللبن الحليب، ثم بعد ذلك الطبيخ، والأمراق الخالية من اللحم، ثم بعد ذلك ما لَطُف جدًّا من اللحم بعد إحكام مضغه، أو رضّه رضًّا ناعمًا. ٣٣٩، بتصرف.

٧٧- فإذا قَرُب الأطفال من وقت التكلُّم، وأُريد تسهيل الكلام عليهم، فَلْتُدْلَكْ ألسنتُهم بالعسل والملح الأَنْدَرَانِيّ لما فيهما من الجلاء للرُّطوبات الثقيلة المانعة من الكلام. فإذا كان وقتُ نُطْقِهم فلْيُلَقَّنُوا: «لا إله إلا الله محمَّد رسول الله»، ولْيَكُن أوَّل ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه، وتوحيده، وأنه سبحانه

فوق عرشه ينظر إليهم، ويسمع كلامهم، وهو معهم أينما كانوا. ٣٣٩، بتصرف.

٧٨- ولا ينبغي أن يَشُقَّ على الأبوين بكاءُ الطفل وصُراخُه، ولاسيَّما لشربه اللبن إذا جاع، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعًا عظيمًا، فإنه يروِّض أعضاءه ويوسِّع أمعاءه، ويفسح صدره، ويسخِّن دماغه، ويحمي مزاجه، ويثير حرارته الغريزية، ويحرِّك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره. ٣٤٠.

٧٩- وينبغي أن لا يُهمل أمر قِمَاطِ الطفل ورباطه، ولو شقَّ عليه، إلى أن يصلب بدنه، وتقوى أعضاؤه، ويجلس على الأرض، فحينئذ يُمَرَّن، ويدرَّب على الحركة والقيام قليلًا قليلًا إلى أن يصير له مَلَكَةٌ وقوَّة يفعل ذلك بنفسه. ٣٤١، بتصرف.

٨٠- وينبغي أن يُوقَّى الطفل كلَّ أمر يُفزعه؛ من الأصوات الشديدة الشنيعة، والمناظر الفظيعة، والحركات المزعجة، فإنَّ ذلك ربما أدَّى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها، فلا ينتفع بها بعد كِبَرِه، فإذا عرض له عارض من ذلك، فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضدِّه، وإيناسه بما ينسيه إيَّاه، وأن يُلقم ثديه في الحال، ويسارع إلى رضاعه ليزول عنه ذلك المزعج له، ولا يرتسم في قوته الحافظة، فيعسر زواله، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة إلى أن ينام، فينسى ذلك، ولا يهمل هذا الأمر، فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه، فينشأ على ذلك، ويعسر زواله ويتعذَّر. ٣٤١.

٨١- ويتغير حال المولود عند نبات أسنانه، ويهيج به القيء، والحمِّيَّات، وسوء الأخلاق، ولا سيما إذا كان نباتها في وقت الشتاء والبرد، أو في وقت الصيف وشدة الحر. وأَحْمَدُ أوقات نباتها في الرَّبِيع، والخريف. ووقت نباتها لسبعة أشهر، وقد تنبت في الخامس، وقد تتأخر إلى العاشر، فينبغي التلطُّف في تدبيره وقت

نباتها، وأن يكرر عليه دخول الحمَّام، وأن يُغذَّى غذاء يسيرًا، فلا يملأ بطنه من الطعام، وقد يعرض له انطلاق البطن، فيُعْصَب بما يكفيه مثل عصابة صوف عليها كَمُّون ناعم، وكَرَفْس، وأنيسون، وتُدلك لِثَتُهُ بما تقدّم ذكره. ومع هذا فانطلاق بطنه في ذلك الوقت خيرٌ له من اعتقاله، فإن كان بطنه معتقلًا عند نبات أسنانه، فينبغي أن يبادر إلى تليين طبيعته، فلا شيء أضرُّ على الطفل عند نبات أسنانه من اعتقال طبيعته، ولا شيء أنفع له من سهولتها باعتدال.

٨٢- وأَحْمَدُ ما تليَّن به عسلٌ مطبوخ يُتَّخَذ منه فتائل ويحمل بها، أو حَبَق مسحوق معجون بعسل يتخذ منه فتائل كذلك، وينبغي للمرضع في ذلك الوقت تلطيف طعامها وشرابها، وتجتنب الأغذية المضرة. ٣٤١.

٨٣- وينبغي للمُرْضِع إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة، بل تعوِّده إياه، وتمرِّنه عليه لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة، كما قال «بُقْراط» في «فُصُوله»: استعمال الكثير بغتة مما يملأ البدن، أو يستفرغه، أو يسخنه أو يبرده، أو يحركه بنوع آخر من الحركة أي نوع كان، فهو خطر، وكلما كان كثيرًا فهو معادٍ للطبيعة، وكلَّما كان قليلًا فهو مأمون. ٣٤٤.

٨٤- ومن سوء التدبير للأطفال: أن يُمَكَّنُوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب. ومن أنفع التدبير لهم أن يُعْطَوا دون شبعهم ليجودَ هضمُهم وتعتدلَ أخلاطُهم، وتقلَّ الفضول في أبدانهم، وتصحَّ أجسادهم، وتقلَّ أمراضهم لقلة الفضلات في المواد الغذائية. ٣٤٤.

٨٥- قال بعض الأطباء: فإن أحببتَ أن يكون الصبيُّ حسنَ الجسد، مستقيمَ القامة، غيرَ منحدبٍ؛ فَقِهِ كَثْرَةَ الشِّبَع، فإنَّ الصبي إذا امتلأ وشبع، فإنه يُكثِر

النوم من ساعته ويسترخي، ويعرض له نفخة في بطنه، ورياح غليظة. ٣٤٥.

٨٦- ومما ينبغي أن يُحذر: أن يُحمَل الطفل على المشي قبل وقته؛ لما يعرض في أرجلهم بسبب ذلك من الانفتال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك. واحذر كلَّ الحذر أن تحبس عنه ما يحتاج إليه من قيء أو نوم أو طعام أو شراب أو عطاس أو بول أو إخراج دم، فإنَّ لِحَبْسِ ذلك عواقبَ رديئةً في حق الطفل والكبير. ٣٤٦.

٨٧- فمتى حملت المرضع، فمن تمام تدبير الطفل أن يمنع منها، فإنه متى شرب من ذلك اللبن الرديء قتله، أو أثَّر في ضعفه تأثيرًا يجده في كِبَرِهِ فيُدَعْثِرُه عن فَرَسِه. ٣٤٨.

٨٨- يجب أن يجنَّب الصبيُّ إذا عقل: مجالسَ اللهو والباطلِ، والغناء، وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السُّوء؛ فإنه إذا علق بسمعه عَسُرَ عليه مفارقتُه في الكبر وعزَّ على وليِّه استنقاذُه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبُه إلى اسْتِجْدَادِ طبيعة ثانية. والخروجُ عن حكم الطبيعة عَسِرٌ جدًّا. ٣٥٠.

٨٩- وينبغي لولي الطفل أن يجنِّبه الأخذ من غيره غاية التجنب؛ فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يُعطي. ويعوِّده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا أعطاه إيَّاه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنِّبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متى سهَّل له سبيل الكذب والخيانة أفْسَدَ عليه سعادة الدنيا والآخرة وحَرَمَه كلَّ خيرٍ. ٣٥٠، بتصرف.

٩٠- فأرْوَح النَّاس أتعبُ الناس، وأتعب الناس أروح الناس؛ فالسيادة في الدنيا والسعادة في العُقْبَى لا يُوصَل إليها إلا على جسر من التعب. قال يحيى بن أبي كثير: لا يُنال العلم براحة الجسم. ٣٥٠.

٩١- «ولا يَدْخُلُ الجنَّة دَيُّوثٌ» فما أفسد الأبناءَ مثلُ تغفُّل الآباء وإهمالهم،

واستسهالهم شرر النار بين الشياب!

فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمد العدوُّ الشديد العداوة مع عدوِّه، وهم لا يشعرون. ٣٥١.

٩٢- وممَّا ينبغي أن يُعتمد: حالُ الصبيِّ وما هو مستعدٌّ له من الأعمال ومهيَّأ له منها؛ فيعلَّم أنه مخلوق له؛ فلا يحمله على غير ما كان مأذونًا فيه شرعًا. فإنه إن حمله على غير ما هو مستعدٌّ له لم يفلح فيه، وفاتَه ما هو مهيَّأ له. ٣٥٣.

[١٨] (روضة المحبين ونزهة المشتاقين)

١- فلا يصح لأحدٍ خطبةٌ ولا تشهدٌ ولا أذان حتى يشهدَ أنه عبده ورسوله شهادة اليقين.

أغـــرُّ عليـــه للنبـــوة خَـــاتمٌ ... مـــن اللهِ مَيْمُـــونٌ يلـــوحُ ويشْـــهَدُ

وضَمَّ الإلهُ اسْـمَ النـبيِّ إلى اسـمِه ... إذا قالَ في الخَمْسِ المُـؤَذِّنُ أشـهدُ

وشَـــقَّ له مِـــن اســـمِه لِيُجِلَّـــه ... فذو العَرْشِ محمُودٌ وهَذا مُحَمَّدُ. ٧.

٢- وأمرَها بالصيام عن محارمه؛ ليكون فطرُها عنده يومَ لقائِه، وأخبرها أنَّ معظمَ نهار الصيام قد ذهب، وأنَّ عيدَ اللقاءِ قد اقترب، فلا يَطولُ عليها الأمدُ باستبطائه.

فمَا هي إلا سَـاعةٌ ثـمَّ تَنْقَضِـــي ... ويَـذهبُ هَـذا كُلُّـه ويَـزُولُ. ٩.

٣- هذا وإنّ من أيام اللذات لو صَفَتْ للعبد من أوَّل عمره إلى آخره لكانت كسحابةِ صَيفٍ تتقشَّعُ عن قليلٍ، وخيال طَيفٍ ما استتمَّ الزيارةَ حتى آذنَ بالرحيل.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء/٢٠٥ ــ ٢٠٧]، ومَنْ ظَفِرَ بمأموله من ثواب الله، فكأنَّه لم يُوْتَرْ مِن دهره ما كان يُحاذره ويخشاه، وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنَّكَ لـم تُـوتَرْ مِـن الدَّهـرِ مـرةً ... إذا أنتَ أدركتَ الذي أنتَ طالبُه. ١١.

٤- قال علي بن أبي طالب ﷺ: لقد سبقَ إلى جنات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس

صلاةً، ولا صيامًا، ولا حجًّا، ولا اعتمارًا، ولكنهم عقلوا عن الله مواعظَه، فوجِلَتْ منه قلوبُهم، واطمأنتْ إليه نفوسُهم، وَخَشَعَتْ له جوارحُهم، ففاقوا الناسَ بطيب المنزلة، وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة. ١٣.

٥- قال عمر بن الخطاب ﷺ: ليس العاقلُ الذي يعرفُ الخيرَ من الشر، ولكنه الذي يعرف خيرَ الشرَّينِ [٤ أ]. ١٣.

٦- قالت عائشة ﷺ: قد أفلحَ من جعلَ اللهُ له عقلًا. ١٣.

٧- قال ابن عباس ﷺ: وُلد لكسرى مولودٌ، فأحضَرَ بعض المؤدِّبينَ، ووَضَعَ الصَّبيَّ بين يديه، وقال: ما خيرُ ما أُوتي هذا المولود؟ قال: عقلٌ يُولد معه. قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدبٌ حسنٌ يعيشُ به في الناس. قال: فإن لم يكنْ؟ قال: فصاعقةٌ تُحرِقُه. ١٣.

٨- قال معاذ بن جبل ﷺ: لو أنَّ العاقل أصبحَ وأمسىَ وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكًا بالنَّجاة والتخلُّصِ منها، ولو أنَّ الجاهلَ أصبحَ وأمسى وله من الحسنات وأعمال البرّ عددُ الرمْلِ لكان وشيكًا أن لا يَسْلمَ له منها مثقالُ ذرَّةٍ. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ العاقل إذا زلَّ تداركَ ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزِقَه، والجاهل بمنزِلة الذي يَبني ويَهدِم، فيأتيه من جهلِه ما يُفسِد صالحَ عمله.١٥.

٩- قال الحسن: لا يَتِمُّ دينُ الرجل حتى يَتمَّ عقلُه، وما أودع الله امرأً عقلًا إلا استنقذه به يومًا. ١٦.

١٠- قال بعضُ الحكماء: من لم يكن عقلُه أغلبَ الأشياء عليه كان حتفُه وهلاكُه في أحبِّ الأشياء إليه. ١٦.

١١- قال يوسف بن أسباط: العقل سراجُ ما بطنَ، وزينةُ ما ظهرَ، وسائسُ الجسد،

ومِلَاك أمرِ العبد، ولا تَصلُحُ الحياة إلا به، ولا تدورُ الأمورُ إلا عليه. ١٦.

١٢- قيل لعبد الله بن المبارك: ما أفضلُ ما أُعطِيَ الرجلُ بعد الإسلام؟ قال: غريزةُ عقل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيرهُ. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل. قيل: فإن لم يكنْ؟ قال: موتٌ عاجل. وفي ذلك قيل:

ما وهبَ الله لامرئٍ هِبَةً ... أحسنَ مِن عَقْلهِ ومِن أَدَبِهْ

هما جمالُ الفتى فإنْ فُقِدا ... فَفَقْدُه للحَياةِ أجملُ بِهْ. ١٦.

١٣- وإذا كانت الدولة للعقل سالَمَهُ الهوى، وكان من خَدَمهِ وأتباعهِ، كما أنَّ الدولةَ إذا كانت للهوى صارَ العقلُ أسيرًا في يديْه، محكومًا عليه. ١٧.

١٤- في ص ٢٢ من كتاب ابن القيم [روضة المحبين ونزهة المشتاقين] قال: والمرغوبُ إلى من يَقِفُ على هذا الكتاب أن يَعذِرَ صاحبَه، فإنه علَّقه في حال بُعْدِه عن وطنه، وغَيبته عن كتبه، فما عسى أن يبلغ خاطرُه المكدود وسعيُه المجهود، مع بضاعته المُزْجاة التي حقيقٌ بحاملها أن يُقال فيه: «تَسمعُ بالمُعَيْدي خيرٌ من أن تراه».

١٥- وضعوا للحب قريبا من ستين اسما:

المَحَبَّة، والعلاقة، والهَوى، والصَّبْوة، والصَّبابة، والشَّغَف، والمِقَة، والْوَجْد، والكَلَف، والتَّتيُّم، والعِشق، والجَوى، والدَّنَف، والشَّجْو، والشَّوق، والخِلابة، والبلابل، والتَّباريح، والسَّدَمُ، والغَمَرَات، والوَهَل، والشَّجَن، واللاعِج، والاكتئاب، والوَصَب، والحُزْن، والكَمَد، واللَّذْع، والحُرَق، والسُّهْد، والأَرَق، واللَّهَف، والحنين، والاستِكانة، والتَّبالة، واللَّوْعة، والفتُون، والجُنون، واللَّمَمُ، والخَبَلُ، والرَّسِيس، والدَّاء المُخامِر،

والوُدّ، والخُلَّة، والخِلْمُ، والغَرَام، والهُيَام، والتَّدْلِيهُ، والوَلَهُ، [والتعبُّد].

وقد ذُكِر له أسماءٌ غير هذه، وليست من أسمائه، وإنما هي من مُوجباته وأحكامه، فتركنا ذكرَها. ٢٥، بتصرف.

١٦- ذكر ابن القيم في كتابه القيم [روضة المحبين] بعض تعريفات المحبة، ومنها قوله:

وقيل: مصاحبة المحبوب على الدوام، كما قيل:

ومـــن عَجَـــبٍ أنِّي أحِـــنُّ إليهـــمُ وأسألُ عنهمْ مَن لَقِيتُ وهمْ مـعي

وتَطلُبهُم عَيـني وهـم في سَـوَادِهَا ويشتاقُهم قلبي وهمْ بينَ أضلُعي. ٣٣.

١٧- قال ابن القيم رحمه الله عن الهوى:

وأكثر ما يُستعمل في الحبّ المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات/٤٠ ــ ٤١]. ويُقال: إنما سمي هوًى؛ لأنه يهوي بصاحبه. وقد يُستعمل في الحبِّ الممدُوح استعمالًا مقيَّدًا. ومنه قول النبي ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». ٣٧.

١٨- وأما الوَجْد: فهو الحبُّ الذي يتبعه الحزن، وأكثر ما يُستعمل الوَجْدُ في الحزن، يقال منه: وَجَدَ وَجْدًا بالفتح. (٤١).

١٩- والمتكلِّف: المتعرّض لِمَا لا يَعنيه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص/٨٦]. ٤٢.

٢٠- قال ابن القيم عن العشق:

وقد اختلف الناس هل يُطْلَق هذا الاسم في حقّ الله تعالى؟

فقالت طائفةٌ من الصوفية: لا بأس بإطلاقه، وذكروا فيه أثرًا لا يثبتُ، وفيه:

«فإذا فعلَ ذلك عَشِقَني وعَشِقتُه».

وقال جمهور الناس: لا يُطْلَقُ ذلك في حقِّه سبحانه، فلا يُقال: إنه يَعْشَق، ولا يقال: عَشِقَه عبدُه.

ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال:

أحدها: عدم التوقيف، بخلاف المحبة.

الثاني: أنَّ العشقَ إفراطُ المحبَّة، ولا يمكن ذلك في حق الربِّ تعالى، فإن الله تعالى لا يُوصف بالإفراط في الشيء، ولا يبلغ عبدُه ما يستحقُّه من حبِّه، فضلًا أن يُقالَ: أفرطَ في حبّه.

الثالث: أنه مأخوذ من التغيُّر، كما يُقال للشجرة المذكورة عاشقة، ولا يُطلق ذلك على الله سبحانه. ٤٥.

٢١- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت/٥]:

قال ابن القيم ﷺ:

قال بعضُ العارفين: لما علمَ الله شوقَ المُحبِّين إلى لقائه؛ ضربَ لهم موعدًا للِّقاءِ تَسكنُ به قلوبهم. (٤٩).

٢١- والصوابُ أنَّ الشوقَ الحادثَ عند اللقاء والمواصلة غيرُ النوع الذي كان عند الغَيْبة عن المحبِّ، قال ابن الرومي:

أُعانِقُها والنفسُ بعدُ مَشُوقةٌ ... إليها وهل بعدَ العِناقِ تَدانِي؟!

وألثِمُ فاها كي تزولَ صَبابَتِي ... فيشتدُّ ما ألقى من الهيَمانِ

ولم يكُ مقدارُ الذي بي من الجَوى ... ليَشْفِيَه ما ترشُفُ الشَّفتانِ

كأن فؤادي ليس يَشفي غَليلَه ... سوى أن يرى الرُّوحينِ يَمتزجان. ٥٢.

٢٢- وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبي ﷺكان يقول: «اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَن، وَالعَجْزِ والْكَسَل، وَالجُبْنِ وَالبُخْل، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجال».

فاستعاذَ ﷺمن ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان.

فالهمُّ والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الحزن، وإن كان لما يُستقبل فهو الهمُّ. والعجز والكسل قرينان، فإنَّ تخلُّفَ العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل.

والجبنُ والبخل قرينان، فإنَّ الرجل يُراد منه النفعُ بماله أو ببدنه، فالجبَان لا يَنفعُ ببدنه، والبخيلُ لا يَنفعُ بماله.

وضَلَعُ الدَّين وَغَلَبة الرجال قرينان، فإنَّ قهرَ الناس نوعان: نوعٌ بحقٍّ، فهو ضَلَع الدَّين، ونوعٌ بباطلٍ، فهو غَلَبَةُ الرِّجال.

وقد نفى الله سبحانه عن أهل الجنَّة الخوفَ والحزنَ، فلا يحزنون على ما مضى، ولا يخافون ممَّا يأتي، ولا يطيبُ العيش إلا بذلك، والحبُّ يلزمه الخوف والحزن. ٦١.

٢٣- وأمَّا الاستكانة: فهي أيضًا من لوازم الحُبِّ وأحكامه، لا من أسمائه المختصة به، وأصلها: الخضوع. قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ [المؤمنون/٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران/١٤٦]. ٦٥.

٢٤- وأما قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذاريات/١٣ - ١٤].

فقيل: المعنى يُحرَقون، ومنه: فتَنْتُ الذَّهبَ: إذا أدخلتَهُ النَّارَ لتنظرَ ما جَوْدَته، ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتْنُ: الإحراق، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾

[الذاريات/١٣]. وورِقٌ فَتِينٌ، أي: فضةٌ مُحْرَقَة. وَافْتَتَنَ الرجل وفُتِنَ: إذا أصابته فتنةٌ فذهبَ مالُه وعقلُه. وفَتَنَتْهُ المرأة: إذا دَلَّهَتْه. ٦٩.

٢٥- وأمَّا الجنون: فمن الحُبِّ ما يكونُ جنونًا، ومنه قوله:

قالتْ جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لها ... العشقُ أعظمُ ممَّا بالمجانين

العشقُ لا يَستفيقُ الدهرَ صَاحبُه ... وإنما يُصْرَعُ المجنونُ في الحين

وأصل المادة من السَّتر في جميع تصاريفها. ٧٠.

٢٦- فأشرفُ صفاتِ العبد صفة العبودية، وأحبُّ أسمائه إلى الله اسم العبودية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبُّ الأسماء إلى الله عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمنِ، وأَصدقُها حارثٌ وهَمَّام، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّة».

وإنَّما كان حارث وهمَّام أصدقَها لأنَّ كلَّ أحدٍ لابدَّ له من همٍّ وإرادةٍ وعزمٍ، ينشأ عنه حرثُه وفعلُه، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وَهَمَّام، وإنَّما كان أقبَحَهَا حربٌ ومُرَّة؛ لما في مُسمَّى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنها، وبالله التوفيق. ٨٥.

٢٧- وقد أنكرَ كثيرٌ من الناس الترادُف في اللغة، وكأنَّهم أرادوا هذا المعنى وأنَّه ما من اسمين لمسمًّى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ في صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافةٍ، سواء عُلِمت لنا أو لم تُعْلَم. وهذا الذي قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد، ولكن قد يَقَعُ الترادفُ باعتبار واضعَيْن مختلفَيْن، يُسمِّي أحدُهما المسمَّى باسم، ويُسمِّيه الواضعُ الآخر باسم غيره، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة، وهذا كثيرٌ، ومن ها هنا يقعُ الاشتراك أيضًا. فالأصل في اللغة هو التباينُ، وهو أكثر اللغة. والله أعلم. ٨٧.

٢٨- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة/٦].

قال غيرُ واحد من السلف: عَتَتْ على الخُزَّان فلم يقدروا على ضبطها. ذكره البخاري في صحيحه. ٩٠.

٢٩- ووكّل بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة في هذه الدنيا: حافظانِ عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومُعَقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه، أقلُّهم اثنان، يحفظونه من أمر الله. ٩١.

٣٠- والمقصود أنَّ حركاتِ الأفلاك وما حَوَتْه تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبَّة، فالحبُّ والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه. ٩٣.

٣١- فجميعُ حركات العالم العلويِّ والسُّفليِّ تابعةٌ للإرادة والمحبَّة، وبها تحرَّك العالمُ، ولأجلها، فهي العلَّةُ الفاعليَّة والغائيّة، بل هي التي بها ولأجلها وُجدَ العالمُ، فما تحرَّك في العالم العُلويِّ والسفليِّ حركةٌ إلا والمحبَّة سببُها وغايتُها، بل حقيقةُ المحبَّة حركة نفس المحبِّ إلى محبوبه، فالمحبَّة حركةٌ بلا سكون. ٩٤.

٣٢- وكمالُ المحبَّة هي العبودية، والذلُّ، والخضوعُ، والطَّاعة للمحبوب، وهو الحقُّ الذي به وله خُلِقَت السموات والأرض، والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر/٨٥]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص/٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون/١١٥]. ٩٤.

٣٣- فحركاتُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما فيهما مُوافِقةٌ للأمر؛ إمَّا الأمرِ الدينيّ الذي يُحِبُّه الله ويرضاه، وإمَّا الأمرِ الكونيّ الذي قدَّره وقضاه. ٩٩.

٣٤- قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ [الزمر/٧٥]، فحذف فاعل القول لأنَّه غيرُ معيَّن، بل كُلُّ أحدٍ يَحمَدُه على ذلك الحُكم الذي حكم به، فَيَحْمَدُه أهلُ السموات وأهلُ الأرض، والأبرارُ والفجَّارُ، والإنسُ والجِنُّ، حتى أهلُ النار.

قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النَّارَ وإن حَمْدَه لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلًا، وهذا ـ والله أعلمُ ـ هو السرُّ الذي حذفَ لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ [الزمر/٧٢] وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم/١٠]، كأنَّ الكونَ كلَّه نطقَ بذلك وقاله لهم. والله أعلم بالصواب. ١٠١.

٣٥- فكلُّ امرئ يصبُو إلى مَنْ يُناسبُهْ.

٣٦- وهذه المناسبة نوعان: أصليةٌ من أصل الخِلْقة، وعارضةٌ بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور، فإنَّ من ناسبَ قصدُك قصدَه حصلَ التوافقُ بين رُوحِك ورُوحِه، فإذا اختلفَ القصدُ زالَ التوافُق، فأمَّا التناسُب الأصلي، فهو اتفاقُ أخلاق، وتشاكُلُ أرواح، وشوقُ كلِّ نفسٍ إلى مُشاكلها. ١٠٥.

٣٧- ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيَّةُ العُلْويَّة تعشقُ صفاتِ الكمال بالذَّات. ١٠٧.

٣٨- قال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتى خشيتُ ألَّا أُؤْجَر عليه [٢٧ أ]. ١٠٧.

٣٩- وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: تعلَّمتَ هذا العلمَ لله؟ فقال: أمَّا لله فعزيز، ولكنْ شيءٌ حُبِّبَ إليَّ، ففعلتُه. ١٠٧.

٤٠- وقيل لامرأةِ الزُّبَيْر بن بكَّار ـ أو غيره ـ: هنيئًا لكِ؛ إذ ليست لك ضَرَّة، فقالت: والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائرَ! ١٠٨.

٤١- فعشقُ صفاتِ الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنَّما يكونُ بالمناسبة التي بينَ الرُّوح وتلك الصِّفاتِ، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفُها أعلاها وأشرفها

معشوقًا، كما قيل:

أنت القتيلُ بكلِّ مَنْ أحْبَبْتَه ... فاخْتَرْ لنفسِكَ في الهوى مَنْ تَصْطفي. ١٠٩.

٤٢- وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك، وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ. فقلت له: لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أُحاكمك إلى علمك: أليستِ النفسُ إذا فرحتْ وسُرّت قويت الطبيعةُ، فدفعتِ المرض؟ فقال: بلى! فقلت له: فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال. ١٠٩.

٤٣- فإنَّ الأذى إما أن يُضْعِفَ المحبَّة، أو يُزِيلَها.

قال:

خذي العفوَ منِّي تستديمي مَوَدَّتي ... ولا تَنْطِقي في سَوْرتي حين أغضَبُ

فإنِّي رأيتُ الحُبَّ في القلبِ والأذى ... إذا اجتمعا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَبُ. ١١٠.

٤٤- والإنصاف أن يُقال: يجتمعُ في القلب بغضُ أذى الحبيب وكراهتُه ومحبَّتُه من وجهٍ آخر، فيحبُّه ويُبغض أذاه، وهذا هو الواقع، والغالبُ منهما يوازي المغلوبَ ويبقى الحكم له، وقد كشفَ عن هذا المعنى الشاعرُ في قوله:

ولو قُلْتِ طَأْ في النَّارِ أَعْلَمُ أنَّه ... رِضًا لكِ أو مُدْنٍ لنا مِنْ وِصَالِك

لقدَّمتُ رِجْلي نحوَها فَوَطِئْتُها ... هُدًى منكِ لي أو ضَلَّةً من ضَلالِك

وإنْ ساءَني أن نِلْتِني بِمَساءةٍ ... فقد سَرَّني أنِّي خَطَرْتُ بِبَالِك. ١١٢.

٤٥- وقد أخبرني بعضُ الأطباء قال: إني أَلْتَذُّ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصُل به من الشِّفاء، وأضعُه عَلَى لساني، وأَتَرَشَّفُه محبةً له.

ومن هذا التذاذُ المُحبِّينَ بالمشاقِّ التي تُوصلُهم إلى وصَال محبوبهم وقُربِه، وكلَّما

ذكروا روحَ الوصَال، وأنَّ ما هم فيه طريقٌ موصلٌ إليهم؛ لذَّ لهم مُقَاساتُه، وطابَ لهم تحمُّلُه، كما قال:

لها أحاديثُ من ذِكْرَاكَ تشْغَلُهَا ... عن الشَّرابِ وتُلْهيها عن الزَّاد

لها بوجهِكَ نورٌ تستضيءُ به ... ومِن حَدِيثكَ في أعْقَابِهَا حادِي

إذا شَكَتْ من كَلالِ السَّيْرِ أوعَدَها ... رَوْحُ اللقاء فتَقوى عندَ ميعاد

والمقصودُ أنَّ المحبَّة تستدعي مشاكلةً ومناسبةً. ١١٣.

٤٦- الصَّحيح الذي دلَّ عليه الشرعُ والعقلُ: أنَّ الأرواحَ مخلوقةٌ مع الأجساد، وأن الملك المُوَكَّل بنفخ الرُّوح في الجسد ينفُخ فيه الرُّوح إذا مضى على النطفة أربعةُ أشهر، ودخلتْ في الخامس، وذلك أوَّل حدوثِ الرُّوح فيه. ١٢٠.

٤٧- فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت؛ تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح، فإن البدن آلة الرُّوح ومَركَبُه، وبهذا ركَّب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلبًا للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الرُّوحين، ولهذا يُسمَّى جماعًا وخِلاطًا ونكاحًا وإفضاء؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما يُفضي إلى صاحبه، فيزول الفضاءُ بينهما. ١٢٤.

٤٨- وقالت هند بنت المُهلَّب: ما رأيتُ لصالحي النساء وشِرارهن خيرًا من إلحاقهنَّ بمن يَسْكُنَّ إليه من الرِّجال، ولَربَّ مسكونٍ إليه غير طائلٍ، والسَّكن على كلِّ حالٍ أوفق. ١٣٣.

٤٩- وقال بعضهم: الحبُّ يطيبُ بالنظر، ويَفْسُد بالعهر. ١٣٨.

٥٠- والشُّعراءُ قاطبةً لا يرون بالمحادثة والنَّظر للأجنبيات بأسًا، وهو مخالفٌ للشَّرع

والعقلِ، فإنَّ فيه تعريضًا للطبع لما هو مجبولٌ على الميل إليه، والطبعُ يَسْرِق ويَغْلِبُ، وكم من مفتونٍ بذلك في دينه ودنياه. ١٣٩.

٥١- فكلُّ محبَّةٍ لغير الله آخرُها قِلًى وبغضٌ فكيف إذا قارنَها ما هو من أكبر الكبائر؟ وهذه عداوةٌ بين يدَي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف/ ٦٧]. ١٤٢.

٥٢- وداعي الحبِّ من المحبوب جمالُه، إمَّا الظاهرُ أو الباطنُ أو هما معًا، فمتى كان جميلَ الصُّورة، جميلَ الأخلاق والشِّيم والأوصاف؛ كان الدَّاعي منه أقوى.

وداعي الحبِّ مِنَ المُحبِّ أربعة أشياء:

أوّلُها: النظر إمَّا بالعين، أو بالقلب إذا وُصف له

الثاني: الاستحسان.

الثالث: الفكر في المنظور، وحديثُ النفس به. ١٤٣، بتصرف.

٥٣- ولهذا قيل: العشق حركة قلب فارغ. ومتى صادفَ هذا النظرُ والاستحسانُ والفكرُ قلبًا خاليًا؛ تمكَّن منه، كما قيل:

أتاني هَواها قبلَ أن أعرِفَ الهوى فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكَّنا. ١٤٤.

٥٤- تالله ما أسَرَ الهوى مِن عاشقٍ إلا وعزَّ عَلى النفوس فِكَاكُهُ

وإذا كان النظرُ مبدأ العشق؛ فحقيقٌ بالمُطْلَق ألا يعرِّضَ نفسَه للإسار الدائم بواسطة عينه. ١٤٥.

٥٥- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور/٣٠ - ٣١]، فلمَّا كان غضُّ البصر أصلًا لحفظ الفرج؛ بدأ بذكره،

ولمَّا كان تحريمُه تحريمَ الوسائل، فيُباح للمصلحة الرَّاجحة، ويَحْرُمُ إذا خِيفَ منه الفسادُ، ولم يُعارضْه مصلحةٌ أرجحُ من تلك المفسدة؛ لم يأمر سبحانه بغَضِّه مطلقًا، بل أمر بالغضِّ منه، وأمَّا حفظ الفرج فواجبٌ بكلِّ حالٍ، لا يُباح إلا بحقِّه، فلذلك عمَّ الأمر بحفظه. ١٤٦.

٥٦- وقد جعل الله سبحانه العينَ مِرْآة القلب، فإذا غضَّ العبدُ بصرَه غضَّ القلبُ شهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلق بصره أطلق القلبُ شهوتَه. ١٤٦.

٥٧- وهذا شأن كلِّ ما حُرِّم تحريمَ الوسائل، فإنَّه يُباح للمصلحة الراجحة، كما حُرِّمت الصَّلاة في أوقات النهي؛ لئلا تكون وسيلة إلى التشبُّه بالكفَّار في سجودهم للشَّمس، وأُبيحت للمصلحة الرَّاجحة، كقضاءِ الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب على الصَّحيح. ١٥١.

٥٨- وتأمَّل قول النبي ﷺ: «النظرة سهْمٌ مَسْمُومٌ من سهام إبليس»، فإن السَّهْم شأْنُه أن يسري في القلب، فيعمل فيه عمل السُّمِّ الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر واستفرَغه، وإلا قتله ولابدَّ. ١٥٠.

٥٩- قال المرُّوذي: قلت لأحمد: الرجلُ ينظرُ إلى المملوكة؟ قال: أخافُ عليه الفتنة، كم نظرةٍ قد ألقتْ في قلبِ صاحبها البلابل! ١٥٠.

٦٠- وقال ابن عباس: الشيطان من الرَّجل في ثلاثة: في بصره، وقلبه، وذكره، وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها، وقلبها، وعجُزِها. ١٥٠.

٦١- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفُر مَنْ كفر ممَّن مضى إلا من قِبَلِ النساءِ، وكفرُ من بقي مِنْ قِبَل النساء. ١٥٣.

٦٢- ذكر ابن القيم في كتابه الماتع [روضة المحبين] عشر فوائد لغض البصر، وهي:

الأولى: تخليصُ القلب من ألمِ الحَسْرة.

الثانية: أنه يُورِثُ القلبَ نورًا وإشراقًا يظهر في العين، وفي الوجه والجوارح.

الثالثة: أنَّه يُورث صحَّةَ الفِراسة، فإنَّها من النُّور وثمَرَاته.

الرابعة: أنْ يفتحَ له طرقَ العلم وأبوابَه، ويُسهِّلَ عليه أسبابَه.

الخامسة: أنَّه يُورث قُوَّة القلب، وثباتَه، وشجاعتَه، فيجعلُ الله سبحانَه له سلطانَ البصيرة مع سلطان الحجَّة.

السادسة: أنَّه يُورث القلبَ سرورًا، وفرحةً، وانشراحًا أعظمَ من اللذَّة والسُّرور الحاصل بالنظر.

السابعة: أنه يُخَلِّصُ القلبَ من أسر الشَّهوة.

الثامنة: أنَّه يسدُّ عنه بابًا من أبواب جهنم.

التاسعة: أنه يقوِّي عقلَه، ويزيده، ويثبِّته.

العاشرة: أنَّه يُخلِّص القلب منْ سُكر الشَّهوة، ورَقْدة الغفلة. ١٥٣، بتصرف.

٦٣- والنَّظرة تفعلُ في القلب ما يفعلُ السَّهم في الرَّميَّة، فإن لم تقتله جرحتْه، وهي بمنزلة الشَّرارة من النَّار تُرْمى في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقْه كلَّه؛ أحرقتْ بعضَه، كما قيل:

كُلُّ الحوادث مَبْداها من النَّظر ... ومُعْظَمُ النَّار من مُسْتَصْغَرِ الشَّررِ

كم نظرةٍ فتكَتْ في قلبِ صاحبها ... فَتْكَ السِّهام بلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ

والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا ... في أعينِ الغيدِ موقوفٌ على الخطرِ

يسُرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضَّرر. ١٥٤.

٦٤- والناظر يَرْمي مَنْ نظرَه بسهامٍ غَرَضُها قلبُه وهو لا يَشْعُر، فهو إنما يرْمي قلبَه. ولي

من أبيات:

يا راميًـا بسـهام اللَّحْـظِ مُجتهـدًا ... أنتَ القتيلُ بِما ترمي فـلا تُصـبِ

وباعثَ الطَّرفِ يَرتَـادُ الشِّـفاءَ له ... تَوقَّـهُ إنَّـه يأْتيـكَ بالعَطَـب. ١٥٤.

٦٥- وقال آخر:

ومن كان يُؤْتَى من عـدُوٍّ وحاسـدٍ ... فإنِّيَ مِنْ عيني أُتيـتُ ومِـنْ قلـبي

هُمـا اعْتَـوَرَاني نظـرةً ثُـمَّ فِكْـرَةً ... فما أبقيا لي من رقـادٍ ولا لُـبّ. ١٥٥.

[١٩] (رفع اليدين في الصلاة)

١- وفرَّق علي بن المديني بين ما حدَّث به بالمدينة وما حدث به ببغداد، قال: فما حدث به بالمدينة فهو صحيح، وما حدَّث به ببغداد أفسده البغداديون. ١٢.

٢- عن نافع: أن ابن عمر كان إذا دخل في الصلاة كبَّر ورفع يديه، وإذا ركع رفع يديه، وإذا قال: «سمع الله لمن حمده» رفع يديه، وإذا قام من الركعتين رفع يديه، ورفع ذلك ابنُ عمر إلى النبي ﷺ. ١٥.

٣- والظاهر بل المقطوع به أن الصحابة إنما فعلوا ذلك مستندين إلى ما شاهدوه من النبي ﷺ؛ إذ رَفْع اليدين في الصلاة ليس مما يؤخذ بالرأي والاجتهاد. وهم كانوا أعلم بالله ورسوله أن يزيدوا في الصلاة زيادةً من أنفسهم لا يستندون فيها إلى من تعلَّموا منه الصلاة. ٢٨.

٤- وقال ابن وهب: أخبرني عياض بن عبد الله الفهري: أن عبد الله بن عمر كان يقول: «لكل شيء زينة، وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي فيها».

٥- وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة، عن ابن عجلان، عن النعمان بن أبي عياش قال: كان يقال: لكلّ شيء زينة، وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي عند الافتتاح، وحين يريد أن يركع، وحين يريد أن يرفع. ٣١، بتصرف.

٦- وصف البخاري بقوله: إمام السنة على الإطلاق، وقال عنه: إمام السنة محمد بن إسماعيل البخاري. ٥٦، ١١١، بتصرف.

٧- مما تُرِك من عمل ابن مسعود رضي الله عنه في الصلاة: الاكتفاءُ بالتشهُّد وانقضاء الصلاة به دون التحلل بالتسليم. ٦٣.

٨- وإذا تفرَّد إسماعيل بن عيّاش أو أخوه بحديث ولا سيما إن كان عن غير الشاميين، لم يحتجّ به أهل الحديث. ٨٥.

٩- فليس مجرَّد وجود الرَّجل في أيِّ إسنادٍ اتفق إذا كان من رجال الصحيح بموجب جَعْل ذلك الإسناد على شرط الصحيح. فينبغي التفطُّن لهذا، فإن كثيرًا من الناس يغلطون فيه. ٨٥.

١٠- وأما الحديث الآخر عن المسيّب، عن ابن المبارك، عن يونس، عن الزُّهري، عن سعيد، عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «من رفع يديه في الصلاة، فلا صلاة له».

فمِنْ وَضْع الدّجال الخبيث المأمون بن أحمد السلمي.

قال ابن حبان: كان دجّالًا من الدجَّالين، ظاهر أحواله مذهب الكراميين، وباطنها لا يوقف على حقيقته، حدّث عمن لم يره. ١٠٦.

١١- وفي رواية: «لا ينزع الله العلمَ من صدور الرجال، ولكن ينتزع العلم بموت العلماء، فإذا لم يبقَ عالم اتخذ الناسُ رؤوسًا جُهّالًا فقالوا بالرأي فضلّوا وأضلّوا». وفي رواية: «فأفتوا بغير علم».

وهو صريح في أن «الرأي» غيرُ علمٍ، ولاسيما رأيٌ يخالف ما جاء به رسول الله ﷺ من العلم. ١١٥.

١٢- عن بن أبي مُليكة، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أيّ أرضٍ تُقِلّني وأيُّ سماءٍ تُظِلّني إن قلتُ في آيةٍ من كتاب الله برأيي أو بما لا أعلم». ١١٦.

١٣- عن ابن سيرين قال: لم يكن أحدٌ أهْيَب لما لا يعلم من أبي بكر الصديق ، ولم يكن أحدٌ بعد أبي بكر أَهْيَب لما لا يعلم من عمر، وأن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد في كتاب الله تعالى منها أصلًا، ولا في السنة أثرًا، فاجتهد رأيه، ثم قال:

«هذا رأيي، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأً فمني، وأستغفر الله». ١١٧.

١٤- وقال عمر ﷺ: «أيها الناس، اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتُني وإني لأردّ أمرَ رسول الله ﷺ برأيي، أجتهدُ ولا آلو، وذلك يوم أبي جندل والكتاب يُكْتب، فقال: اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: نكتب: باسمك اللّهُمَّ، فرضي رسول الله ﷺ وأبيتُ، فقال: يا عمر، تراني قد رضيتُ وتأبى؟». ١١٧.

١٥- وقال ابنُ وهب: ثنا يونس بن يزيد، عن الزهري: أن عمر بن الخطاب قال - وهو على المنبر -: «يا أيها الناس إنما كان رأي رسول الله ﷺ مصيبًا؛ لأن الله ﷻ كان يُرِيه، وإنما هو مِنّا الظنُّ والتكلّف». ١١٨.

١٦- وذكر أبو عمر بن عبدالبر من حديث عَمرو بن حُريث، قال: قال عمر بن الخطاب: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السّنن، أعْيتهم الأحاديثُ أن يحفظوها فقالوا بالرأي، فضلّوا وأضَلّوا. ١١٨.

١٧- وقال حمّاد بن سَلَمة، عن حُميد، عن أبي رجاء العُطاردي، أن أبا موسى الأشعري ﷺ قال: من كان عنده عِلم فليعلّمه الناس، وإن لم يعلم فلا يقولنّ ما ليس له به علم، فيكون من المُتكلّفين ويمرق من الدّين. ١٢٠.

١٨- وقال علي بن أبي طالب ﷺ: لو كان الدّين بالرأي لكان أسفل الخفّ أولى بالمسح من أعلاه. ١٢٠.

١٩- وقال البخاري: ثنا موسى بن إسماعيل، أنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: قال سهل بن حُنيف: أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتُني يومَ أبي جندل، ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله ﷺ لرددته. ١٢٠.

٢٠- وقال ابن وهب: حدثني بِشْر بن بكر، عن الأوزاعي، عن عَبْدة بن أبي لُبابة،

عن ابن عباس قال: من أحْدَث رأيًا ليس في كتاب الله، ولم تمضِ به سنةُ رسول الله ﷺ لم يدرِ على ما هو منه إذا لقي الله ﷻ. ١٢١.

٢١- وقد سئل ابنُ مسعود عن المُفوِّضة شهرًا يُخْتَلَفُ فيها إليه، فقال بعد ذلك: سأقول فيها برأيي، فإن كان صوابًا فمن الله وحده، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريء. ١٢١.

٢٢- وقال يحي بن سعيد: ثنا مُجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قال ابن مسعود: يذهب العلماء ويبقى قوم يفتون برأيهم. ١٢١.

٢٣- وذكر حماد بن سلمة، عن أيوب السّخْتياني، عن أبي قلابة، عن يزيد ابن عَميرة، عن معاذ بن جبل قال: تكون فتنٌ يكثر فيها المال ويُفتح فيها القرآن، حتى يقرأه الرجل والمرأة، والصغير والكبير، والمؤمن والمنافق، فيقرؤه الرجل فلا يُتَّبع، فيقول: والله لأقرأنَّه علانيةً، فيقرؤه علانية فلا يُتّبع، فيتخذ مسجدًا أو يبتدع كلامًا ليس في كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ، فإياكم وإياه فإنه بدعة وضلالة. قاله معاذ ثلاث مرات. ١٢١.

٢٤- وما أحسن ما قال سفيان بن عيينة: اجتهاد الرأي مشاورة أهل العلم، لا أن يقول برأيه. حكاه إسحاقُ بن راهويه عنه. ١٢٢.

٢٥- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الناس: إنه لا رأي لأحد مع سُنةٍ سنَّها رسول الله ﷺ. ١٢٢.

٢٦- وقال أبو نضرة: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف يقول للحسن البصري: بلغني أنك تفتي برأيك، فلا تُفْتِ إلا أن تكون سنة عن رسول الله ﷺ أو كتابًا منزّلًا. ١٢٣.

٢٧- وقال شقيق بن سلمة: إياك ومجالسة من يقول: أرأيت أرأيت. ١٢٣.

٢٨- وقال الزهري: دعوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي. ١٢٣.

٢٩- وقال عروة بن الزبير: ما زال أمر بني إسرائيل معتدلًا، حتى نشأ فيهم المولّدون أبناء سبايا الأمم، فأخذوا فيهم بالرأي فأضلوهم. ١٢٣.

٣٠- وذكر ابن وهب، عن ابن شهاب أنه ذكر ما وقع الناسُ فيه من الرأي، وتركهم السنن، فقال: إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي بأيديهم، حين اشتقّوا الرأي وأخذوا فيه. ١٢٤.

٣١- وقال الأوزاعي: عليك بآثار من مضى وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول. ١٢٤.

٣٢- وقال ابن أبي عمران شيخُ الطحاوي وأستاذُه، عن أبي يوسف والحسن بن زياد قالا: قال أبو حنيفة: عِلْمُنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه منه. ١٢٥.

٣٣- وذكر أبو عمر بن عبدالبر عن معن بن عيسى قال: سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكلما وافق القرآن والسنة فخذوا به، وما لم يوافق [الكتاب و] السنة فاتركوه. ١٢٥.

٣٤- وقال القعنبي: دخلتُ على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه فسلّمت ثم جلست، فرأيته يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يُبْكيك؟ فقال لي: يا ابن قَعْنب، وما لي لا أبكي ومن أحقّ بالبكاء منّي! والله لوَدِدت أني ضُرِبْتُ بكلّ مسألة أفتيتُ فيها برأيي سوطًا سوطًا، وقد كانت لي سَعَة فيما سُبِقْت إليه وليتني لم أُفْتِ بالرأي. ١٢٥.

٣٥- عن أحمد بن سنان قال: سمعت الشافعي يقول: مَثَلُ الذي ينظر في الرأي ثم يتوب، كَمَثَل المجنون الذي عولج حتى برئ، فأعْقَلُ ما يكون قد هاج به. ١٢٦.

٣٦- وقال الإمام أحمد: لا تكاد ترى أحدًا ينظر في الرأي إلا وفي قلبه دَغَل. ١٢٦.

٣٧- عن عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه:

دينُ النبيّ محمدٍ أخبارُ ... نِعْمَ المَطيّة للفتى الآثارُ

لا ترغبنّ عن الحديثِ وأهلِه ... فالرأي ليلٌ والحديث نهارُ

ولربما جَهِل الفتى طرق الهدى ... والشمسُ طالعة لها أنوارُ

دع عنك آراءَ الرجال فما لها ... حدٌّ تحيطُ به ولا مِقدارُ

وهذا البيت الأخير لغير أحمد من المتأخرين. ١٢٦.

٣٨- وقال ابن وهب: بلغني عن ابن مسعود أنه قال: ليس عام إلا والذي بعده شرٌّ منه، لا أقول: عام أَمْطر من عام، ولا عام أَخْصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يحدث قومٌ يقيسون الأمور برأيهم، فيُهْدَم الإسلامُ وينثلم. ١٢٨.

٣٩- عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: إياكم وأرأيتَ أرأيتَ، و إنما هلك من قبلكم بأرأيت وأرأيت، ولا تقيسوا شيئًا فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، وإذا سُئل أحدُكم عما لا يعلم فليقل: لا أعلم، فإنه ثلث العلم. ١٢٩.

٤٠- وذكر البخاريّ عن جابر بن زيد قال: لقيني ابن عمر، فقال: يا جابر، إنك من فقهاء البصرة تُسْتفتى فلا تُفْتِ إلا بكتابٍ ناطق أو سنةٍ ماضية. ١٢٩.

٤١- وذكر مالكٌ، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: العلم ثلاثة: كتاب الله الناطق، وسنة ماضية، ولا أدري. ١٢٩.

٤٢- وقال يحي بن سعيد القطان: ثنا [صالح] بن مسلم قال: قال لي الشعبي: إنما هلكتم حين تركتم الآثار، وأخذتم بالمقاييس، لقد بَغّض إليّ هذا المسجد ــ فلهو أبغض إليّ من كُناسة أهلي ــ هؤلاء الصَّعافقة.

قال بعض أهل العلم: «الصعافقة» الذين يتخذون تجارةً غير محمودة، ويقحمون في المضايق بلا رَوِيّة. ١٣١.

٤٣- وقال عطاء وغيره في قوله عز وجل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء/٥٩]: إلى كتاب الله وسنة رسوله.

وقال ميمون بن مِهران: يُرَدُّ إلى الرسول ما دام حيًّا، فإذا قُبِض فإلى سنته.١٣١.

٤٤- وذكر الطحاوي عن محمد ابن سيرين يقول: القياس شؤم، وأول من قاس إبليس، وإنما عُبِدت الشمسُ والقمر بالقياس. ١٣٢، بتصرف.

٤٥- وذكر أبو زرعة الدمشقي أن وكيع ابن الجرَّاح قال ليحي بن صالح الوُحاظي: احذر الرأي، فإني سمعتُ أبا حنيفة يقول: البول في المسجد أحسن من بعض قياسهم. ١٣٢، بتصرف.

٤٦- ولا ريبَ أن السنة الصحيحة الصريحة جاءت عن النبي ﷺ بالرفع في موضع، وتركه في موضع، والقياس الصحيح إنما يكون على أصل ثابتٍ بالسنة، فإذا تضمّن القياس مخالفة ما ثبت بالسنة كان باطلًا في نفسه فكيف يُقدّم على السنة؟! ١٣٢.

٤٧- وقال الشافعي وقد سُئل عن معنى رفع اليدين في الصلاة، فقال: هو تعظيم لأمر الله وزينة للصلاة واتباع للسنة. ١٣٤.

٤٨- وقال ابن عبدالبر: معنى رفع اليدين في الافتتاح وغيره: خضوع واستكانة،

وابتهال وتعظيم لله عز وجل، واتباع لسنة رسول الله ﷺ. ١٣٤.

٤٩- وليس المُعوَّل إلا على اتباع السنة، والتسليم للعبودية، والبراءة من الامتثال بدون ظهور الحكمة، فإنَّ هذا يقدح في العبودية، ويخرج عن الامتثال، بل تُتَلقى السنة بالسمع والطاعة والإذعان، سواء ظهر لنا وجه حُكمه أو لم يظهر. ١٣٥.

٥٠- ولو ساغ للعبد أن لا يقبل من السنة إلا ما رأى فيه الحكمة والمناسبة؛ لبطل الدين وتلاعب به المبطلون، وصار عُرضةً لردّ الرادين، وعياذًا بالله من هذا الرأي الباطل، وبالله التوفيق. ١٣٦.

٥١- وقال رجل لأبي بكر بن حزم: [ما أدري] كيف أصنع بالاختلاف؟ فقال: يا ابن أخي إذا وجدتَ أهل المدينة مجمعين على أمر فلا تشكّ أنه الحق. ١٣٨.

٥٢- فهذا مالك إمام دار الهجرة [الذي] ضرب الناسُ أكبادَ الإبل في زمانه فلم يجدوا عالمًا أعلم منه. ١٣٩.

٥٣- قال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم. ١٣٩.

٥٤- وقال ابن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه. ١٣٩.

٥٥- وقال النسائي: أُمناء الله على علم رسوله: شعبة ومالك ويحيى القطان. ١٣٩.

٥٦- قال مكحول: ما رأيتُ أعلمَ بسنةٍ ماضية من الشعبي. ١٤٥.

٥٧- ومنهم إمام أهل الكوفة سفيان الثوري، كان لا يرفع يديه.

وقد قال أبو عاصم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث. ولو كان الرفع ثابتًا غير منسوخ لما خفي على هؤلاء الأعلام، مع كثرتهم وكثرة من نزل بالكوفة من الصحابة، فقد ذكر بعض الحفَّاظ أنه نزل بها أربعمائة منهم، والناسُ في العلم تَبَعٌ لهذين المِصرَين المدينة والكوفة، وفقهاؤهما أئمة الناس، وهذان المِصران هما اللذان

كانا يتباريان، ويردّ بعضُهم على بعض، وكان علماء الكوفة يناظرون علماء المدينة ويبارونهم، وكان علماء المدينة لا يرون مقابلتهم غير علماء الكوفة ، فإياهم يقصدون ولهم يستعِدُّون، فَمَن الناسُ غير هؤلاء؟! ١٤٥.

٥٨- فأما أشْهَب بن عبد العزيز فكان من أفقه أصحابه وأشدّهم انتحالًا لمذهبه ونُصْرةً له، حتى إنه كان يدعو على الشافعي ويقول: اللّهُمَّ أمِتْه حتى لا يذهب علم مالك.

قال محمد بن عبد الله بن عبدالحكم: سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت، فذكرت ذلك للشافعي فقال متمثِّلًا:

تمنَّى رجالٌ أن أموت وإن أَمُت ... فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحَدِ

فقل للذي يَبْقَى خلافَ الذي مضى ... تهيَّأ لأخرى مثلها فكأنْ قَد

قال: فمات الشافعي، ثم مات أشهب بعده بثمانية عشر يومًا. ١٧٠.

٥٩- [ومع ذلك] فأشهب في الفقه والجلالة والإمامة بالمنزلة التي لا تخفى. وقد [فضَّله] ابنُ عبدالحكم على ابن القاسم في الفقه. ١٧١.

٦٠- وأما الإمام عبد الله بن وهب، فهو من أجلِّ أصحاب مالك أو أجلّهم على الإطلاق، وكان مالك يُجِلّه ويعظّمه ويسمِّيه: الفقيه. ١٧١.

٦١- قال أبو عمر: يقولون: إن مالكًا لم يكتب إلى أحد كتابًا يُعَنْوِنه بـ «الفقيه» إلا إلى ابن وهب.

وكان رجلًا صالحًا خائفًا لله تعالى.

كان سبب موته أنه قُرئ عليه كتاب الأهوال من «جامعه»، فأخذه شيء كالغَشْي، فحُمِل إلى داره، فلم يزل كذلك إلى أن قضى نَحْبَه. ١٧٢.

٦٢- فمن أبطل الباطل أن يكون عند أحدهم عن النبيﷺ سنة في قضيَّة ناسخة أو مُخصِّصة للعموم، ثم يروي للأمة المنسوخ والعام دائمًا، ولا يروي لهم الناسخ ولا المخصِّص ألبتة. هذا مما لا يُظَن بهم، ولا بمن هو دونهم ممن له لسان صِدْق في الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة/ ١٥٩]. ومعلوم أن الناسخ والمخصِّص أحق بالهدى من المنسوخ والعام، فروايته وتبليغه للأمة أوجب وأفرض من رواية المنسوخ، وبالله التوفيق. ١٨٨.

٦٣- وإبراهيمُ النخعي إنما شاهد فقهاء الكوفة [وهم] لم يرفعوا أيديهم، ولا ريب أن أهل الكوفة انفردوا عن سائر الأمصار بترك الرفع. ١٩٧.

٦٤- سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث. ١٩٨.

٦٥- ولا يجب على المصنّف أن يستوعب جميعَ أحاديث الباب. ٢٠١.

٦٦- وإنما أُنْكِر على ابن أبي الزناد بعضُ حديثه بالعراق لوهمٍ وقع فيه، وأبو بكر النّهشليّ فمعروف أيضًا بالوهم.

قال أبو حاتم بن حبّان: كان شيخًا صالحًا لكن غلب عليه التقشُّف حتى صار يَهِم وهو لا يعلم، فبطل الاحتجاج به. ٢٠٥.

٦٧- ولا ريب أن الجهالة المطلقة لا ترتفع عن الراوي إلا برواية ثقتين فصاعدا عنه. ٢٠٦.

٦٨- عن حفصة: أن رسول اللهﷺ قال: «إن عبد الله بن عمر رجلٌ صالح». ٢٠٩.

٦٩- قال ابن عمر: إني لأذكر حين أسلم عمر، فقالوا: صَبَأ عمر، فجاء العاصُ بن وائل فقال: صبأ عمر فَمَهْ، فأنا له جارٌ، فتركوه. ٢٠٩.

٧٠- قال سعيد بن المسيّب: لو شهدتُ لأحدٍ أنه من أهل الجنة لشهدت لابن عمر. ٢٠٩.

٧١- وقال جابر بن عبد الله: لم يكن أحدٌ منهم أَلْزَمَ لطريق رسول اللهﷺ ولا أَتْبعَ من ابنِ عمر». ٢١٠.

٧٢- وقد قال الزّهري: لا نَعْدِل برأي ابن عمر، فإنه أقام بعد رسول اللهﷺ ستين سنة فلَمْ يخفَ عليه شيءٌ من أمره ولا من أمر أصحابه. ٢١٠.

٧٣- قال ابن عبدالبر: وقد قيل: إن إسلامه كان قبل إسلام أبيه، ولا يصح، وكان عبدالله بن عمر ينكر ذلك. وأصحّ من ذلك قولهم: إن هجرته كانت قبل هجرة أبيه. ٢١٠.

٧٤- عن مجاهد: أدرك ابن عمر الفتحَ وهو ابن عشرين سنة. ٢١٠.

٧٥- وقال ميمون بن مِهْران: ما رأيت أورِع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس. ٢١١.

٧٦- قال مالك بن أنس: بلغ ابن عمر ستًّا وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة ونَشَر نافعٌ عنه علمًا جمًّا. ٢١١.

٧٧- والمقصود أن وائل بن حُجر من مشاهير الصحابة باتفاق أهل العلم، والأمةُ كلها تلقّت رواياته بالقبول دون الردّ والدفع. ٢١٤.

٧٨- ولو ساغ ردّ كلّ سنة خالفها واحد من الصحابة لرُدّ من السنة شيء كثير، فإنه قلّ أحدٌ من الصحابة ومن بعدهم إلا وقد خَفِي عليه بعضُ أمر رسول اللهﷺ. ٢١٨.

٧٩- قال أبو عمر بن عبد البر: "وما أعلم أحدًا من الصحابة إلا وقد شذّ عنه من علم الخاصة، والوارد بنقل الآحاد أشياء حفظها غيره، وذلك على مَن بعدهم أجْوَز، والإحاطة ممتنعة على كل أحد". ٢١٩.

٨٠- وفي الاحتجاج بأبي الزبير طريقة ثالثة، وهي طريقة جماعةٍ من حفّاظ المغرب: أن حديثه حجة إذا صرَّح بالسماع، أو كان من رواية الليث عنه خاصة، وهي

طريقة أبي محمد بن حزم، وأبي الحسن بن القطان ومن وافقهما، قالا: لأنه معروف بالتدليس، والمدلّس إنما يحتجّ من روايته بما صرّح فيه بالسماع. ٢٢٦.

٨١- والصواب الاحتجاجُ بأبي الزبير مطلقًا كما فعل مسلم وغيره؛ لأنه حافظ ثقة، والتدليس لا يُردّ به حديث الحفّاظ الأثبات، وقد احتجّ الناس بالأعمش، وبسفيان بن عيينة، وقتادة، وسفيان الثوري، والحَكَم، وعَمرو بن مرّة، وحُصين، والشعبي، وأبي إسحاق، وخلائق من الثقات المدلّسين الذين يَحتجّ بحديثهم أهلُ العلم. بل أكثر أهل الكوفة يدلّسون، ولم يسلم منهم من التدليس إلا نفرٌ يسير، فلو أسقطنا حديثَ المدلّس لذهب حديث هؤلاء وأضعافهم. ٢٢٧، بتصرف.

٨٢- والصواب عندنا في حديث المدلّسين والحديث المرسل: أن المدلّس إن كان عنده التدليس عن المتَّهمين والكذّابين والمجروحين والضعفاء لم يُقْبل تدليسه ولا إرساله، وإن كان لا يدلّس إلا عن ثقة لم يضرّ تدليسه، مثل: سفيان بن عُيينة وأضرابه، فإنه يدلّس عن مثله وعمن هو ثقة صدوق، فإنه يدلّس عن مثل [ق ٧٥] مَعْمر، ومِسْعر، ومالك بن مِغْول، وزائدة.

ومثل إبراهيم، فإنه إذا دلّس لم يدلس إلا عن ثقة. ٢٢٧.

٨٣- وتدليس المتقدِّمين كأبي الزبير، وإبراهيم، وطبقتهما، خير من تدليس المتأخّرين بطبقات، فلا يُسوّى بين التدليسين، والله أعلم. ٢٢٨.

٨٤- وأما حديث عبد الوهاب الثقفي، عن عبيدالله، عن نافع عنه: أنه كان يرفع يديه إذا سجد؛ فالزُّهريّ أحفظ وأثْبَت من عبد الوهاب الثقفي، وقد روى عن سالم عن أبيه، وعن نافع عنه: أنه كان لا يفعل ذلك في السجود. ٢٦٦.

٨٥- ولكلٍّ من علماء الإسلام اجتهادٌ يثيبه الله عليه، ويجمع له به بين أجرَين، أو

يقتصر به على أجر واحد. رضي الله عنهم أجمعين، وجزاهم أفضل جزاء المحسنين. ٢٦٨.

٨٦- ولا ريب أنّ الرّفع في الصلاة مراتب؛ أقواها: الرّفع عند تكبيرة الافتتاح، ويليه: الرّفع عند الرّكوع والرّفع منه، ويليه: الرّفع عند النهوض من الرّكعتين، ويليه: الرّفع عند السّجود والرفع منه. ومن تدبر الأحاديث ومخارِجَها ومراتبها تبين له ذلك، والله أعلم. ٢٧٠.

٨٧- ولا ريب أنَّ من الصحابة من كان لا يرفع يديه عند الرّكوع والرّفع منه، ولم يكن فيهم أحد يترك الرّفع عند افتتاح الصلاة، والرّفعُ فيه صحيح عن النبيّ ﷺ، ولم يعارضه شيء ألبتة، فهو أقوى من غيره، والله أعلم. ٢٧٠.

٨٨- قاله ابنُ المُنذر في «خلافه» قال: «لم يختلف أهل العلم أن النبي ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، واختلفوا في الحدِّ الذي يرفع إليه». وإذا كان مُجْمعًا عليه فمُنْكِره يكون مبتدعًا لمخالفته الإجماع. ٢٧٦.

٨٩- يستحبّ له أن يمدَّ أصابعه، ويضمَّ بعضها إلى بعض عند الرفع. هذا مذهب أحمد في إحدى الروايتين عنه، وأبي حنيفة وعليّ بن المديني وإسحاق. وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: الأفضل تفريقها، لما روى أحمد عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ إذا كبر نشر أصابعه. ٢٧٨.

٩٠- المستحبُّ أن يكون كفَّاه إلى جهة القبلة ولا يجعلهما إلى جهة أذنيه، نصَّ على ذلك أصحابنا والشافعية، وممن ذكره صاحب «التتمَّة».

وأما ما يفعله كثير من العامَّة من استقبال الأذنين بالكفين والأصابع فخلاف السنة، فإن الرّفع عبوديَّة اليدين كما تقدم، فينبغي أن يستقبلَ القبلةَ بهما كما

يستقبلها بجملة بدنه، ولهذا يستقبل القبلة بهما في ركوعه وسجوده، ويستقبلها بأطراف أصابع رجليه، كما في حديث أبي حُميد الساعدي في وصفه صلاة النبي ﷺ: «واستقبلَ بأطراف أصابعه القبلة». ٢٨١.

٩١- في ابتداء الرفع متى يكون؟

فالمنصوص عن أحمد أنه يبتدئه مع ابتداء التكبير وينهيه مع انتهائه. وهذا مذهب عليِّ بن المديني، والمنصوصُ عن الشافعي أنه يرفعهما مع ابتداء التكبير ويُثْبِتهما مرفوعتين حتى يفرغ منه، وذَكَر أصحابه في ذلك خمسة أوجه هذا أحدها، وصحَّحه البغويّ. ٢٨٢.

٩٢- إذا نسي الرفعَ حتى فات محلُّه لم يأت به بعده؛ لأنه سُنَّة فاتَ محلّها، فهي كالاستفتاح والاستعاذة إذا نسيهما، وكذلك إذا نسي الرَّمَل في الأشواط الثلاثة الأُول لم يأت به فيما بعدها، وكذلك كلُّ سنة فات محلُّها. ٢٩٢.

٩٣- قال صالح بن أحمد: قلت لأبي: كيف يضع الرّجل يديه بعدما يرفع رأسه من الرّكوع أيضع اليمنى على شماله أم يسدلها؟ فقال: أرجو أن لا يضيق ذلك إن شاء الله.

قال القاضي: فظاهر هذا أنه مُخيَّر في الوضع والإرسال، فإن اختار الوضع جاز؛ لأنها حالةُ قيامٍ في الصلاة فأشبه ما قبل الرّكوع، وإن اختار الإرسال جاز؛ لأنّها حاله بعد الرُّكوع، أشبه حالة السجود والجلوس. ٢٩٣.

٩٤- قال أبو داود: رأيت أحمد إذا فرغ من القنوت وأراد أن يسجد رفع يديه كما يرفعهما عند الرّكوع.

قال القاضي: ووجه هذا أن القنوت ذِكْرٌ طويل يُفْعَل حالَ القيام فهو كالقراءة،

وقد ثبت أنه يرفع للتكبير عقيب القراءة، فكذلك التكبير عقيب القنوت. ٢٩٤، بتصرف.

٩٥- ولنقتصر على هذا القَدْر بعد الاعتذار - لمن عساه يقف على هذا الكتاب - بقلّة البضاعة، وتشتُّت العَزَمات، وكثرة الصوارف عن حقِّ العلم وموجبه، وقلة الأعوان وكثرة المعارضات، وكلٌّ من هذه مُعادٍ للعلم ولطلبه. فما كان في هذا الكتاب من خطأٍ وزلل؛ فمن نفسي ومن الشطان، والله بريء منه ورسوله. وما كان فيه من صواب؛ فمن الله وحدَه وهو المانُّ به، والمُلْهِم له، والمُعِين عليه، والفاتح لأبوابه، والميسِّر لأسبابه، ولم أقصد فيه إلا نُصرة الحق دون التعصّب واتباع الهوى، فإنهما يصدَّان عن الحقّ، ويحرمان الأجر، ويبعدان عن الله ورسوله، ويوجبان مقته، ويخرجان صاحبهما عن درجة الوراثة النبوية، ويدخلانه في أهل الأهواء والعصبية. ٢٩٧.

[٢٠] (تهذيب سنن أبي داوود)

١- فإن أولى ما صُرِفت إليه العناية، وجرى المتسابقون في ميدانه إلى أفضل غاية، وتنافس فيه المتنافسون، وشمَّر إليه العاملون: العلمُ الموروث عن خاتم المرسلين ورسولِ رب العالمين، الذي لا نجاة لأحدٍ إلا به، ولا فلاح له في دارَيه إلا بالتعلّق بسببه، الذي من ظفِر به فقد فاز وغَنِم، ومن صُرِف عنه فقد خَسِر وحُرِم؛ لأنه قُطبُ السعادة الذي مدارها عليه، وآخيةُ الإيمانِ الذي مرجعه إليه، فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه مُحال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال. ٤/١.

٢- فحقٌّ على من كان في سعادة نفسه ساعيًا، وكان قلبه حيًّا واعيًا، أن يَرغب بنفسه عن أن يجعل كدَّه وسَعْيه في نُصرة من لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا، وأن لا ينزلها في منازل الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. ٥/١.

٣- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١]. فما ظنُّ مَن اتخذ غيرَ الرسول إمامَه، ونبذَ سنَّتَه وراء ظهره وجعل خواطرَ الرجال وآراءَها بين عينيه وأمامَه، فسيعلم يومَ العرضِ أيَّ بضاعةٍ أضاع، وعند الوزن ماذا أحضرَ مِن الجواهر أو خُرْثيّ المتاع!. ٥/١.

٤- ولما كان كتاب "السنن" لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِستاني ﷺ من الإسلام بالموضع الذي خصَّه الله به، بحيث صار حَكَمًا بين أهل الإسلام، وفصلًا في موارد النزاع والخصام، فإليه يتحاكم المنصفون، وبحكمه يرضى المحقّون؛ فإنه جَمَع شمل أحاديث الأحكام، ورتَّبها أحسن ترتيب، ونَظَمها أحسن نظام، مع انتقائها أحسن انتقاء، واطّراحه منها أحاديثَ المجروحين والضعفاء.

وكان الإمام العلامة الحافظ: زكيُّ الدين أبو محمد عبد العظيم المُنذريّ رحمه الله تعالى قد أحسن في اختصاره وتهذيبه، وعزو أحاديثه، وإيضاح علله وتقريبه، فأحسن حتى لم يكد يدع للإحسان موضعًا، وسَبَق حتى جاء مَن خَلْفه له تبعًا= جعلتُ كتابَه من أفضل الزاد، واتخذته ذخيرة ليوم المعاد.

فهذَّبتُه نحو ما هذَّب هو به الأصل، وزدْتُ عليه من الكلام على عللٍ سكت عنها أو لم يكملها، والتعرُّضِ إلى تصحيح أحاديثَ لم يصححها، والكلامِ على متون مشكلة لم يفتَحْ مقفَلَها، وزيادةِ أحاديثَ صالحةٍ في الباب لم يشر إليها، وبَسْطِ الكلام على مواضع جليلة لعل الناظر المجتهد لا يجدها في كتاب سواه، فهي جديرة بأن تُثْنى عليها الخناصر، ويُعَضّ عليها بالنواجذ. ٦/١.

٥- فأنا أبرأ إلى الله من التعصُّب والحميّة، وجَعْلِ سنةِ رسولهﷺ رافعةً لآراء الرجال، منزَّلة عليها، مَسُوقةً إليها. كما أبرأ إليه من الخطأ والزور والسهو. ٧/١.

٦- وتفرُّد الثقة لا يوجب نكارة الحديث. ١٦/١.

٧- ودع الظاهريةَ البحتةَ، فإنها تقسّي القلوب، وتحجبها عن رُؤية محاسن الشريعة وبهجتها، وما أودعته من الحِكَم والمصالح، والعدل والرحمة. ٦٧/١.

٨- فإن أبا عبد الله الجدليّ قد وثَّقه الأئمة: أحمد ويحيى، وصحَّح الترمذيُّ حديثَه، ولا يُعلم أحدٌ من أئمة الحديث طَعَن فيه.

وأما كونه صاحب راية المختار، فإن المختار إنما أظهر الخروج لأخْذِه بثأر الحسين والانتصار له مِن قَتَلَته.

وقد طعن أبو محمد بن حزم في أبي الطفيل، وردَّ روايته بكونه كان صاحب راية المختار أيضًا، مع أن أبا الطفيل كان من الصحابة، ولكن لم يكونوا يعلمون

ما في نفس المختار وما يُسِرُّه، فردُّ روايةِ الصاحبِ والتابعِ الثقةِ بذلك باطلٌ. ١٠٩/١.

٩- والإنصاف: أن تَكْتال لمنازعك بالصاع الذي تَكْتال به لنفسك، فإنّ في كلِّ شيء وفاءً وتَطْفيفًا. ١١٥/١.

١٠- فإن الجِلْد الذي في أسفل الجورب لا يسمى نعلًا في لغة العرب، ولا أطلق أحد عليه هذا الاسم. ١١٦/١.

١١- فإنّ بَقيَّة ثقة في نفسه صدوق حافظ، وإنما نُقِمَ عليه التدليس، مع كثرة روايته عن الضعفاء والمجهولين، وأما إذا صرَّح بالسماع فهو حجة. ١٢٢/١.

١٢- على أصلِ ابن حزمٍ، وأصلِ سائر أهل الحديث...عندهم جهالة الصحابي لا تقدح في الحديث، لثبوت عدالة جميعهم. وأما أصل ابن حزم، فإنه قال في كتابه في أثناء مسألة: كلُّ نساءِ النبيّ ﷺ ثقاتٌ فواضلُ عند الله عز وجل، مقدَّسات بيقين. ١٢٣/١، بتصرف.

١٣- ليس على المرأة أن تنقض شعرها لغسل الجنابة، وهذا اتفاق من أهل العلم، إلا ما يُحكى عن عبد الله بن عَمرو وإبراهيم النخعي أنهما قالا: تنقضه، ولا يُعلَم لهما موافق. وقد أنكرت عائشةُ على عبد الله قولَه، وقالت: "يا عجبا لابن عَمرو هذا! يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، أوَلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن!؟ لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد ما أزيد أن أُفْرِغ على رأسي ثلاث إفراغات" رواه مسلم. ١٤٤/١.

١٤- فإنّ أبا حاتم الرازي يجهِّل رجالًا وهم ثقات معروفون، وهو متشدِّد في الرجال. وقد وثّق المنذرَ جماعةٌ وأثنوا عليه وعرفوه. ١٦٠/١.

١٥- وأما زهير بن محمد فاحتجَّ به الشيخان وباقي الستة، وعن الإمام أحمد فيه أربع

روايات:

إحداها: أنه ثقة. والثانية: مستقيم الحديث. والثالثة: مقارب الحديث. والرابعة: ليس به بأس. وعن يحي بن معين فيه ثلاث روايات:

إحداها: صالح لا بأس به. والثانية: ثقة. والثالثة: ضعيف.

وقال عثمان الدارمي: ثقة صدوق، وقال أبو حاتم: محلّه الصِّدْق، وقال يعقوب بن شيبة: صدوق صالح الحديث، وقال البخاري: ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير، وما رواه عنه أهل البصرة فإنه صحيح. ١٦٦/١.

١٦- ولو كان كُلُّ رجلٍ ضعَّفَه رجلٌ سقط حديثُه لذهبت عامَّة الأحاديث الصحيحة من أيدينا، فقلّ رجلٌ من الثقات إلا وقد تكلَّم فيه آخر.

١٧- وأما قوله: "كان سفيان يحمل عليه"؛ فإنما كان ذلك من جهة رأيه لا من جهة روايته، وقد رُمِي جماعةٌ من الأئمة المحتجّ بروايتهم بالقدَرِ كابن أبي عَروبة، وابن أبي ذِئب وغيرهم. وبالإرجاء كطَلْق بن حبيب، وغيره. وهذا أشْهر من أن يُذْكر نظائره، وأئمة الحديث لا يردّون حديثَ الثقة بمثل ذلك. ١٩٢/١.

[٢١] (الكلام على مسألة السماع)

١- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩]. وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، وإلى سنته بعد مماته. ١١.

٢- وتأمل قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كيف أعاد الفعل وهو طاعة الرسول، ليدل أنه يُطاع استقلالًا، وإن أمر بما ليس في القرآن الأمرُ به، ونهى عما ليس في القرآن النهيُ عنه، فإنه أوتي الكتابَ ومثلَه معه، ولم يُعِد الفعلَ في طاعة أولي الأمر، بل جعلها ضمنًا وتبعًا لطاعة الرسول، فإنهم إنما يُطاعون تبعًا لطاعة الرسول إذا أمروا بما أمر به، ونهوا عما نهى عنه، لا تجب طاعتهم استقلالًا في كل ما يأمرون به وينهون عنه. ١٢.

٣- وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، وهذا يعمُّ دقيقَ ما تنازع فيه المسلمون وجليلَه، لا يخصُّ شيئًا دون شيء، فمن ظن أن هذا في شرائع الإسلام دون حقائق الإيمان، وفي أعمال الجوارح دون أعمال القلوب وأذواقها ومواجيدها، أو في فروع الدين دون أصولِه وبابِ الأسماء والصفات والتوحيد= فقد خرج عن موجب الآية علمًا وعملًا وإيمانًا. ١٣.

٤- وكل ما الناسُ فيه فإمّا طاعةٌ للرسول، وإما هوًى للنفوس، لا يخرج عن الأمرين، وكل ما ليس بطاعة للرسول فهو هوى للأنفُس، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]. ١٤.

٥- وما دعا إليه الرسول ﷺ هو حياة القلوب، ونجاة النفوس، ونور البصائر، وما يدعو إليه مخالفوه فهو موت القلوب، وهلاك النفوس، وعَمَى البصائر. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]. ١٦.

٦- فإنه سبحانه يُعاقِب القلوب بإزاغتها عن هداها ثانيًا، كما زاغت هي عنه أولًا. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]. ١٦.

٧- يقول ابن القيم ﷺ عن الغناء:

فكم أفسدَ من دين، وأمات من سنة، وأحيا من فجور وبدعة، وكم هُدِمَ به من مرضاة الله ورسوله، وبُنِي به من مساخطه ومساخط رسوله، ولا إله إلا الله كم جَلَبَ من شركٍ، وأخفَى من توحيد، وكم فيه من فتحٍ لطرق الشيطان، وصَدٍّ عن سبيل الله وعن الإيمان، وكم أنبتَ في القلب من نفاقٍ، وغرَسَ فيه من عداوةٍ لدين الله وشقاق، وكم رُفِع به من رُقيةٍ للزنا والحرام، وتُسُهِّلَ به من طريقٍ إلى ما كرهه الله من المعاصي والآثام، وكم قرَّتْ به للشيطان وحزبه من عيون، وتقرَّحتْ به لأولياء الله وحزبه من جُفون، وكم مالتْ به الطباعُ إلى ما حرَّمه الله ورسوله عليها، وكم سَكِرَتْ به النفوسُ فعَربدتْ بالمحارم، وانقادتْ قَسْرًا إليها. ٢١

٨- يقول ابن القيم ﷺ عن الغناء في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

وأربابُ الخبرة من أهله يعلمون أن سُكْر السماع للأرواح، أعظمُ من سُكْر الأبدان والنفوس بشرب الرّاح، وأن سُكر الشراب يَستفيق صاحبُه عن قريب، وسُكر السماع إذا تمكَّن من الروح لم يَبقَ لها في الإفاقة نصيب. فلو سألتَ الطباعَ

ما الذي خنَّثَها، وذكورةَ الرجال ما الذي أنَّثَها، لقالتْ: سَلِ السماعَ فإنَّه رُقية الزنا وحادِيه، والداعي إلى ذلك ومُناديه. ٢١.

٩- قال ابن القيم عن الغناء في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

ولو لم يكن فيه من المفاسد إلَّا ثِقلُ استماعِ القرآن على قلوب أهلِه، واستطالتُه إذا قُرئ بين يَدَيْ سماعِهم، ومرورُهم على آياته صُمًّا وعميانًا، لم يَحصُل لهم منه ذوقٌ ولا وَجْدٌ ولا حلاوةٌ، بل ولا يُصغِي أكثر الحاضرين أو كثيرٌ منهم إليه، ولا يعرفون معانيه، ولا يَغضُّون أصواتهم عند تلاوته. ٢٢.

١٠- فلغيرِ الله لا لله كم من عيونٍ تَسْكُبُ غَرْبَ مدامعَ، لم تَفِضْ بقطرةٍ منها على سماع القرآن. وكم من زَفَراتٍ متردّدة وأنفاسٍ متصاعدة لم يتصاعد منها نفسٌ عند تلاوة كلام الرحمن، وكم من شوقٍ ووجْدٍ ولهيبِ أحشاءٍ لا يُوجد منه شيء عند ذكر رب العالمين، ولا يثور ويتحرك إلّا عند سماع المُبطِلين:

تُلِي الكتابُ فأطرقُوا لا خِيْفةً ... لكنه إطراقُ ساهٍ لاهِي

وأتَى الغناءُ فكالدِّبابِ تَراقصُوا ... واللهِ ما رَقصُوا لأجلِ الله

دفٌّ ومِزمارٌ ونَغْمةُ شاهدٍ ... فمتى رأيتَ عبادةً بملاهي

ثَقُلَ الكتابُ عليهمُ لمَّا رأوا ... تقييدَه بأوامرٍ ونواهي

والرقصُ خَفَّ عليهمُ بعد الغِنا ... يا باطلًا قد لاقَ بالأشباه

يا أمةً ما خانَ دينَ محمدٍ ... وجَنَى عليه ومَلَّهُ إلا هِي. ٢٢.

١١- قال عبد الله بن مسعود: "الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب كما يُنْبِت الماءُ البقلَ"، وأيُّ نفاقٌ فوقَ هذا النفاق؟. ٢٤.

١٢- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فالمكاء الصفير، والتصدية التصفيق. فمن اتخذ الصفير بالشبابة والتصفيق بالأكفِّ دينًا، فقد زاحم هؤلاء. ٢٧.

١٣- وقد فسر غير واحد من السلف لَهْوَ الحديثِ بأنَّه الغناء، وروي في ذلك حديث مرفوع من حديث عائشة أم المؤمنين: "إن الله حرَّم القينَة، وبيعَها وثمنَها وتعليمَها والاستماعَ إليها"، ثمّ قرأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية. ٢٨.

١٤- وقال عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١]: إنَّ السمود هو الغناء. يقال: سَمَدَ فلان إذا غنَّى.

وقد فُسّر السمود باللهو، وفسّر بالإعراض، وفسّر بالغفلة، وفسّر بالأشر والبطر، ولا ينافي تفسيره بالغناء، فإن الغناء ثمرة ذلك كله، فإن الحامل عليه اللهو والغفلة والإعراض والأشر والبطر، وذلك كله منافٍ للعبودية. ٢٩.

١٥- وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مجاهد: هو الغناء والمزامير. وقد سماه النبي ﷺ: "صوتًا أحمَق فاجرًا"، ولو كان مباحًا لما كان فاجرًا. ٣٠.

١٦- فإن في النفس قوة الطرب وقوة الحزن والأسف، فإذا وردَ عليها وارد أثار منها ذلك، وأثَّر فيها هذا الصوت وتوابعه، وهذا الصوت وتوابعه بحسب قوة الوارد وضعف النفس، فاستفزَّها الشيطان حينئذٍ، ونال منها مراده بمعصية الله والخروج عن أمره في هذه الحال وهذه الحال. ٣١.

١٧- بالصبر والاسترجاع تندفع المصيبة عن القلب أو تَخِفُّ. ٣١.

١٨- الغناء والسماع الشيطاني وآلات اللهو إنما نصبَها الشيطان مضادةً لأمر الله ومعارضةً لما شرعه لعباده، وجعله سببَ صلاح قلوبهم وأديانهم.٣٢.

١٩- وقد قال الشافعي في كتاب أدب القضاء: إن الغناء لهوٌ مكروه يُشبِه الباطل، ومَن استكثر منه فهو سفيه تُردُّ شهادته. قال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُردّ شهادته. وقال: هو دياثة، وأخاف أن يكون ديُّوثًا.٣٤.

٢٠- وقال الشافعي: "خرجتُ من بغداد وخلَّفتُ بها شيئًا أحدثته الزنادقة ويسمونه التغبير، يصدُّون الناسَ به عن القرآن". هذا والتغبير ضربٌ بقضيب على جلدٍ أو مخدَّة، يخرج له صوت، وينشدون معه أشعارًا مرقِّقة مزهِّدة. ٣٤.

٢١- قال أبو موسى: قال الشافعي: بالعراق زنادقة وضعوا التغبير، وفي رواية: أحدثوا القصائد، ليشغلوا الناس عن القرآن. قال: وسئل أحمد بن حنبل عن التغبير، فقال: بدعة، إذا رأيت إنسانًا منهم في طريقٍ فخذْ في طريق أخرى. ٣٨.

٢٢- وقال أبو الحسن بن القصار إمام المالكية بالعراق: سئل مالك عن السماع، فقال: لا يجوز. قيل: فإن بالمدينة قومًا يسمعون ذلك. قال: إنما يسمع ذلك عندنا الفسَّاق. قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] أهو حق؟ فقال السائل: لا. ٣٨.

٢٣- وفي مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن الغناء، فقال: "الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يُعجِبني". ٣٨.

٢٤- مما ذكره ابن القيم في كتابه "الكلام على مسألة السماع" من الأبيات:

أبـتْ غَلَبـاتُ الشـوقِ إلا تقرُّبـا إليـك وذاك العـذلُ إلا تجنُّبـا

وما كان صدّي عنك صدَّ ملالـةٍ ولا ذلك الإعراضُ إلا تحبُّبـا. ٤٨.

٢٥- مما ذكره ابن القيم في كتابه "الكلام على مسألة السماع" من الأبيات:

حبيبٌ تركتُ النـاسَ لمـا عرفتُـه كـأنهمُ مـا جـفّ مـن زادِ قـادمِ

وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركِه في عمـريَ المتقـادم. ٤٨.

٢٦- مما ذكره ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع" :

تمـــوتُ النفـــوسُ بأَوصَـــابها وتَكْـــتُم عُوّادَهـــا مـــا بهـــا

ومـــا أنصـــفَتْ مُهجـــةٌ تشـــتكي جَواهـــا إلى غـــير أحبابِهـــا. ٥٠.

٢٧- مما ذكره ابن القيم من الأبيات في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

إذا غبتَ عن عيني تملَّا بك الفِكْـرُ وإن لم يَزُرني الطيفُ طافَ بك السِّرُّ

فـكُلِّي لسـانٌ عـن هـواك مخـبِّرٌ وكُلِّيَ قلبٌ أنتَ في طَيِّهِ نَشْـرُ. ٥١.

٢٨- مما ذكره ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

يـــا غاديًـــا في غفلـــة ورائحـــا إلى مـــتى تَستحْســـنُ القبائحـــا

وكـمْ إلى كـمْ لا تخـافُ مَوقفًـا يَســـتنطِقُ الله بـــه الجوارحـــا

واعجبًـا منـك وأنـت مُبصِـــرٌ كيف تجنَّبتَ الطريقَ الواضحا. ٥٢.

٢٩- مما ذكره ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

فـــأيُّ فريقَيْنَـــا أحـــقُّ بأَمْنِـــهِ إذا بعـثَ الله العبـادَ ويَجمَـعُ. ٥٤.

٣٠- قال الجنيد: "إذا رأيت المريد يسمع السماع، فاعلم أنَّ فيه بقايا من اللعب. ٥٦، بتصرف.

٣١- وقال أبو عبد الله بن باكُوَيه في كتاب حكايات الصوفية: سمعت أحمد بن محمد

البردعي، يقول: سمعت المرتعش، يقول: سمعت أبا الحسين النوري يقول لبعض أصحابنا: إذا رأيتَ المريد يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية فلا ترجُ خيره. ٥٦.

٣٢- فإنَّ الله لا يُتقرب إليه إلَّا بما يحبه ويرضاه، لا بما يذوقه كل أحد ويستحسنه ويهواه. ٦١.

٣٣- قال عارف القوم وسيدهم بلا مدافع، الشيخ عبد القادر الكيلاني بعد ذكره آداب السماع: "ولو صدق القوم في قصدهم وتجردهم وتصوفهم، لما انزعجوا في قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كتاب الله ﷻ...". ٦٤.

٣٤- وليس الشأن في أنك تريد الله، بل تريد ما يريد الله. ٦٥.

٣٥- وأصحاب الإرادة ثلاثة أنواع: المريدون لله، والمريدون من الله، المريدون لما يريد الله، وهؤلاء هم أولياء الله المقربون، وهم أهل الإرادة الصحيحة، فإنهم واقفون مع مراد الله الديني الذي يحبه ويرضاه منهم. ٦٦.

٣٦- مما استشد به ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

أقـول لِلَّائـمِ المُهـدِي ملامتَـه ذُقِ الهوى وإنِ اسْطَعْتَ الملامَ لُمِ. ٦٧.

٣٧- مما ذكره ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

أجـدُ الملامـةَ في هـواك لذيـذةً حبًّا لذكـرك فليَلُمْـني اللُّـوَّمُ. ٦٧.

٣٨- مما استشهد به ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

سـارتْ مشـرِّقةً وسِرتُ مغرِّبًـا شتَّانَ بـين مُشرِّقٍ و مُغـرِّبِ. ٦٨.

٣٩- الحقيقة بلا شريعة خيال باطل وسراب، والشريعة بلا حقيقة قِشْر قد جُرِّد من اللباب، وأن الأمر إنما قام بالحقيقة الباطنة وعليها الثواب والعقاب، وبالشريعة الظاهرة وهي مظهر الأمر والنهي والحكم والأسباب، وهي بمنزلة البدن،

والحقيقة الإيمانية بمنزلة الروح، والروح لا قِوامَ لها بدون البدن، وبدنٌ لا روحَ فيه من جملة الأموات. ٦٨.

٤٠- والدين ينتظم الأمرين انتظامًا واحدًا، وله جسد وروح وقلب، فجسده الإسلام، وروحه الإيمان، وقلبه الإحسان، فالإسلام: الشرائع الظاهرة العاصمة للدم والمال، والإيمان: الحقائق الباطنة المُنجِية من النار، والإحسان: المقامات العالية التي ينال بها الدرجاتِ العلى، والقربَ من الله سبحانه، والدخولَ في زمرة المقربين من عباده. ٦٨.

٤١- مما استشهد به ابن القيم من جميل الشعر ورائقه في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

لها أحاديثُ من ذِكراك تَشْغَلها ... عن الشرابِ وتُلْهِيها عن الزادِ

لها بوجهكَ نورٌ تَستضيءُ به ... ومن حديثك في أعقابها حَادِي

إذا شَكَتْ من كَلالِ السير أوعدَها ... روحَ القدومِ فتَحْيا عند ميعاد. ٧٠.

٤٢- إذا نحن أدلجنا وأنت إمامُنا ... كفَى بالمطايا طِيبُ ذكراك حاديَا

وإن نحن أضللنا الطريقَ ولم نجدْ ... دليلًا كفانا نورُ وجهك هاديَا

وإذا كان حُداء الإبل يطيب لها السير، ويهون عليها حمل المشاقّ على غلظ أكبادها وكثافة طباعها، فما الظن بمَن أذابت نارُ المحبة قسوةَ قلبه، ولطفت طباعه إذا حدا له الحادي بما يناسب حاله. ٧٠.

٤٣- وقد علم أرباب الخبرة من السماعاتية أن سماعًا لا يكاد يخلو من عشق صورة البتة، إمّا حلالًا وإمّا حرامًا، وغالب عشاق الصور إنما يتعلق عشقُهم الصورَ المحرمة، وهم أركان السماع وأهل الذوق فيه. ٧٤.

٤٤- وأعظم محرِّكات الهوى ودواعيه ثلاثة أشياء تُسْكِر الروح: النظر واستماع الغناء وشرب الخمر، فهذه الثلاثة هي أقوى أسباب العشق والفجور، والنفس الأمَّارة محبة لها مؤثرة لها، فجاء الشيطان إلى النفوس ودعاها من هذه الأبواب الثلاثة. ٧٥.

٤٥- مما ذكره ابن القيم من الشعر في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

بَرِئنا إلى الله من معشرٍ ... بهم مرضٌ من سماعِ الغنا

وكم قلتُ يا قومِ أنتم على ... شفا جُرُفٍ فاسْتَهانوا بنا

ولما استمرُّوا على غيِّهم ... رجعنا إلى الله في رُشْدنا

فعِشنا على ملة المصطفى ... وماتوا على تَاتِنا تَنْتَنا. ٨٢.

٤٦- قال ابن القيم عن الغناء في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

ومن مفاسده: أنَّه يُثقِل على القلوب الفكرَ في معاني القرآن وحقائق الإيمان، فبحسب انصرافه إلى السماع يكون انصرافه عن ذلك، فمستقِلٌّ ومستكثر، وكذلك يُثقِل على اللسان ذكرَ الله، وإن خف الذكر على لسانه كان ذكرًا مجردًا عن مواطأة القلب للسان، وهذا أمر يعلمه السماعي الصادق من نفسه، ولا يمكنه جحده بقلبه، فما اجتمع السماع والذكر والقرآن في موطن إلا وطردَ أحدهما الآخر، فلا يجتمعان إلا حربًا، لا يجتمعان سلمًا قط. ٨٢.

٤٧- قال ابن القيم عن الغناء في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

ومن مفاسده: أنَّه يميل بسامعه إلى اللذات العاجلة، ويدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات بحسب الإمكان، ولا يَردعُ سامعَه عن استيفائها إلا عصمة عجز، أو فقر جائحة، أو خوف عقوبة عاجلة، أو فقر، أو فضيحة تُذهِب الرئاسة والمروءة، أو

خوف عقاب الله في الدار الآخرة، إن قوي وارد الإيمان على وارد السماع، وإلا قالت النفس لا أبيع حاضرًا بغائب ولا نقدًا بنسيئة. ٨٣.

٤٨- ومعظم هذه اللذات التي يدعو إليها السماع لذة المنكح، وليست تمام لذته إلا في المتجددات، وإن كانت القديمات أجمل منهن، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحلّ غالبًا، فيتقاضى السماع والطباعُ اجتلابَها من المحرمات. ٨٣.

٤٩- قال السلف الصالح: "الغناء رقية الزنا". وبين الغناء وشهوة الجماع ولذته أقربُ نسبٍ، من جهة أنَّ الغناء لذة الروح، والجماع أكبر لذات النفس، فيجتمع داعي اللذتين على طبع مستعد ونفس فارغة، فيجد الداعي القوي محلًا فارغًا لا مدافع له، فيتمكن منه، كما قيل:

أتاني هواها قبلَ أن أعرِفَ الهوى ... فصادفَ قلبًا فارغًا فتمكَّنا. ٨٤.

٥٠- والعارف من نظر في الأسباب إلى غاياتها ونتائجها، وتأمل مقاصدها وما تؤول إليه، ومن عرف مقاصد الشرع في سَدِّ الذرائع المفضية إلى الحرام قطع بتحريم هذا السماع، فإنَّ النظر إلى الأجنبية واستماع صوتها لغير حاجة حرامٌ سدًّا للذريعة، وكذلك الخلوة بها. ٨٤.

٥١- ومحرمات الشريعة قسمان: قسم حرم لما فيه من المفسدة، وقسم حرم لأنَّه ذريعة إلى ما اشتمل على المفسدة. ٨٤.

٥٢- فإن سُكر الخمر إفاقةُ صاحبه سريعة وسُكر السماع لا يستفيق صاحبه إلا في عسكر الهالكين. ٨٦.

٥٣- والتحقيق في هذا السماع أنه مركب من شبهة وشهوة، وهما الأصلان اللذان ذمَّ الله من يتبعهما ويُحكِّمهما على الوحي الذي بعث الله به أنبياءه ورسله. قال

تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣] فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا. ٩٢.

٥٤- قال عبد الله بن مسعود: أتدرون ما ميت الأحياء؟ قالوا: لا، قال: هو الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. وقالوا له: يا أبا عبد الرحمن! هلك مَن لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر، فقال: هلك مَن لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر. ٩٧.

٥٥- والسلف الصالح كانوا يجدون الأذواق الصحيحة المتصلة بالله في الأعمال الصحيحة المشروعة، وفي قراءة كتاب الله وتدبره واستماعه، وفي مزاحمة العلماء بالركب، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحب في الله والبغض فيه، وتوابع ذلك. ٩٩.

٥٦- فشتان بين ذوق الألحان وذوق القرآن. ١٠٠.

٥٧- فوالله لا يجتمع محبة سماع الشيطان وكلام الرحمن في قلب رجل واحد أبدًا، كما لا تجتمع بنتُ عدو الله وبنت رسول الله عند رجل واحد أبدًا.

أنتَ القتيـلُ بكـل مـن أحببتَـه فاخترْ لنفسك في الهوى من تَصطفِي

١٠١.

٥٨- وكان عثمان بن عفان يقول: لو طهرتْ قلوبنا لما شبعتْ من كلام الله. وإي والله! كيف تشبع من كلام محبوبهم وفيه نهاية مطلوبهم؟ وكيف تشبع من القرآن وإنما فُتِحت به لا بالغناء والألحان؟

إذا مرِضْـــنا تـــداوينَا بـــذكرِكُمُ فإن تركناه زادَ السُّقْم والمرضُ. ١٠٢.

٥٩- قد علم الذائقون من أصحاب السماع أنه ما وَجَدَ صادقٌ في السماع الشعري وجدًا وتحرك به إلا وَجَدَ عند انقضائه ومفارقةِ المجلس قبضًا على قلبه، ووجد نوعَ استيحاشٍ وأحسَّ ببعده، ولا يتفطنُ لهذا إلا من في قلبه حياة وطلب، وإلا فـ ما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ. ١٠٤.

٦٠- ولا ريب أن الصادق قد يجد في سماع الأبيات ذوقًا صحيحًا إيمانيًا، ولكن ذلك بمثابة من سُقِيَ عسلًا في إناء نجس. ١٠٧.

٦١- وأمَّا صاحب السماع القرآني الذي ذوقه وشربه منه، فهو يشرب الشراب الطهور في أنظف إناء وأطيبه. ١٠٨.

٦٢- ولا ريب أن الصلاة قرة عيون المحبين ولذة أرواح الموحدين، ومحكُّ أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمته المهداة إلى عبيده. ١٠٩.

٦٣- وإذا يبس القلبُ تعطلتِ الأغصانُ من أعمال البر، لأن مادة القلب وحياته قد انقطعت منه، فلم تنتشر في الجوارح، فتحمل كلُّ جارحة ثمرَها من العبودية. ١١٢.

٦٤- ولله في كل جارحة من جوارح العبد عبوديةٌ تخصُّه، وطاعة مطلوبة منها، خُلِقت لأجلها وهُيِّئتْ لها. ١١٢.

٦٥- فإن العبد خُلِق للعبادة والطاعة لا للبطالة، وأبغض الخلق إلى الله البطَّال الذي لا في شغل الدنيا ولا في سعي الآخرة، فهذا كَلٌّ على الدنيا والدين. ١١٣.

٦٦- وكان سرُّ الصلاة ولبُّها إقبال القلب فيها على الله وحضوره بكليته بين يديه. ١١٥.

٦٧- فبالوضوء يتطهر من الأوساخ ويَقدم على ربه متطهرًا، والوضوء له ظاهر وباطن، فظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسرُّه طهارة القلب من أوساخه وأدرانه بالتوبة. ولهذا يقرن سبحانه بين التوبة والطهارة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ١١٧.

٦٨- ومن ذاق طعمَ الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما، كما لا يقوم غير القيام والركوع والسجود مقامها، فلكل عبودية من عبودية الصلاة سرٌّ وتأثير وعبوديةٌ [٥١ ب] لا تحصل من غيرها، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووَجْدٌ يخصها. ١٢٣.

٦٩- فعند قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ تجد تحت هذه الكلمة إثباتَ كل كمال للرب تعالى فعلًا ووصفًا واسمًا، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلًا ووصفًا واسمًا. ١٢٣.

٧٠- وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر العبد ويتضاءل بحيث يمحو تصاغُره كلَّ تعظيم منه لنفسه، ويُثبِت مكانه تعظيمَه لربه، وكلما استولى على قلبه تعظيمُ الرب ازداد تصاغره هو عند نفسه، فالركوع للقلب بالذات والقصد، وللجوارح بالتبع والتكملة. ١٣٢.

٧١- ولما بنيت الصلاة على خمس: القراءة والقيام والركوع والسجود والذكر، سُمِّيت باسم كل واحد من هذه الخمس، فسميت قيامًا كقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل: ٢] وقراءةً كقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]، وركوعًا كقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣] وسجودًا كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٨]، وذكرًا

كقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. ١٣٥، بتصرف.

٧٢- قال ابن القيم عن الصلاة في كتابه "الكلام على مسألة السماع":

وأشرف أفعالها السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ افتتحت بالقراءة وختمت بالسجود، ووضعت الركعة على ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود. ١٣٥.

٧٣- ولما كان سجود القلب خضوعه التام لربه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم اللقاء. كما قيل لبعض السلف: هل يسجد القلب؟ قال: إي والله! سجدة لا يرفع رأسه منها حتى يلقى الله. ١٣٤.

٧٤- والنفس من شأنها الإباق والخروج من رِقّ العبودية، وتضييع حقوق الله التي قبلها، والقلب شريكها إن قوي سلطانها وأسيرها، وهي شريكه وأسيره إن قوي سلطانه. ١٣٧.

٧٥- وسرُّ الصلاة وروحُها ولبُّها هو إقبالُ العبد على الله بكلّيته، فكما أنه لا ينبغي له أن يَصرِفَ وجهه عن قبلة الله يمينًا وشمالًا، فكذلك لا ينبغي له أن يَصرِفَ قلبه عن ربه إلى غيره؛ فالكعبة التي هي بيت الله قبلةُ وجهه وبدنه، ورب البيت تبارك وتعالى هو قبلة قلبه وروحه، وعلى حسب إقبال العبد على الله في صلاته يكون إقبال الله عليه، وإذا أعرض أعرض الله عنه. ١٤٥.

٧٦- وللإقبالِ في الصلاة ثلاثُ منازلَ: إقبالٌ على قلبه، فيحفظه من الوساوس والخطراتِ المبطلةِ لثواب صلاته أو المُنقِصَة له، وإقبالٌ على الله بمراقبتِه حتى كأنه يراه، وإقبالٌ على معاني كلامه وتفاصيل عبوديةِ الصلاة ليُعطِيها حقَّها،

فباستكمالِ هذه المراتب الثلاث تكون إقامةُ الصلاة حقًّا، ويكون إقبالُ الله على عبده بحسب ذلك. ١٤٥، بتصرف.

٧٧- فإذا تلا كلامه فإقباله على معرفته من كلامه، حتى كأنه يراه ويشاهده في كلامه، فهو كما قال بعض السلف: "لقد تجلَّى الله لعباده في كلامه". فهو في هذه الحال مُقبِلٌ على ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه. ١٤٦.

٧٨- فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله، وإقبال الله سبحانه على العبد، وفي الإقبال جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال. ١٤٩.

٧٩- وقيل لأبي الدرداء: ما لك لا تشعر؟ فإنه ليس رجل له بيت في الأنصار إلا وقد قال شعرًا، قال: وأنا قلتُ، ثم أنشد:

يريد المرءُ أن يُعطَى مُناهُ ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا. ١٨٦.

٨٠- وأنشد خُبيب عند موته تلك الأبيات المعروفة التي يقول فيها:

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا ... على أيِّ جنبٍ كان في الله مَصْرعي

وذلك في ذات الإله وإن يَشَأْ ... يُبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ. ١٨٧.

٨١- قال الشافعي ﷺ: الشعر كلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيحه. ١٨٩.

٨٢- وقال أبو حفص النيسابوري: من لم يَزِنْ أفعاله وأحواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تَعُدَّه في ديوان الرجال. ١٩٨.

[٢٢] (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)

١- والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيدة.

فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام والسنة ... والنعمة الثانية: النعمة المقيدة، كنعمة الصِّحة والغِنى وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة الولد والزوجة الحسنة وأمثال هذا.

فهذه النعمةُ مشتركةٌ بين البر والفاجر والمؤمن والكافر. ٣، بتصرف.

٢- وقال عمر بن عبد العزيز: "إن للإيمان حدودًا وفرائض وسننًا وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان". ٦.

٣- ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾:

ونعمة الله أعيانٌ وأوصافٌ ومعانٍ. ٧.

٤- وأكثر اختلاف الناس من جهتين إحداهما: اشتراك الألفاظ وإجمالها. والثانية: من جهة الإطلاق والتفصيل. ٩.

٥- وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته: الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحًا، حتى إن القلب ليرقص فرحًا ــ إذا باشر روح السنة ــ أحزن ما يكون الناس، وهو ممتلئ أمنًا أخوف ما يكون الناس. ١٠.

٦- قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام/ ١٢٢] فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه. ١١.

٧- فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمدًا ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلَّب في خمس ظلمات: قوله ظُلْمة، وعمله ظُلمة، ومدخله ظُلمة، ومخرجه ظُلمة، ومصيره إلى الظُّلمة، فقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفَّاشيَّة ما بعث الله به محمدًا ﷺ من النور جَدَّ في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي أنسب به وأولى، كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم. ٣٣.

٨-فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى والتعصب للآراء بربه سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾ ؟. ٨٣.

٩-وملاك النجاة والسعادة والفوز بتحقيق التوحيدين...أحدهما: التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي... والتوحيد، الثاني: عبادته وحده لا شريك له، وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضى به ربًّا وإلاهًا ووليًّا، وأن لا يجعل له عدلًا في شيء من الأشياء. ٨٤، بتصرف.

١٠- قال- يعني ابن تيمية -: وأول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة القدر والإرجاء، ثم بدعة التشيع، إلى أن انتهى الأمر إلى الاتحاد والحلول وأمثالهما. ٣٣١، بتصرف.

[٢٣] (الفروسية المحمدية)

١- محمد... فهو أكمل الناس خَلْقًا، وأحسنهم خُلُقًا، وأشجعهم قلبًا، وأجودهم كفًّا، وألينهم عريكةً، وأوسعهم صدرًا، وألطفهم عِشْرةً، وأفصحهم لسانًا، وأثبتهم جنانًا، وأشرفهم بيتًا ونسبًا. ٥.

٢- فهو مُحَمَّدُ بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤيّ بن غالب بن فِهْر بن مالِك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَد بن عدنان. ٦.

٣- فإن الله تعالى أقام دين الإسلام بالحجَّة والبرهان، والسَّيف والسِّنان. ٦.

٤- وقد عُلِمَ أنَّ الفروسيَّة والشجاعة نوعان: فأكملها لأهل الدِّين والإيمان، والنوع الثاني: مورد مشتركٌ بين الشُّجعان. ٧.

٥- وهذا مختصرٌ في الفروسيَّة الشرعيَّة النبويَّة التي هي من أشرف عبادات القلوب والأبدان، الحاملة لأهلها على نصرة الرَّحمن، السائقة لهم إلى أعلى غُرفات الجنان، علَّقته على بُعدٍ من الأوطان واغترابٍ عن الأصحاب والإخوانَ، وقلَّة بضاعة في هذا الشَّان. ٧.

٦- ثبتَ عن النبيﷺ أنه سابَقَ بالأقدام، وثَبتَ عنه أنه سابَقَ بين الإبل، وثَبتَ عنه أنه سابَقَ بين الخيل، وثَبتَ عنه أنه حضر نضال السهام، وصار مع إحدى الطائفتين، فأمسكت الأخرى، وصار مع الطَّائفتين كلتيهما، وثَبتَ عنه أنه رمى بالقوس، وثَبتَ عن الصِّدِّيق أنَّه راهن كفار مكَّة على غلبة الرُّوم للفرس، وراهنوه على أنّ ذلك لا يكون، ووضعوا الخَطَرَ من الجانبين، وكان ذلك بعلم من

النبيِّ ﷺ وإذنه، وثبت عنه ﷺ أنه طعن بالرُّمح، وركب الخيل مُعرَّاة ومسرجه، وتقلَّد السيف. ٧.

٧- فإن التنعُّم يُخَنِّث النفس، ويكسبها الأنوثة والكسل، ويَخُوْن صاحبه أحوج ما يكون إلى نفسه، وما آثَرَه مَن أفلحَ. (٤٤).

٨- وأما "زي العجم"؛ فلأنَّ المشابهة في الزِّيِّ الظاهر تدعو إلى الموافقة في الهَدْي الباطن، كما دلَّ عليه الشرع والعقل والحس، ولهذا جاءت الشريعة بالمنع من التشبُّه بالكفار والحيوانات والشياطين والنساء والأعراب وكل ناقصٍ. (٤٤).

٩- من فضائل القوس، أن النبي ﷺ كان يخطب وهو متوكِّئ عليها.

١٠- ويُذكر عن أنس ﷺ قال: "ما ذُكِرَت القوس عند النبي ﷺ إلا قال: ما سبقها سلاح إلى خيرٍ قط". ٧١.

١١- وكان أبو طلحة من أحسن الصحابة رميًا، وأشدِّهم نزعًا. ٧٥.

١٢- فالإصابة في الرَّمي والنِّضَال، كالإصابة في الحُجَّة والمَقَال، والطعن والتبطيل نظير إقامة الحجة وإبطال حجة الخصم. ٨٣.

١٣- فالفروسية فروسيَّتان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطِّعان. ٨٤.

١٤- ولا يَعْدِلُ مِداد العلماء إلا دمُ الشهداء، والرفعة وعلو المرتبة في الدَّارين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس رعيةٌ لهما، منقادون لرؤسائهما. ٨٤.

١٥- وليس من الأنبياء مَن تقلَّد السيف بعد داود، وخرت الأمم تحته، وقُرِنت شرائعه بالهيبة؛ سوى نبيِّنا ﷺ؛ كما قال: "نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرة شهر". ٨٧.

[٢٤] (بدائع الفوائد)

١- والحكمُ لا يتقدم سببَه. ٥/١.

٢- الفرق بين الشهادة: والرواية: أنَّ الرواية يعم حكمها الراوي وغيره على ممر الأزمان، والشهادة تخص المشهود عليه وله، ولا يتعداهما إلَّا بطريق التبعيّة المحضة. ٨/١.

٣- إذا كان المؤذن يُقبل قوله وحده، مع أن لكل قوم فجرًا وزوالًا وعروبًا يخصهم؛ فأن يقبل قول الواحد في هلال رمضان أولى وأحرى. ١١/١.

٤- وإذا كان كل خبرٍ شهادة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة فيها دليل على كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس صحيح. ١٤/١.

٥- وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فكيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له، وتنزيههم إيّاه. ٣٥/١.

٦- أسماء الرب -تعالى- هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تَنافيَ فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه -تعالى- ووصفه، لا تُنافي اسميتُه وصفيته، فمن حيث هو صفة؛ جرى تابعًا علي اسم: الله -تعالى-، ومن حيث هو أسم: ورد في القرآن غير تابع، بل ورودَ الاسم العَلَم. ٤٢/١.

٧- فَعُلِم أن "رحمن" هو الموصوف بالرحمة، و"رحيم" هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآةُ قلبك، لم تنجل لك صورتها. ٤٢/١.

٨- رحمة الله عامة وسِعَت كلَّ شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده. ٤٥/١.

٩- التقليد يُعْمي عن إدراك الحقائق، فإياك والإخلاد إلى أرضه. ٤٥/١.

١٠- وتأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا، وذلك خمسة أشياء؛ أحدها: الفتح المبين، والثاني: مغفرة: ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، والثالث: هدايته الصراط المستقيم، والرابع: إتمامْ نعمته عليه، والخامس: إعطاؤه النصر العزيز. ٤١٤/٢.

١١- أعظمَ النِّعَمِ: الإقبالُ على الله، والتَّعَبُّد له، والانقطاعُ إليه، والتَّبتُّل إليه، ولكلِّ نعمةٍ حاسدٌ على قَدْرِها دقَّتْ أو جَلَّتْ، ولا نعمةَ أعظمُ من هذه النعمة، فأَنفُسُ الحاسدينَ المنقطعينَ متعلِّقَةٌ بها، وليس للمحسودِ أسلمُ من إخفاء نعمتِهِ عن الحاسد، وأن لا يقصدَ إظهارَها له. ٨٤٧/٣.

١٢- وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف: ٥] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدَّثَ بها وأخبر بها، فسلبه إيَّاها الأغيارُ، فأصبح يقلِّبُ كفَّيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخُ بحفظ السِّرِّ مع الله، وأن لا يُطْلِعوا عليه أحدًا، ويتكتَّمون به غايةَ التَّكَتُّم، كما أنشد بعضُهم في ذلك:

من سَارَرُوه فأبدى السِّـرَّ مجتهدًا ... لـم يـأمَنُوه على الأسرارِ مـا عاشـا
وأبعـدوه فلـم يظفـرْ بِقُـرْبِهِمُ ... وأبـدلوه مـكانَ الأُنْـسِ إيحَاشـا
لا يـأمنونَ مُـذِيعًا بَعْـضَ سِرِّهِـمُ ... حاشا وِدادِهِمُ من ذلكـمْ حاشـا

٨٤٧/٣.

١٣- ما انتفعَ آدَمُ في بليَّةَ ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ بكمالِ ﴿وَعَلَّمَ﴾؛ ولا ردَّ عنه عزُّ ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ وإنما خلَّصه ذلُّ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾. ١١٧٩/٣.

[٢٥] (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)

١- ففلَقَ اللهُ سبحانه بمحمّدﷺ صبحَ الإيمان، فأضاء حتى ملأ الآفاقَ نورًا، وأطلع به شمسَ الرسالة في حَنادِسِ الظُّلَمِ سراجًا منيرًا. ٦/١.

٢- فلا يصحّ لأحد خطبةٌ ولا تشهدٌ ولا أذانٌ ولا صلاةٌ، حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين. ٧/١.

٣- شرفَ العلم تابعٌ لِشرفِ معلومِه. ٩/١.

٤- وليست حاجةُ الأرواح قطُّ إلى شيء أعظمَ منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته، وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلْفى عنده. ٩/١.

٥- وكفى بالعبد خِذلانًا أن يُضرَبَ على قلبه سُرادِقُ الإعراضِ عنها والنَّفرةِ والتنفيرِ، والاشتغالِ بما لو كان حقًّا لم ينفع إلا بعد معرفة الله تعالى والإيمان به وبصفاته وأسمائه. ١١/١.

٦- والجهاد، بالحجّة والبيان مقدّم على الجهاد بالسيف والسنان. ١٦/١.

٧- فالجهادُ بالعلم والحجّة جهادُ أنبياءِ الله ورسله وخاصّته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق، ومن مات ولم يغزُ، ولم يحدِّثْ نفسَه بغزو مات على شعبة من النفاق. ١٦/١.

٨- فحقيق بمن لنفسه عنده قَدْر وقيمة أن لا يبيعَها بأَخسِّ الأثمان، وأن لا يعرضها غدًا بين يدي الله ورسوله لمواقف الخزي والهوان، وأن يثبِّت قدمَه في صفوف أهل العلم والإيمان، وأن لا يتحيّزَ إلى مقالةٍ سوى ما جاء في السنّة والقرآن. ١٩/١.

٩- فوالله لَمُفَارَقةُ أهلِ الأهواءِ والبدع في هذه الدار أسهلُ مِن مرافقتهم إذا قيل: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]. قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وبعده الإمام أحمد رحمه الله تعالى: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم. ٢٠/١.

١٠- وقد قال تعالى - وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين- ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلًا، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه اشتدّ بكاؤه، ويقول: لست من العالمين. ٤١/١.

١١- والموحد طاهر الثوب والقلب والبدن، يخرج شرابه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين. ٤٢/١.

١٢- وشجرةُ الموحّد أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربّها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ٤٣/١.

١٣- وشجرةُ الموحِّد طُوبَى يسير الراكب في ظلّها مائةَ عام لا يقطعُها. ٤٣/١.

١٤- وقلبُ الموحّد يطوف حول العرش ناظرًا إلى الحيّ الذي لا يموت. ٤٤/١.

١٥- والموحّدُ قلبُه متعبّدٌ لمن ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. ٤٥/١.

١٦- وتجارةُ الموحِّد ينادى عليها يومَ العَرْض على رؤوس الأشهاد: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا. ٤٦/١.

١٧- والموحد كبائع المسك إما أن يُحذِيَكَ، وإمّا أن يبيعَك، وإمّا أن تجدَ منه رائحةً طيبة. ٤٦/١.

١٨- والموحّد قد ركِب سفينةَ نوح، وقد صاح به الرَّبّان: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: ٤١]. ٤٦/١.

١٩- ومشربُ الموحّد من كأس كان مزاجها كافورًا، عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا. ٤٧/١.

[٢٦] (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)

١- فنفْيُ حقائق أسمائه وصفاته متضمِّنٌ للتعطيل والتشبيه، وإثباتُ حقائقها على وجه الكمال الذي لا يستحقه سواه هو حقيقة التوحيد والتنزيه. ٣/١.

٢- فإنه لا حياةَ للقلوب ولا نعيم ولا لذة ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة إلَّا بأن تَعْرِفَ ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحبَّ إليها ممَّا سواه، ويكون سعيُها في ما يقرِّبها إليه ويُدنِيها من مرضاته. ٥/١.

٣- فأساسُ دعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ معرفةُ الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم يتبع ذلك أصلانِ عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق المُوصِلة إليه، وهي شريعته المتضمِّنة لأمره ونهيه.

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفَد، وقُرةِ العين التي لا تنقطع. ٥/١.

٤- فأعرفُ الناس بالله أتبعُهم للطريق الموصل إليه، وأعرفُهم بحال السالكين عند القدوم عليه. ولهذا سمَّى اللهُ سبحانه ما أنزل على رسوله رُوحًا لتوقُّف الحياة الحقيقية عليه، ونورًا لتوقف الهداية عليه. قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٤] في موضعين من كتابه. وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٤٩]. ٦/١.

٥- والدِّين إذا أُحِيلَ على تأويلات المتأولين انتقضتْ عُرَاه كلها، ولا تشاء طائفةٌ من طوائف أهل الضلال أن تتأول النصوص على مذهبها إلَّا وجدت السبيل إليه. ١٠/١.

٦- ومن أبْيَنِ المُحَال أن يكون أفضلُ الرُّسل قد علَّم أُمَّتَه آدابَ البول قبله وبعده ومعه، وآدابَ الوطء، وآدابَ الطعام والشراب، ويترك أن يعلِّمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفتُه غايةُ المعارف، والوصول إليه أجلُّ المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقربُ الوسائل؛ ويخبرهم فيه بما ظاهره باطلٌ وإلحاد، ويحيلهم في فَهْم ما أخبرهم. ١١/١.

٧- فالتأويل في كتاب الله سبحانه وتعالى المراد به: حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج، فإن الكلام نوعان: خبرٌ وطلبٌ. فتأويل الخبر هو الحقيقة، وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به. ٢٤/١.

٨- وأمَّا المعتزلة والجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين فمرادهم بالتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهرَه. وهذا هو الشائع في عُرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه، ولهذا يقولون: «التأويل على خلاف الأصل»، و «التأويل يحتاج إلى دليل». ٢٥/١.

٩- ومن هذا قول الزُّهري: «وقعت الفتنة وأصحاب محمدٍ متوافِرون، فأجمعوا أن كل مالٍ أو دمٍ أُصيب بتأويل القرآن فهو هدَرٌ، أَنزلوهم منزلة أهل الجاهلية».

أي: إن القبيلتين في الفتنة إنما اقتتلوا على تأويل القرآن ـ وهو تفسيره ـ وما ظهر لكل طائفةٍ منه حتى دعاهم إلى القتال. فأهلُ الجمل وصِفين إنما اقتتلوا على تأويل القرآن، وهؤلاء يحتجون به وهؤلاء يحتجون به. ٢٩/١.

١٠- وكل تأويلٍ وافق ما جاء به الرسول فهو المقبول، وما خالفه فهو المردود. ٣٢/١.

[٢٧] (الروح)

١- فسبحان مَن شملت قدرتُه كلَّ مقدور. وجرت مشيئتُه في خلقه بتصاريف الأمور. وتفرَّد بمُلك السماوات والأرض، يخلق ما يشاء. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: ٦]. ٨/١.

٢- والسلف مجمِعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأنّ الميّتَ يَعرف بزيارة الحيِّ له ويستبشر به. ٨/١.

٣- الميِّت يعلم بعمل الحيِّ من أقاربه وإخوانه. ١٤/١.

٤- وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: إني أعوذ بك من عمل أخزَى به عند عبد الله بن رواحة. كان يقول ذلك بعد أن استُشْهِد عبد الله. ١٦/١.

٥- وقد ثبت في الصحيح أنَّ الميِّت يستأنسُ بالمشيِّعين لجنازته بعد دفنه. ٢٠/١.

٦- وقد ذُكِر عن جماعة من السلف أنهم أوصَوْا أن يُقرأ عند قبورهم وقت الدفن.

قال عبد الحق: يروى أنَّ عبد الله بن عمر أمر أن يُقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك العلاء بن عبد الرحمن. وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولًا حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك. ٢١/١.

٧- قال عن سورة يس:

فإنَّ هذه السورة قلبُ القرآن ولها خاصِّية عجيبة في قراءتها عند المحتضَر. ٢٦/١.

٨- وصحَّ عن عمرو بن دينار أنه قال: ما من ميِّتٍ يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده. وإنهم لَيغسلونه ويكفنونه، وإنه لينظر إليهم. ٢٩/١.

٩- وصحَّ عن مجاهد أنه قال: إنَّ الرجلَ لَيُبشَّر في قبره بصلاح ولده من بعده. نفس المصدر السابق.

١٠- الأرواح قسمان: أرواح معذَّبة، وأرواح منعَّمة. فالمعذَّبة في شغلٍ مما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي. والأرواحُ المنعَّمةُ المرسَلَةُ غيرُ المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كلُّ روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها. وروحُ نبينا محمدﷺ في الرفيق الأعلى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]. وهذه المعيَّةُ ثابتةٌ في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء. والمرءُ مع من أحبَّ في هذه الدور الثلاثة. ٤٤/١.

١١- وقال عبد الله بن المبارك: رأيت سفيانَ الثوريَّ في النوم فقلت له: ما فَعَل الله بك؟ قال: لقيتُ محمدًا وحِزْبَه. ٤٩/١.

١٢- وقال عُبَيد بن عُمَير أيضًا: إذا مات الميت تلقَّته الأرواح يستخبرونه كما يُستخبَر الرَّكْبُ: ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ فإذا قال: توفي، ولم يأتهم، قالوا: ذُهِب به إلى أمِّه الهاوية. ٥٢/١.

١٣- وقال سعيد بن المسيِّب: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يُستقبَل الغائب. ٥٢/١.

١٤- وقال العباس بن عبد المطلب: كنت أشتهي أن أرى عمر في المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه، وهو يقول: هذا أوان فراغي. إن كاد عرشي ليُهَدُّ، لولا أنّي لقيتُ رؤوفًا رحيمًا. ٦١/١.

١٥- وروى جعفر بن عون عن إبراهيم الهجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إنَّ الأرواحَ جنودٌ مجندةٌ تتلاقى، فتَشامُّ كما تشامّ الخيلُ، فما تعارفَ منا ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ. ٩٠/١.

[٢٨] (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)

١- فإن القدر بحر محيط لا ساحل له، ولا خروج عنه لأحد من العالمين، والشرع فيه سفينة النجاة، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها فهو من المُغْرَقين، وهو قُدْرَةُ الله الذي هو على كل شيء قدير، وكل مخلوق فمنه ابتدأ وإليه يصير.

والإيمان به قُطْب رحا التوحيد ونظامه، ومبدأ الإيمان وتمامه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان، والحكمة آخِيَّته التي يرجع إليها، ويدور في جميع تصاريفه عليها، فالقدر مظهر المُلْك، والحكمة مظهر الحَمْد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال التقدير. ١/١.

٢- مدح كتابه:

ولمّا كانت معرفةُ الصواب في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل واقعةً في مرتبة الحاجة، بل في مرتبة الضرورة؛ اجتهدتُ في جمع هذا الكتاب وتهذيبه، وتحريره وتقريبه، فجاء فَرْدًا في معناه، بديعًا في مَغْزاه. ١٤/١.

٣- واختُلِف في الضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، فقيل: هو عائد على الأنفس؛ لقُرْبها منه.

وقيل: هو عائد على الأرض.

وقيل: عائد على المصيبة.

والتحقيق أن يقال: هو عائد على البَرِيّة التي تعمّ هذا كله، ودلّ عليه السياق، وقوله: "نبرأها"، فتنتظم التقادير الثلاثة انتظامًا واحدًا، والله أعلم. ٢٢/١.

٤- وكل مَن أصّل أصلًا لم يؤصّله الله ورسوله قاده قسرًا إلى ردِّ السنة أو تحريفها

عن مواضعها، فلذلك لم يؤصّل حزب الله ورسوله أصلًا غير ما جاء به الرسول ﷺ، فهو أصلهم الذي عليه يعوّلون، وآخِيّتهم التي إليها يرجعون. ٤٥/١.

٥- فالعارف أعظم الناس إنكارًا للمنكر؛ لبصيرته بالأمر والقدر، فإن الأمر يوجب عليه الإنكار، والقدر يعينه عليه، ويُنْفِذُه له، فيقوم في مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي مقام: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فيعبده بأمره وقدره، ويتوكلُ عليه في تنفيذ أمره بقدره. ٤٨/١.

٦- فمتى تجلّت على العبد أنوار المشاهدة الحقيقية الروحية الدالّة على عظمة الفَرْدانية؛ تلاشى الوجود الذي للعبد واضْمَحَلَّ، كما يتلاشى الليل إذا أسفر عليه الصباح، ويكون العبد في ذلك آكلًا شاربًا، فلا يظهر عليه شيءٌ مغاير لما اعتاده، لكن يزداد إيمانه ويقينه، حتى ربما غطى إيمانُه عن قلبه كَلَّ شيء في أوقات سكره، ويبقى وجوده كالخيال، قائمًا بالعبودية في حضرة ذي الجلال. ٥٣/١.

٧- اللوم إذا ارتفع صحَّ الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعًا فالاحتجاج بالقدر باطل. ٥٩/١.

٨- فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشّد اجتهادًا في فعلها والقيام بها منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه. ٨٧/١.

٩- فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين، هما سببا السعادة: الإيمان والإقرار به، فإنه نظام التوحيد. والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع. ٨٨/١.

١٠- وأهل السنة وحزب الرسول وعسكر الإيمان... فمذهبهم جَمْعُ حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به، ونصرُهُ، وموالاة أهله من ذلك الوجه، ونَفْيُ باطل كل

طائفة من الطوائف وكسرُهُ، ومعاداةُ أهله من هذا الوجه، فهم حُكَّام بين الطوائف لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردّون حق طائفة من الطوائف، ولا يقابلون بدعة ببدعة، ولا يردّون باطلًا بباطل، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل.

١١- والله تعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف، فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥]، فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه، وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق، وأن يؤمن بالحق جميعه، لا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات.

١٢- وأنت إذا تأملت هذه الآية وجدت أهل الكلام الباطل وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظًّا، وأقلهم منها نصيبًا، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها. ١/١٧٧، بتصرف.

[٢٩] (طريق الهجرتين وباب السعادتين)

١- قال عن نبينا محمد ﷺ:

ففتح القلوب بالإيمان والقرآن، وجاهد أعداءَ اللَّه باليد والقلب واللسان.

فدعا إلى اللَّه على بصيرة، وسار في الأُمة -بالعدل والإحسان وخلقه العظيم- أحسنَ سيرة، إلى أن أشرقتْ برسالته الأَرضُ بعد ظلماتها، وتألّفتْ به القلوب بعد شتاتها. وسارت دعوتُه مسيرَ الشمس في الأقطار، وبلغ دينُه القيّم ما بلغ الليل والنهار. واستجابت القلوب لدعوة الحق طوعًا وإذعانًا، وامتلأَت بعد خوفها وكفرها أمنًا وإيمانًا. ٧.

٢- وكَذلِكَ شَجَرَةُ الإيمان أصلُها ثابتٌ في القلب، وفروعُها من الكلام الطيّب والعمل الصالح في السماءِ، فلا تزال هذه الشجرةُ تُخرِجُ ثمرَها كلَّ وقتٍ بإذن ربِّها من طيّب القول وصالح العمل ممَّا تقرُّ به عينُ صاحب الأصل وعيونُ حفظته وعيونُ أهله وأصحابه ومَن قرُبَ منه. ٧.

٣- فإنَّ من قرَّت عينُه باللَّه قرَّت به كلُّ عين، وأَنِسَ به كلُّ مستوحش، وطاب به كلُّ خبيث، وفرِحَ به كلُّ حزين، وأمِنَ به كلُّ خائف، وشهد به كلُّ غائب، وذكَّرتْ رؤيتُه باللَّه، فإذا رُئِيَ ذُكِرَ اللَّه. ٨.

٤- فله في كلِّ وقتٍ هجرتان: هجرةٌ إلى اللَّه بالطلب والمحبة، والعبودية والتوكل والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، والإقبال عليه، وصدق اللَّجأ والافتقار في كلِّ نفس إليه. وهجرةٌ إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقةً لشرعه الذي هو تفصيلُ محابِّ اللَّه ومرضاته،

ولا يقبل اللَّه من أحد دينًا سواه، وكل عملٍ سواهُ فعيشُ النفس وحظُّها لا زادُ المعاد. ٩.

٥- قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدَّس اللَّه روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريقَ من اقتفى آثارَ النبي -صلى اللَّه عليه وسلم-، فإنَّ اللَّه عزّ وجلَّ يقول: "وعزَّتي وجلالي لو أتوني من كلِّ طريقٍ، واستفتحوا من كل بابٍ، لما فتحتُ لَهُمْ حتَّى يدخلوا خلفك". ٩.

٦- قال بعض العارفين: "كل عملٍ بلا متابعة فهو عيش النفس". ٩.

٧- ولمَّا كانت السعادة دائرةً -نفيًا وإثباتًا- مع ما جاءَ به كان جديرًا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفًا على معرفته، وإرادتَه مقصورةً على محابّه، وهذه أعلى همَّة شمَّرَ إليها السابقون، وتنافسَ فيها المتنافسون. ١٠.

٨- باب الفقر والعبودية هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأقوم الذي لا سبيل إلى دخولها إلا منه. ١٠، بتصرف.

٩- وصف ابن القيم كتابه (طريق الهجرتين) بقوله:

ضمَّنَّا هذا الكتابَ قواعدَ من سلوك طريق الهجرة المحمدية. وسمّيناه "طريق الهجرتين، وباب السعادتين".

وابتدأناه بباب الفقر والعبودية، إذ هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأقوم الذي لا سبيل إلى دخولها إلا منه. وختمناه بذكر طبقات المكلَّفين من الجن والإنس في الآخرة ومراتبهم في دار السعادة والشقاء.

فجاء الكتاب غريبًا فرب معناه، عجيبًا في مغزاه، لكلِّ قومٍ منه نصيب، ولكلِّ واردٍ منه شِرْب. وما كان فيه من حق وصوابٍ فمن اللَّه، هو المانُّ به، فإنَّما التوفيق

بيده. وما كان فيه من خطأ وزللٍ فمنِّي ومن الشيطان، واللَّه ورسوله منه بريء.

فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعةُ صاحبه المزجاةُ مسوقةٌ إليك، وهذا فهمه وعقلُه معروضٌ عليك. لك غُنْمُه، وعلى مؤلفه غُرْمُه؛ ولك ثمرتُه، وعليه عائدته. فإنْ عدِمَ منك حمدًا وشكرًا، فلا يعدَمْ منك مغفرةً وعذرًا، وإنْ أبيتَ إلا الملامَ فبابُه مفتوحٌ، وقد:

استأثرَ اللَّهُ بالثناء وبالْـ ... ـحَمْدِ وولَّى الملامةَ الرَّجُلا. ١٠.

١٠- قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر/ ١٥]:

فحاجة العبد إلى ربه لذاته، لا لعلَّة أوجبت تلك الحاجة؛ كما أنَّ غنى الرب عزَّ وجلَّ لذاته، لا لأمرٍ أوجبَ غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي. ١٢.

١١- ولهذا كان الصوابُ في مسألة علَّة احتياج العالم إلى الرب تعالى غيرَ القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون، فإنَّ الفلاسفة قالوا: علَّة الحاجة الإمكان، والمتكلمون قالوا: علَّة الحاجة الحدوث. والصواب أنَّ الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار. وفقرُ العالم إلى اللَّه عزَّ وجلَّ أمرٌ ذاتي لا يعلَّل، فهو فقيرٌ بذاته إلى ربِّه الغني بذاته. ثمَّ يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلَّة على هذا الفقر. ١٣.

١٢- فالفقرُ المطلقُ من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجهٍ ثابتٌ لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي. فيستحيل أن يكون العبدُ إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الربُّ تعالى إلا غنيًّا، كما أنَّهُ يستحيل أن يكون العبدُ إلا عبدًا والربُّ إلا ربًّا. ١٣.

١٣- فالفقرُ فقران: فقرُ اضطرارٍ، وهو فقرٌ عامٌّ لا خروج لِبَرٍّ ولا فاجر عنه. وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا، ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني فقرٌ اختياريٌّ هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه؛ فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجا له فقرًا هو عينُ غناه وعنوانُ فلاحه وسعادته. ١٣.

١٤- فأكملُ الخلقِ أكملُهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وحاجته وضرورته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين. ولهذا كان من دعائه -صلى الله عليه وسلم-: "أصلحْ لي شأني كلَّه، ولا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين، ولا إلى أحدٍ مِن خَلْقِك". ١٦.

١٥- وتأمَّل قوله في الآية: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر/ ١٥] فعلَّق الفقر إليه باسمه "اللَّه" دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنَّه -كما تقدم- نوعان: فقرٌ إلى ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها؛ وفقرٌ إلى إلاهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده [الصالحين]، وهذا هو الفقر النافع. ١٨.

١٦- من ادّعى لنفسه حالةً مع اللَّه وُكِلَ إليها. ومن وُكِل إلى شيء غير اللَّه فقد أتيح له بابُ الهلاك والعطَب، وأغلق عنه بابُ الفوز والسعادة؛ فإنّ كل شيء ما سوى اللَّه باطل، ومن وُكِلَ إلى الباطل بطل عمله، وضل سعيه، ولم يحصل إلّا على الحرمان. ٢١.

١٧- فكلّ من تعلّق بشيء غير اللَّه انقطع به أحوجَ ما كان إليه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة/ ١٦٦]. ٢١.

١٨- وكلُّ شيء هالكٌ إلّا وجهه سبحانه، فكل عمل باطلٌ إلّا ما أريد به وجهه، وكلّ سعي لغيره فباطل ومضمحل. ٢٢.

١٩- فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوّث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيّده الذي ينفّذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال مثل جبال الدنيا لم يضرّه. ٢٤.

٢٠- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق/ ٦ - ٧] ولم يقل: "أن استغنى"، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤيته غنى نفسه. ٢٥.

٢١- والمقصود أنّ الاستغناءَ عن اللَّه سببُ هلاك العبد وتيسيرِه لكلّ عسرى، ورؤيتُه غنى نفسه سببُ طغيانه، وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية. ٢٦.

٢٢- من اهتمّ بأمر وكان له في قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحًا أو ذمًّا، فإنه إن حصلتْ له مدَحَها، وإن فاتته ومُنِعَها ذمَّها. ٢٦.

٢٣- فإنَّ الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه ذمًّا أو مدحًا. ٢٧.

٢٤- ولو اهتمَّ القلب بمهمٍّ من المهمات المطلوبة التي هي فاقات أهل القلوب والأرواح لذهل عن النظر إلى نفسه بالترك والزهد. ٢٨.

٢٥- فإن من لم تولد روحه وقلبه، ويخرجْ من مشيمة نفسه، ويتخلّصْ من ظلمات طبعه وهواه وإراداته، فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها. ٢٨.

٢٦- ولذلك كان النبي ﷺ أبًا للمؤمنين، كما في قراءة أُبيّ: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم". ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جُعِلت أزواجه أمّهاتِهم، فإن أرواحهم وقلوبهم وُلِدت به ولادةً أخرى غيرَ ولادة الأمهات، فإنّه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيّ إلى نور العلم والإيمان

وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدتْ حقائق أُخر وأمورًا لم يكن لها بها شعور قبله. ٢٩.

٢٧- والمقصود أنّ القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

قلبٌ لم يولد ولم يأنِ له.

وقلبٌ قد وُلِد وخرج إلى فضاءِ التوحيد والمعرفة.

وقلبٌ ثالثٌ في البرزخ ينتظر الولادة صباحًا ومساءً. ٣٠، بتصرف.

٢٨- واعلم أنّه يحسن إعمالُ اللسان في ذمّ الدنيا في موضعين:

أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب.

والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابةَ الداعي، فيستحضر في نفسه قلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخِسّة شركائها، فإنّه إن تمّ عقلُه وحضر رشدُه زهِدَ فيها ولا بدّ. ٣١.

٢٩- فيصبح ويمسي، ولا همَّ له غير ربه، قد قطع همُّه بربِّه عنه جميعَ الهموم، وعطَّلت إرادته له جميع الإرادات، ونسخت محبتُه له من قلبه كل محبةٍ لسواه. ٣٢.

٣٠- واللَّه عزَّ وجلَّ لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلبَ من همٍّ وإرادةٍ وحبٍّ، يخرج منه همٌّ وإرادةٌ وحبٌّ يقابله، فهو إناءٌ واحد والأشربة متعددة. ٣٣.

٣١- وكلُّ شراب غير شراب المحبة والمعرفة فمسكرٌ ولا بد، "وما أسكر كثيره فقليلهً حرام"، وأين سكر الهوى والدنيا إلى سكر الخمر!. ٣٤.

٣٢- وكيف يوضع شرابُ التسنيم الذي هو أعلى أشربة المحبين في إناءٍ ملآن بخمر الدنيا والهوى، لا يفيق من سكره ولا يستفيق! ٣٤.

٣٣- ولو فارق هذا السكر القلبَ لطار بأجنحة الشوق إلى اللَّه والدار الآخرة، ولكن رضيَ المسكين بالدون، وباع حظه من قرب اللَّه ومعرفته وكرامته بأخسِّ الثمن صفقةَ خاسرٍ مغبونٍ، فسيعلم أيَّ حظٍّ أضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبطلون!. ٣٤.

٣٤- فعبوديته باسمه "الأوَّل" تقتضي التجردَ من مطالعة الأسباب والوقوف عندها والالتفات إليها، وتجريدَ النظرِ إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنَّه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد. ٣٧.

٣٥- وعبوديته باسمه "الآخر" تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنَّها تُعدَم لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها. ٣٧.

٣٦- وكما أنّه ربُّ كلِّ شيءٍ وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلّا بأن يكون هو غايته وحده. ٣٨.

٣٧- فليس وراءَ اللَّه شيءٌ يُقصَد ويُعبَد ويُتألّه، كما أنه ليس قبله شيءٌ يَخلُق ويَبرأ. فكما كان واحدًا في إيجادك، فاجعله واحدًا في تألّهك وعبوديتك. ٣٨.

٣٨- وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه، فاجعل نهايةَ حبّك وإرادتك وتألهك إليه لتصحّ لك عبوديته باسمه الأول والآخر. ٣٨.

٣٩- وأكثر الخلق تعبّدوا له باسمه "الأول"، وإنّما الشأن في التعبد له باسمه "الآخر"، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو ربّ العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده. ٣٩.

٤٠- وأما عبوديته باسمه "الظاهر" فإذا تحقق العبدُ علوَّه المطلق على كل شيءٍ بذاته، وأنّه ليس شيءٌ فوقه البتة، وأنّه قاهر فوق عباده، يدبّر الأمر من السماءِ إلى الأرض ثم يعرج إليه صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجّه إليه. ٣٩،

بتصرف.

٤١- وأمَّا تعبده باسمه "الباطن"، فإنَّه يستلزمُ معرفةً بريئةً من شوائب التعطيل، مخلَصةً من فرْث التشبيه، منزَّهةً عن رجس الحلول والاتحاد . ٤١، بتصرف.

٤٢- وهو تبارك وتعالى كما أنَّه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهرَ على كلِّ شيء وكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كلِّ شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة. ٤٢.

٤٣- وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاصٌ من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه "الباطن"، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦]، فهذا قربه من داعيه. ٤٣.

٤٤- وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف/ ٥٦] فذكَّر الخبر - وهو"قريب"- عن لفظ "الرحمة" وهي مؤنثة إيذانًا بقربه تعالى من المحسن، فكأنَّهُ قال: إنَّ اللَّه برحمته قريبٌ من المحسنين. ٤٣.

٤٥- وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلَّما كان الحب أعظم كان القرب أكثر. وقد يستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيره، ويغلب محبوبه على قلبه حتَّى كأنَّهُ يراه ويشاهده. ٤٤.

٤٦- فإنَّ المحبَّ كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره ويفنى عن غيره، ويرِقّ قلبه ولتجرَّد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذا الحال يكون في قلبه وجودُه العلمي، وفي لسانه وجودُه اللفظي، فيستولي هذا الشهودُ عليه ويغيبُ به، فيظن أنَّ في عينه وجودَه الخارجي، لِغلبة

حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالُك في عيني، وذكرُكَ في فمي ومثواكَ في قلبي، فأين تغيب!. ٤٥.

٤٧- والمقصودُ أنَّ المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية وإن كان مطابقًا لها، لكنّ المثال العلمي محلُّه القلب، والحقيقة الخارجيَّة محلُّها الخارج. ٤٦.

٤٨- فمعرفة هذه الأسماء الأربعة -وهي: الأوَّل، والآخر، والظاهر والباطن- هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه. ٤٦.

٤٩- فأوليته سبقُه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كلِّ شيء. وظاهريتُه سبحانه فوقيته وعلوُّه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونُه سبحانه إحاطته بكلِّ شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه. هذا لون، وهذا لون. ٤٧.

٥٠- فما من ظاهر إلا اللَّه فوقه، وما من باطن إلا واللَّه دونه، وما من أوَّل إلا واللَّه قبله، وما من آخر إلا واللَّه بعده: فالأوَّل قِدَمه، والآخِر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. ٤٧.

٥١- فهذه الأسماء الأربعة – وهي الأول والآخر، والظاهر والباطن - تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأوَّل في آخريته، والآخِر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أوَّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا. ٤٧، بتصرف.

٥٢- واسْمُ بهمتك عن ملاحظة الأغيار، ولا تركن إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون. وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة اللَّه، فانَ اللَّه عزَّ وجلَّ قضى أن لا ينالَ ما عنده إلا بطاعته. ٤٩.

٥٣- ومن كان للَّه كما يريد كان اللَّه له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقَّاه من بعيد، ومن تصرّف بحوله وقوَّته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد. ٤٩.

٥٤- اسمُ بسرِّك إلى المطلب الأعلى، واقصُرْ حبَّك وتقربك على من سبق فضلُه وإحسانهُ إليك كل سبب منك فتوكَّلْ عليه وحده، وعامِلْه وحده، وآثِرْ مرضاتَه وحده، واجعل حُبَّه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها. ٤٩، بتصرف.

٥٥- والإنسان ظلومٌ جهول. ٥٠.

٥٦- فمن جلَّى اللَّه سبحانه صدأَ بصيرته، وكمَّل فطرته، وأوقفه على مبادئ الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها، أصبح كالمفلس حقًّا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه. ٥٠.

٥٧- فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منَّة خالقِه وفضلِه، ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها؛ وغائب بمشاهدة عزَّة نفسه عن عزَّة مولاه. ٥٢.

٥٨- فمطالعاتُ المقامات، وتشرُّفُه بها، وكونُه يرى نفسَه صاحبَ مقام قد حقَّقه وكمَّله، فاستحقَّ أن ينسب إليه، ويوصف به، خروجٌ عن الفقر إلى الغنى، وتعدٍّ لطور العبودية، وجَهلٌ بحقِّ الربوبية. ٥٢، بتصرف.

٥٩- فالرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يستغرقُ همة العبد، ويمحّصُه، ويُطهّره من مثل هذه الأدناس، فيصير مصفًّى بنور اللَّه عن رذائل هذه الأرجاس. ٥٢.

٦٠- فتمحو رؤيةُ التوحيد عن العبد شواهدَ استبدادِه واستقلاله بأمر من الأمور، ولو في النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة، إلا بإرادة المريد الحق

سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته. ٥٣.

٦١- قال سهل: "إنَّما يكون الالتجاء على معرفة قدر الابتلاء". يعني: وعلى قدر معرفة الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلي. ٥٧.

٦٢- فسبحان من لا يوصَل إليه إلا به، ولا يطاع إلا بمشيئته، ولا يُنال ما عنده من كرامته إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوفيقه ومعونته. ٥٩.

٦٣- فإنَّ التوحيد نوعان: عامِّي وخاصِّي، كما أن الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القُرَب كذلك خاصِّيَّة وعامِّية. فالخاصِّيَّة ما بذل فيها العاملُ نصحَه وقصدَه بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها، والعامية ما لم يكن كذلك. ٥٩.

٦٤- الغاية التي لا غايةَ وراءها ولا نهاية بعدها الفناءُ في توحيد الإلاهية. ٦٠.

٦٥- فتعددُ المطلوب وانقسامُه قادحٌ في التوحيد والإخلاص، وانقسامُ الطلب قادحٌ في الصدق والإرادة. فلا بدَّ من توحيد الطلب والإرادة، وتوحيد المطلوب المراد. ٦١.

٦٦- وصاحبُ توحيد الربوبية في قيد التجريد عن ملاحظة فاعلٍ غير اللَّه، وهو مجردٌ عن ملاحظة وجوده هو. ٦١.

٦٧- وصاحبُ الفناءِ في توحيد الإلهية مجرَّدٌ عن سوى مراضي محبوبه وأوامره، قد فني بحبه وابتغاء مرضاته عن حبِّ غيره وابتغاء مرضاته. ٦١.

٦٨- فالتجريد أن يشهد سبقَ اللَّه تعالى بمنته لكلِّ سبب يُنال به يقين أو إيمان، فيتجرد كشفُه لذلك عن ملاحظة سبب أو وسيلة، بل يقطع الأسباب والوسائل، وينتهي نظره إلى المسبب. ٦٣.

٦٩- والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال، فالغنى السافل: الغنى بالعواريّ المستَرَدَّة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة

والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى، والغنى العالي هو الغنى بالله. ٦٥، بتصرف.

٧٠- ومتى استغنت النفس استغنى القلب. ٦٧.

٧١- وفي القلبِ فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدُّها إلا فوزُه بحصول الغني الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كلُّ شيء، وإن فاته فاته كلُّ شيء. فكما أنَّه سبحانه الغنيُّ على الحقيقة ولا غنيَّ سواه، فالغنى به هو الغنى في الحقيقة ولا غِنى بغيره ألبتة. فمن لم يستغن به عمَّا سواه تقطَّعت نفسه على السوى حسراتٍ، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة، وحضره كلُّ سرور وفرح، والله المستعان. ٦٨.

٧٢- فالمرابطة على ثغري الظاهر والباطن فرضٌ معيَّن مدَّة أنفاس الحياة:

وتنقضي الحربُ، محمودٌ عواقبُها للصابرين، وحظُّ الهاربِ الندمُ. ٦٩.

٧٣- فغنى النفس مشتقٌّ من غنى القلب وفرعٌ عليه، فإذا استغنى سرى الغنى منه إلى النفس. وغنى القلب بما يناسبه من تحقّقه بالعبودية المحضة التي هي أعظم خلعة تُخلع عليه، فيستغني حينئذٍ بما توجبه هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة، وبما يحصل له من آثار الصفات المقدسة و[ما] تقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكل صفةٍ صفةٍ على الانفراد ومجموعها قائمةً بالذَّات. ٧٠.

٧٤- فلا يتمُّ الغنى بتدبير الربِّ عزَّ وجلَّ لعبده إلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره ثمَّ يبقى عليه الخلاصُ من معنى آخر، وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الربِّ. ٧٣.

٧٥- فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علَّة منازعته لأحكام اللَّه عزَّ وجلَّ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ = استحقَّ أن يكون غنيًّا بتدبير مولاه، مفوِّضًا إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره. ٧٣.

٧٦- ولا يكفر العبد بالطاغوت حتَّى يجعل الحُكمَ للَّه وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر.

والحكم حكمان: حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني. ٧٤.

٧٧- فإنَّهُ بحسب قيام العبد بالأمر تُدفَع عنه جيوشُ الشهوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت/ ٤٥]. ٨٢.

٧٨- فإذا صارت النفس حرَّةً مطمئنةً غنيةً بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها = استقامت بذلك الغنى على الأمر المرغوب، وسلِمتْ به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المراياة. ومدار ذلك كله على الاستقامة ظاهرًا وباطنًا، ولهذا كان الدِّين كفُه في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود/ ١١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف/ ١٣]. ٨٣.

٧٩- فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربِّه له، ووصل شاهدُه إلى قلبه شَغَلَه ذلك عمَّا سواه، وحصل لقلبه به غنًى عالٍ لا يشبهه شيء. ٨٥.

٨٠- وقد ذكرنا في كتاب "الكلم الطيب والعمل الصالح" من فوائد الذكر استجلابَ ذكرِ اللَّه لِعبده. وذكرنا قريبًا من مائة فائدة تتعلَّق بالذكر، كل فائدةٍ منها لا خطَر لها. وهو كتاب عظيم النفع جدًّا. ٨٦.

٨١- والمقصودُ أنَّ شعور العبد وشهودَه لذكر اللَّه له يُغني قلبه ويَسدُّ فاقته، وهذا

بخلاف مَن نسوا اللَّه فنسيَهم؛ فإنَّ الفقرَ من كُلّ خير حاصلٌ لهم، وما يظنون أنَّه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم. ٨٦.

٨٢- جميع ما يبدو للقلوب من صفات الربّ جلَّ جلالُه يستغني العبدُ بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديّتها. ٨٨.

٨٣- فكما استحال أن يكون للخلق ربّ غيره، فكذلك يستحيل أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجهت نحوه الطلبات. ٩١.

٨٤- ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظمَ فساد واختلّ أعظمَ اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل، فإنَّ استقلالَهما ينافي استقلالَهما، واستقلالَ أحدهما يمنع ربوبّيةَ الآخر، فتوحيد الربوبيّة أعظم دليل على توحيد الإلهية. ٩٢.

٨٥- فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاءِ، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظّهم من معرفة الأسماء والصفات. ولذلك كان أكملُ الخلق فيه أعرفَهم باللَّه وأسمائه وصفاته. ٩٢.

٨٦- فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهيَّة، وقام بحقّه من التعبَّد الذي هو كمالُ الحبّ بكمالِ الذلّ والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تمَّ له غناه بالإله الحقّ، وصار من أغنى العباد. ولسانُ حالِ مثلِ هذا يقول:

غنِيتُ بلا مالٍ عن النَّاس كلِّهم وإنَّ الغنى العالي عن الشيء لا بِهِ. ٩٣.

٨٧- فإذا كان أثرٌ من آثار صفات الذَّات أو صفات الأفعال يُغني القلبَ والنفسَ، فما ظنُّك بما تكاشَفُ به الأرواحُ من أنوار قدسِ الذَّات المتَّصفة بالجلال

والإكرام. فهذا غنًى لا يناله الوصفُ، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبد الفقير بوجود سيّده العزيز الرَّحيم.

فيا لكَ من فَقْرٍ تَقَضَّى، ومِن غِنَى يدومُ، ومِن عيشٍ ألذَّ من المُنى!.٩٤.

٨٨-وقد جاءَ في أثرٍ إلهي: "يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ابْنَ آدمَ خَلَقْتكَ لنفسي فلا تَلْعَبْ، وَتَكَفلْتُ برزقك فلا تتْعَبْ، ابْنَ آدمَ اطْلُبْني تَجدْني، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شيءٍ، وإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كلُّ شيءٍ، وأَنَا أَحَبُّ إليكَ مِنْ كُل شيءٍ".

فمن طلَب اللَّه بصدقٍ وجده، ومن وجده أغناه وجودُه عن كلِّ شيءٍ.

فأصبحَ حُـرًّا في غـنًى ومهابـةٍ على وجهـه أنـوارهُ وضـياؤه

وإن فاتَـهُ مـولاه جـلَّ جـلالُه تباعدَ ما يرجو، وطال عنـاؤه. ٩٥.

٨٩- الاستغناء باللَّه هو عين الفقر إليه، وهما عبارتان عن معنى واحد؛ لأنَّ كمالَ الغنى به هو كمالُ عبوديته، وحقيقةُ العبوديةِ كمالُ الافتقار إليه من كلِّ وجه. ٩٧.

٩٠- وسئل رُويم عن الفقر فقال: "إرسال النفس في أحكام اللَّه تعالى". ٩٨.

٩١- وقال إبراهيم بن أدهم: "طلبنا الفقرَ فاستقبلَنا الغنى، وطلب النَّاسُ الغنى فاستقبلهم الفقرُ". ٩٨.

٩٢- وقال أبو حفص: "أحسنُ ما توسّل به العبدُ إلى مولاه دوامُ الفقر إليه على جميع الأحوال، وملازمةُ السنّة في جميع الأفعال، وطلبُ القوت من وجه حلال". ١٠٠.

٩٣- وقيل: "أقلُّ ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء: علم يسوسُه، وورع يحجزُه، ويقين يحمِله، وذكر يؤنسه". ١٠١.

٩٤- الفقيرُ هو الذي حاجاته إلى اللَّه بعدد أنفاسه أو أكثر، فالعبدُ له في كلِّ نفس ولحظة وطرفة عين عدَّةُ حوائج إلى اللَّه لا يشعر بكثيرٍ منها، فأفقر النَّاسِ إلى

اللَّه من شعر بهذه الحاجات وطلَبها من معدنها بطريقها. ١٠٣.

٩٥- وقال ابن خفيف: "الفقرُ عدمُ الأملاك، والخروجُ عن أحكام الصفات". ١٠٣.

٩٦- وقال أبو حفص: "لا يصح لأحدٍ الفقر حتَّى يكون العطاءُ أحبَّ إليه من الأخذ، وليس السخاءُ أن يعطي الواجدُ المعدِمَ، وإنَّما السخاءُ أن يعطي المعدمُ الواجدَ". ١٠٤.

٩٧- وقال بعضهم: "الفقيرُ: الذي لا يرى لنفسه حاجةً إلى شيءٍ من الأشياءِ سوى ربه تبارك وتعالى". ١٠٤.

٩٨- وسُئِلَ سهل بن عبد اللَّه: متى يستريحُ الفقير؟ فقال: "إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه".

٩٩- وقال أبو بكر بن طاهر: "من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة، وإنْ كان لا بدَّ فلا تجاوز رغبتُه كفايتَه". ١٠٥.

١٠٠- وسُئِلَ بعضهم عن الفقيرِ الصادق، فقال: "الذي لا يَملِك ولا يُملَك". ١٠٥.

١٠١- وقال ذو النون: "دوام الفقرِ إلى اللَّه تعالى مع التخليط أحبُّ إليَّ من دوام الصفاء مع العُجْبِ". ١٠٥.

١٠٢- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة/ ٥]، فإنَّ العبادة تتضمن المقصود المطلوبَ على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه. فالأول من مقتضى ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته. ١١٧.

١٠٣- فإنَّ حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إلهَ إلا هو. فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه؛ ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها. ١٢٠.

١٠٤-ولو حصلَ للعبد من اللذات والسرور بغير اللَّه ما حصلَ لم يدُمْ له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، ثمَّ يتعذب به -ولا بد- في وقت آخر. وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غيرَ منعِمٍ له ولا مُلِذّ، بل قد يؤذيه اتصالُه به ووجودُه عنده، ويضرّه ذلك. ١٢٠.

١٠٥-والمقصود أن إله العبد الذي لا بُدَّ له منه في كل حالة وكلِّ دقيقة وكلِّ طرفة عين فهو الإلهُ الحق الذي كلُّ ما سواه باطل، الذي أينما كان فهو معه. وضرورته إليه وحاجته إليه لا تشبهها ضرورةٌ ولا حاجةٌ، بل هي فوق كل ضرورة، وأعظمُ من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام/ ٧٦]. ١٢١.

١٠٦- نفس الإيمان باللَّه، وعبادته، ومحبته، وإخلاص العمل له، وإفراده بالتوكل عليه هو غذاءُ الإنسان وقوتُه وصلاحُه وقِوامُه. ١٢٢.

١٠٧- أوامرُ المحبوب قرَّةُ العيون، وسرورُ القلوب، ونعيمُ الأرواح، ولذاتُ النفوس، وبها كمالُ النعيم. فقرةُ عين المحب في الصلاة والحج، وفرَحُ قلبِه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة؛ وأما الصدقة فعجب من العجب. ١٢٢.

١٠٨- قال تعالى في حقِّ الكفَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين/ ١٥ - ١٦].

١٠٩-فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذَّب به أعداؤه، ولذة النظر إلى وجهه الكريم أعظمُ أنواع اللذات التي ينعم بها أولياؤه، ولا تقومُ حظوظُهم من سائر المخلوقات مقامَ حظِّهم من رؤيته، وسماع كلامه، والدنو منه وقربه.

١١٠- وهذان الأصلان ثابتان بالكتاب والسنَّة، وعليهما أهل العلم والإيمان، ويتكلم فيهما مشايخ الطرق العارفون، وعليهما أهل السنة والجماعة، وهما من فطرة

اللَّه التي فطر الناس عليها، ويحتجّون على من ينكرهما بالنصوص والآثار تارة، وبالذوقِ والوجد تارة، وبالفطرة تارةً، وبالقياس والأمثال تارةً. ١٢٤.

١١١-فإنَّ اللَّه سبحانه قضى فيما قضَى به أنَّ ما عنده لا يُنال إلا بطاعته، وأنَّه ما استُجلِبتْ نِعَمُ اللَّه بغير طاعته، ولا استُديمتْ بغير شكره، ولا عُوِّقتْ وامتنعتْ بغير معصيته. وكذلك إذا أنعمَ عليك ثمَّ سلبك النعمة فإنه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك، وإنَّما أنت السبب في سلبها عنك، فإنَّ اللَّه لا يغيِّر ما بقومٍ حتَّى يغيروا ما بأنفسهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال/ ٥٣].

فما أُزيلت نعمُ اللَّه بغير معصيته:

إذا كنـــتَ في نعمـــةٍ فارْعَهَـــا ... فـــإنَّ الذنـــوبَ تُزيـــلُ النِّعَـــمْ

فآفتُك من نفسك، وبلاؤك منك، وأنت في الحقيقة الذي بالغتَ في عداوتك، وبلغتَ من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدوُّ منك، كما قيل:

مـــا يبلـــغُ الأعـــداءُ مـــن جَاهـــلٍ ... ما يبلغُ الجاهلُ مـــن نفسِـــهِ. ١٣٣.

١١٢-فإذا شكوته إلى خلقه كنتَ كما قال بعض العارفين، وقد رأى رجلًا يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!

وإذا عَرَتْـكَ مصـيبةٌ فاصْـبِرْ لهـا ... صـبرَ الكـريمِ فإنَّـهُ بـك أرحَـمُ

وإذا شـــكوتَ إلى ابـــنِ آدمَ إنَّمـــا ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ. ١٣٥.

١١٣- وإذا علمَ العبدُ حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتِيَ، ومن أيِّ الطرقِ أُغيرَ على سَرْحه، ومن أي ثَغرَة سُرِقَ متاعُه وسُلِبَ = استحيا من نفسه -إن لم يستحي من اللَّه- أن يشكوَ أحدًا من خلقه، أو يتظلَّمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى/ ٣٠]. ١٣٦.

١١٤- وقال بعض السلف: "مثل القلب مثل ريشة في أرض فلاة تقلِّبها الرياح ظهرًا لبطن".

فما حيلةُ قلب هو بيد مقلبه ومصرفه، وهل له مشيئة بدون مشيئته؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير/ ٢٩]. ١٣٨.

١١٥- وقال طاووس: "أدركتُ ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر". ١٣٨.

١١٦- وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية/ ٢٩] قال: "كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة".

قال: "والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يومًا بيوم، فذلك قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية/ ٢٩] ".

وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه.

وقد يُقال وهو الأظهر: إنَّ الآية تعمُ الأمرَين، فيأمر الله ملائكته فتنسخ من أم الكتاب أعمالَ بني آدم، ثمَ يكتبونها عليهم إذا عملوها، فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرةً ولا تنقصها. ١٣٩.

١١٧- وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر/ ٤٩]: "خلَق الله الخلقَ كلَّهم بقدر، وخلق الخير والشر؛ فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاوة". ١٣٩.

١١٨- وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السلف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود/ ١١٨، ١١٩] قالوا: خلق أهلَ الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف. ١٤١.

[٣٠] (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)

١- قال عن الإسلام – مقارنا بينه وبين غيره من الأديان -:

وحَكَمَ -سبحانه- بأنَّه أحسنُ الأديانِ، ولا أحسنَ من حُكْمِهِ ولا أصدقَ منه قِيلًا، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

وكيف لا يميِّز مَنْ له أدنى عقلٍ يرجع إليه بين دينٍ قام أساسُه وارتفع بناؤه على عبادةِ الرحمن، والعملِ بما يحبُّه ويرضاه مع الإخلاص في السِّر والإعلان، ومعاملةِ خلقه بما أَمَرَ به من العَدْلِ والإحسانِ، مع إيثارِ طاعتهِ على طاعةِ الشيطان .

وبين دينٍ أُسِّس بُنيانُهُ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهار بصاحبه في النَّار؛ أُسِّس على عبادة النِّيران، وعَقْدِ الشَّرِكَةِ بين الرَّحمنِ والشَّيطان، وبينه وبين الأوثان .

أو دينٍ أُسِّس بنيانُه على عبادة الصُّلْبان أو دينٍ أُسِّس بنيانُه على عبادة الإله المنحوت بالأيدي بعد نحت الأفكار من سائر أجناس الأرض على اختلاف الأنواع والأصناف والألوان.

أو دين الأمَّة الغَضَبيَّة الذين انسلخوا من رضوان الله كانسلاخ الحيَّة من قِشرها ، وبَاؤوا بالغَضَب والخِزْي والهَوانِ.

أو دينٍ أُسِّس بنيانه على أنَّ ربَّ العالمين وجود مُطْلَقٌ في الأذهان، لا حقيقةَ له في الأعيان، ليس بداخلٍ في العَالَمِ ولا خارجٍ عنه، ولا متَّصل به ولا منفصلٍ عنه، ولا محايثٍ ولا مباينٍ له، ولا يَسمع، ولا يَرى، ولا يعلم شيئًا من الموجودات ولا يفعل ما يشاء، لا حياة له، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا اختيار، ولم يخلق السموات والأرض في

ستة أيام، بل لم تزل السموات والأرض معه، وجودها مقارن لوجوده، لم يُحْدِثْها بعد عدمها، ولا له قدرة على إفنائها بعد وجودها، ما أنزل على بشرٍ كتابًا، ولا أرسل إلى الناس رسولًا، فلا شرع يتبع، ولا رسول يطاع، ولا دار بعد هذه الدار، ولا مبدأ للعالم ولا معاد، ولا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار، إن هي إلا تسعة أفلاك وعشرة عقول، وأربعة أركان وأفلاك تدور، ونجوم تسير، وأرحام تدفع، وأرض تبلع، و ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]. ٤، بتصرف.

٢- قال عن سيدنا ونبينا محمد ﷺ:

بشَّرتْ به الكتب السالفة، وأخبرتْ به الرُّسل الماضية، وجرى ذكره في الأعصار، في القرى والأمصار والأمم الخالية، ضُرِبَتْ لنبوَّتِهِ البشائرُ مِنْ عهد آدم أبي البشر، إلى عهد المسيح ابن البشر، كلَّما قام رسولٌ أُخذ عليه الميثاقُ بالإيمان به والبشارة بنبوَّته، حتى انتهت النبوَّةُ إلى كَلِيْم الرحمن، موسى بنِ عِمْرَانَ، فأذَّن بنبوَّته على رؤوس الأشهاد بين بني إسرائيل، مُعْلِنًا بالأذان: "جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران" إلى أن ظهر المسيح ابن مريم، عبدُ الله ورسولُه، وروحُه وكلمتُه التي ألقاها إلى مريم فأذَّن بنبوَّته أذانًا لم يؤذّنْه أحدٌ مثلُه قَبْلَه. ٨.

٣- فإنَّ الله -جلَّ ثناؤهُ وتقدَّست أسماؤه وتبارك اسمُه وتعالى جَدُّه ولا إلٰه غيره- جعلَ الإسلامَ عصمةً لمن لجأ إليه، وجُنَّةً لمن استمسك به وعضَّ بالنواجذ عليه، فهو حَرَمُه الذي مَنْ دخله كان من الآمنين، وحِصْنُهُ الذي من لجأ إليه كان من الفائزين، ومَنِ انقطع دونه كان من الهالكين، وأبى أن يقبل من أحد دينًا سواه - ولو بذل في المسير إليه جهده واستفرغ قواه - فأظهره على الدِّين كلِّه حتى طبَّق

مشارقَ الأرض ومغاربَها، وسار مَسِيْرَ الشَّمس في الأقطار، وبَلَغَ إلى حيث انتهى اللَّيلُ والنَّهار. ١٠.

٤- ولما بعث الله محمدًا ﷺ كان أهل الأرض صنفين: أَهْلُ كتابٍ، وزنادقة لا كتاب لهم.

وكان أهلُ الكتاب أفضلَ الصِّنْفَيْن، وهم نوعان: مغضوبٌ عليهم وضالُّون.

فالصنف الأول: الأمة الغضبيَّة، هم "اليهود".

والصنف الثاني المثلِّثة: أمةُ الضَّلال وعُبَّاد الصَّليب، الذين سَبُّوا الله الخالق مَسَبَّةً ما سَبَّهُ إيَّاها أحدٌ من البشر، ولم يُقِرُّوا بأنَّه الواحدُ الأحَدُ الفرد الصَّمَدُ، الذي لم يلد ولم يُوْلَدْ ولم يكن له كُفُوًا أحد. ١٤، بتصرف.

٥- وأُمَّةُ المَجُوسِ منهم؛ تستفرش الأمَّهات والبنات والأخوات -دَعِ العَمَّاتِ والخالات- دينُهم الزَّمْر، وطعامُهم الميتة، وشرابهم الخمَر، ومعبودهم النَّار، ووليُّهم الشيطان، فهم أخبثُ بني آدم نِحْلةً، وأرداهم مذهبًا، وأسْوَؤهُم اعتقادًا. ١٧.

٦- وأما زنادقة الصَّابئَةِ ومَلَاحِدَةُ الفلاسفة؛ فلا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولَا لقائه، ولا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، وليس للعالَم عندهم ربٌّ فَعَّال بالاختيار لما يريد قادرٌ على كلِّ شيء، عالمٌ بكلِّ شيء، آمرٌ ناهٍ، مُرْسِلُ الرُّسل، ومنزل الكتب، ومثيب المحسن، ومعاقب المسيء، وليس عند نظارهم إلا تسعة أفلاك، وعشرة عقول، وأربعة أركان، وسلسلة ترتبت فيها الموجودات، هي بسلسلة المجانين أشْبَهُ منها بمجوزات العقول. ١٧.

٧- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل

عمران: ١٦٤]. ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: ١٥١]:

فأحبُّ الوسائل إلى المحسن التوسُّلُ إليه بإحسانه، والاعترافُ له بأنَّ الأمر كلَّه محضُ فضلِه وامتنانهِ. ١٨، بتصرف.

٨- فمَنْ أصابته نفحةٌ من نَفَحَاتِ رحمته، أو وَقَعتْ عليه نظرةٌ من نظرات رأفته: انتعشَ من بين الأموات، وأَنَاخَتْ بفنائِهِ وفودُ الخيرات، وترحَّلت عنه جيوش الهموم والغموم والحسرات.

وإذا نَظَرْتَ إليَّ نَظْرَةَ رَاحِمٍ ... في الدَّهْرِ يومًا إنَّني لَسَعِيْدُ. ٢٠.

٩- ومن بعض حقوقِ الله على عبده رَدُّ الطَّاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحُجَّةِ والبيانِ، والسَّيف والسِّنَانِ، والقلبِ والجنانِ، وليس وراء ذلك حبَّة خَرْدَلٍ من الإيمان. ٢٠.

١٠- و (قد أمَر الله بمجادلة) الكفار بعد دعوتهم إقامةَ للحُجَّة وإزاحةً للعذر ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ٢١.

١١- والسَّيفُ إنما جاء مُنَفذًا للحُجَّة، مقوّمًا للمُعَانِد ، وحدًّا للجاحد، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]. ٢١.

١٢- فدينُ الإسلام قام بالكتاب الهادي، ونفَّذه السَّيفُ الماضي:

فَمَا هُوَ إلَّا الوَحْيُ أَوْ حَـدُّ مُرْهَـفٍ ... يُقِـيْمُ صُـباهُ أَخْـدَعَي كلِّ مَائِـلِ

فَهـذَا شِـفَاءُ الدَّاءِ مِـنْ كُلِّ عَاقـلٍ ... وهذا دَوَاءُ الدَّاءِ مِـنْ كُلِّ جَاهِـلِ. ٢١.

١٣- مدح ابن القيم كتابه (هداية الحيارى) بقوله:

فجاء -بحمد الله ومَنِّه وتوفيقه- كتابًا مُمْتِعًا مُعْجِبًا، لا يسأمُ قارِيه، ولا يَمَلُّ النَّاظر فيه؛ فهو كتابٌ يصلح للدُّنيا والآخرة، ولزيادة الإيمان، ولذة الإنسان، يعطيك ما شئتَ من أعلام النبوَّة وبراهين الرسالة، وبشارات الأنبياء بخاتمهم، واستخراجِ اسمه الصَّريح من كتبهم، وذِكْرِ نعتِه وصفته وسيرتِه من كتبهم، والتمييزِ بين صحيح الأديان وفاسدِها، وكيفيَّة فسادِها بعد استقامتها، وجملةً من فضائح أهل الكتابَيْن، وما هم عليه، وأنهم أعظم النَّاس براءةً من أنبيائهم، وأنَّ نصوص أنبيائهم تشهد بكفرهم وضلالهم، وغير ذلك من نُكَتٍ بديعة لا توجد في سواه. والله المستعانُ وعليه التُّكْلانُ، فهو حَسْبُنَا ونِعْمَ الوكيلُ. ٢٢.

١٤- بين ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) أن دين الإسلام قائم على الحجة، ومن عارض الإسلام ووقف في وجهه، فعندها يأتي السيف، وقسمه إلى قسمين:

الأول: في أجوبة مسائل أوردها بعض الكفار على أحد عامة المسلمين، وهذا غالب الكتاب.

والقسم الثاني: في تقرير نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – بجميع أنواع الدلائل. انظر: ٢٠.

١٥- أكثر الأُمم دخلوا في الإسلام طوعًا ورَغْبَةً واختيارًا، لا كرهًا ولا اضطرارًا، فإن الله ﷻ بعث محمدًا ﷺ رسولًا إلى أهل الأرض، وهم خمسة أصناف، قد طبقوا الأرض: يهود، ونصارى، ومَجُوسٌ، وصَابِئَة، ومشركون. وهذه الأصناف هي التي كانت قد استولت على الدنيا من مشارقها إلى مغاربها. ٢٧.

١٦- فأمَّا اليهود؛ فأكثر ما كانوا باليمن وخَيْبَر والمدينةِ وما حولها، وكانوا بأطراف

الشام مُسْتَذَلِّين مع النَّصارى، (وكان منهم بأرض فارس فرقة مستذلَّة مع المجوس)، وكان منهم بأرض المغرب فِرْقَةٌ، وأعزَّ ما كانوا بالمدينة وخيبر. ٢٧.

١٧- وأمَّا النصارى؛ فكانوا طَبَقَ الأرض؛ فكانت الشَّام كلُّها نصارى، وأرضُ المغرب كان الغالب عليهم النصارى، وكذلك أرض مِصْرَ، والحَبَشَةِ، والنُّوْبَةِ، والجزيرة، والمَوْصِل، وأرضِ نَجْرَانَ وغيرها من البلاد. ٢٨.

١٨- وأما المجوس؛ فهم أهل مملكة فارس وما اتَّصل بها. ٢٨.

١٩- وأمَّا الصَّابِئَةُ ؛ فأهلُ حَرَّانَ، وكثيرٌ من بلاد الروم. ٢٨.

٢٠- بعث الله نبيه محمدا ﷺ إلى أهل الأرض، وهم خمسة أصناف:

يهود، ونصارى، ومجوس، وصابئة، ومشركون.

وهذه الأديان الخمسة كلُّها للشيطان، كما قال ابن عباس ﷺ وغيره: الأديان ستة، واحد للرحمن، وخمسة للشيطان .

وهذه الأديان الستة مذكورةٌ في آية الفصل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧]. ٢٧، وما بعدها بتصرف.

٢١- فلما بعث الله رسوله ﷺ استجاب له، ولخلفائه بعده، أكثرُ أهل الأديان طوعًا واختيارًا، ولم يُكْرِه أحدًا قط على الدين، وإنما كان (يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه: فلم) يقاتله ولم يُكْرِهْهُ على الدخول في دينه، امتثالًا لأمر ربِّه -سبحانه- حيث يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفيٌ في معنى النهي، أي لا تكْرِهُوا أحدًا على الدِّين. ٢٩.

٢٢- ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والصحيح أَنَّ الآية على عمومها في حقِّ كلِّ كافرٍ. وهذا ظاهرٌ على قول من يجوِّز أخْذَ الجزية من جميع الكفار، فلا يُكْرَهُونَ على الدخول في الدِّين، بل إمَّا أن يدخلوا في الدين، وإما أن يُعْطُوا الجزية، كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعضَ عَبَدَةِ الأوثان. ٢٩، بتصرف.

٢٣- ومَنْ تأمَّل سيرة النبيِّ ﷺ تبيَّن له أنه لم يُكْرِهْ أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله.

وأما من هَادَنَهُ: فلم يُقاتِلْه مادام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يَفِيَ لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٧].

ولما قَدِمَ المدينةَ صالح اليهودَ، وأقرَّهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم؛ فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضَهم، وقتل بعضهم .

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتالٍ حتى بدؤوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم . وكانوا هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أُحُدٍ، ويوم الخَنْدَقِ، ويوم بَدْرٍ أيضًا، هم جاؤوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم. ٣٠.

٢٤- فهؤلاء أهل اليمن، كانوا على دين اليهوديَّة أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذٍ لمَّا بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قومًا أهل كتاب فليكنْ أوَّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله" وذكر الحديث . ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة. ٣٠.

٢٥- وكذلك مَنْ أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله (بن سلام) مذكورون في كتب السِّيَر والمغازي؛ لم يُسْلِموا رغبةً في الدنيا، ولا رهبةً من السيف، بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم ومحاربة أهل الأرض لهم من غير سَوْطٍ ولا نَوْطٍ ؛ بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم نفعهم بالمال والبدن مع ضعف شوكة المسلمين وقلة ذات أيديهم، فكان أحدهم يعادي أباه وأمه وأهل بيته وعشيرته، ويخرج من الدنيا رغبة في الإسلام لا لرياسة ولا مال، بل ينخلع من الرياسة والمال ويتحمل أذى الكفار؛ مِنْ ضربهم وشتمهم وصنوف أذاهم، ولا يصرفه ذلك عن دينه. ٣١.

٢٦- فهؤلاء نصارى الشام كانوا ملء الشام ثم صاروا مسلمين إلا النادر، فصاروا في المسلمين كالشعرة السوداء في الثور الأبيض. ٣٢.

٢٧- وكذلك المجوس كانت أمةً لا يُحْصِي عدَدَهُمْ إلا الله فأطبقوا على الإسلام لم يتخلَّفْ منهم إلا النادر، وصارت بلادهم بلاد إسلام، وصار مَنْ لم يُسْلِم منهم تحت الجزية والذلة . ٣٢.

٢٨- وكذلك اليهود أسلم أكثرهم ولم يَبْقَ منهم إلا شِرْذِمَةٌ قليلة مقطَّعة في البلاد. ٣٢.

٢٩- وعادٌ أَطبقوا على الكفر، وهم أمة عظيمة عقلاء، حتى استؤصلوا بالعذاب. ٣٣.

٣٠- وثمودُ أطبقوا جميعهم على الكفر بعد رؤية الآية العظيمة التي يؤمن على مثلها البشر، ومع هذا فاختاروا الكفر على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ

ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨]. ٣٣.

٣١- وهؤلاء قوم فرعون مع كثرتهم قد أطبقوا على جحد نبوة موسى مع تظاهر الآيات الباهرة آيةً بعد آية؛ فلم يؤمن منهم إلا رجل واحد كان يكتم إيمانه. ٣٣.

٣٢- وأي أمة من الأمم اعْتبَرْتَهَا وجدتَ المصدِّقين بنبوة محمدٍ ﷺ جمهورَهَا، وأقلُّها وأراذلُها هم الجاحدون لنبوَّته. ٣٤.

٣٣- وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

أي فلم يكن قريةٌ آمنت فنفعها إيمانُها إلَّا قوم يونس. ٣٥.

٣٤- ومعلوم قطعًا أنَّه لم يُصَدَّقْ نبيٌّ من الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، ولم يتبعه من الأُمم ما صُدِّقَ محمدُ بنُ عبدِ الله ﷺ. والذين اتَّبعوه من الأمم أضعاف هاتين الأمتين المكذِّبتين مما لا يحصيهم (إلا الله) ، ولا يستريب من له مُسْكة من عقل أنَّ الضلال والجهل والغيَّ وفساد العقل إلى من خالفه وجحد نبوته أقرب منه إلى أتباعه ومَنْ أقرَّ بنبوته. ٣٦.

٣٥- ومعلوم أنَّ الكاذب على الله في دعوى الرسالة هو شَرُّ خلقِ الله وأفْجَرُهم وأظلمهم وأكذبهم. ٣٦.

٣٦- وأين عقول عُبَّادِ العجل وعُبَّاد الصَّليب الذين أضحكوا سائر العقلاء على عقولهم ودلُّوهم على مبلغها بما قالوه في معبودهم من عقول المسلمين؟!!. ٣٧.

٣٧- ذكر ابن القيم ﷺ في كتابه العظيم (هداية الحيارى) ستة أسباب تمنع قبول الحق، وهي:

الجهل بالحق، وبغض الآمر بالحق، والإلف والعادة والمربى على ما كان عليه

الآباء، وتوهم أن الحق حائل بينه وبين العز والشرف والجاه، والخوف من العشيرة والأصحاب على نفسه وماله وجاهه، ومن أعظمها: الحسد. ٣٩، بتصرف.

٣٨- وهل مَنَعَ إبليسَ من السجود لآدم إلا الحَسَدُ؟! فإنَّه لما رآه قد فُضِّل عليه ورُفِعَ فوقه غَصَّ بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة. ٤٠.

٣٩- وهذا الدَّاء – وهو الحسد - هو الذي منع اليهودَ من الإيمان بعيسى ابن مريم، وقد علموا عِلْمًا لا شَكَّ فيه أنَّه رسولُ الله جاء بالبيِّنات والهدى؛ فحَمَلَهُمُ الحَسَدُ على أنِ اختارُوا الكُفْرَ على الإيمان، وأطبقُوا عليه، وهُمْ أمةٌ فيهم الأحبارُ والعلماء والزهَّاد والقُضَاة والملوك والأُمراء. ٤٠، بتصرف.

٤٠- وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعةٍ تخالفها، ولم يُقاتِلْهُمْ، وإنما أتى بتحليل بعض ما حُرِّمَ عليهم تخفيفًا ورحمةً وإحسانًا، وجاء مكمِّلًا لشريعةِ التوراة، ومع هذا فاختاروا كلُّهم الكفرَ على الإيمان. ٤٠.

٤١- ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩]. يعني بك يا محمد ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

"يَسْتَفْتِحُوْنَ" أي: يستنصرون. ٤٥.

٤٢- وهذا المانع – وهو الحسد - هو الذي مَنعَ فرعونَ من اتِّباع موسى، فإنه لما تبيَّن له الهدى عزم على اتِّباع موسى -عليه السلام- فقال له وزيرُه هامان: بينا أنت إلهٌ تُعْبَد تصبح تَعْبُد ربًّا غيرك ؟! قال: صدقتَ. ٤٧، بتصرف.

٤٣- قال عن النصارى:

شَرٌّ من الحمير؛ بل هي شَرُّ الدوابِّ عند الله. ٤٩.

٤٤- قال عن النصارى:

وكان ينبغيَ لها أنْ تحرق كلَّ صليبٍ تقدر على إحراقه، وأنْ تهينَهُ غايةَ الإهانةِ؛ إذْ صُلِب عليه إلهُهَا الذي يقولون تارةً: إنَّه الله، وتارةً يقولون: إنه ابنه، وتارةً يقولون: ثالثُ ثلاثةٍ. ٤٩.

٤٥- قال بعض ملوك الهند: أمَّا النصارى؛ فإن كان أعداؤهم من أهل الملل يجاهدونهم بالشَّرْع فأنا أرى جهادَهُمْ بالعقل لأن من كان في أصل عقيدته التي جرى نشؤه عليها: الإساءة إلى الخلاق والنيل منه، وسبّه أقْبَحَ مسبَّةٍ، ووصفه بما يغيِّر صفاتِه الحُسْنَى، فأخْلِقْ به أن يستسهل الإساءةَ إلى مخلوق، وأنْ يصفَه بما يغيِّر صفاتِه الجميلة!. ٥١، بتصرف.

٤٦- وهذا مَلِكُ النَّصارى على إقليم الحبشة في زمن النبيِّ ﷺ، لما تبيَّن له أنَّه رسولُ الله آمن به، ودخل في دينه، وآوى أصحابَهُ ومَنَعَهُمْ من أعدائهم. ٥٥.

٤٧- وكان من رؤساء النَّصارى الذين دخلوا في الإسلام -لما تبيَّن أنه الحق-: الرَّئيسُ المُطَاعُ في قومه "عَدِيُّ بنُ حاتم الطائي". ٦٦.

٤٨- وقد كان "سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ" من أعلم النصارى بدينهم، وكان قد تيقَّن خروجَ النبيِّ ﷺ، فَقَدِمَ المدينةَ قبل مبعثه، فلما رآه عرف أنَّه هو النبيُّ الذي بشَّر به المسيح، فآمن به واتَّبعه. ٦٩.

٤٩- وكان مَلِكُ الشَّام أحد أكابر علمائهم بالنصرانية (هِرَقْل)، قد عرف أنَّه رسولُ الله ﷺ حقًّا، وعزم على الإسلام، فأبى عليه عُبَّادُ الصَّليب، فخافهم على نفسه، وضنَّ بِمُلْكِهِ مع علمه بأنَّه سَيُنْقَلُ عنه إلى رسول الله ﷺ وأمَّتِهِ. ٧٧.

٥٠- ولما عرف "النَّجاشِيُّ"، ملكُ الحبشة، أنَّ عُبَّاد الصليب لا يخرجون (عن عبادة)

الصليب إلى عبادة الله وحده: أسلَمَ سِرًّا، وكان يكتم إسلامه بينهم، هو وأهل بيته، ولا يمكنُه مجاهرتُهم. ٨١.

٥١- وكذلك مَلِكُ دين النَّصرانيَّة بمصرَ؛ عَرَفَ أنَّه نبيٌّ صادقٌ، ولكنْ مَنَعَهُ مِن اتِّباعه مُلْكُه وأنَّ عُبَّاد الصَّليبِ (لا يتركون عبادةَ الصَّليب). ٨٣.

٥٢- وكذلك ابنا الجُلَنْدَى، مَلِكَا عُمَانَ وما حولَها، مِنْ ملوك النَّصَارى، أسْلَمَا طوعًا واختيارًا، ونحن نذكر قصَّتَهما وكتابَ رسولِ الله ﷺ إليهما. ٨٥.

٥٣- ولم يتخلَّفْ عن متابعته ﷺ إلا الأقَلُّون ، وهم: إمَّا مُسالِمٌ له قد رَضِي بالذلَّة والجزية والهوان، وإمَّا خائفٌ منه؛ فأهْلُ الأرض معه ثلاثةُ أقسامٍ: مسلمون ومُسَالِمُونَ له، وخَائِفُونَ مِنْه. ٩٢، بتصرف.

٥٤- قيل: الصَّدِيْق الجاهلُ يضرُّ أكثر مما يضرُّ العدوُّ العاقل. ١٠٠.

٥٥- فالربُّ سبحانه إنما أخبر عن كَوْنِ رسولِهِ مكتوبًا عندهم -أي الإخبار عنه وصفته ومخرجه ونعته- ولم يُخْبِرْ بأنَّ صريح اسمِه العربيّ مذكورٌ عندهم في التوراة والإنجيل.

وهذا واقعٌ في الكتابَيْن، وهذا أبْلَغُ مِنْ ذِكْره بمجرد اسمِهِ، فإنَّ الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز. ١٠٠، بتصرف.

٥٦- والنصارى لا يُقِرُّون أنَّ الإنجيل مُنَزَّل من عند الله على المسيح، وأنَّه كلام الله، بل كلُّ فِرَقِهِمْ مجمعون (على أنَّ أربعة تواريخ ألَّفَها أربعةُ رجالٍ معروفون) في أزمانٍ مختلفةٍ، ولا يعرفون الإنجيلَ غير هذا. ١١٣.

٥٧- أربعة أناجيل للنصارى:

إنجيل متى تلميذ المسيح، بعد تسع سنين من رفع المسيح، وكُتِبَ بالعبرانيَّةِ في

بلد "يهوذا" بالشام.

وإنجيل أَلَّفَهُ مَرْقُس الهارُونِيُّ، تلميذ شَمْعُون، بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من رفع المسيح، وكَتبَهُ باليونانيَّة في بلاد أنطاكِيَة من بلاد الرُّوم.

وإنجيلٌ أَلَّفَهُ لُوْقَا الطبيب الأنطاكيُّ، تلميذ شمعون، بعد تأليف مَرْقُس.

وإنجيل أَلَّفَهُ يُوحَنّا تلميذ المسيح، بعد ما رُفِعَ المسيح ببضعٍ وستين سنة، كتبه باليُونَانِيَّة.

وكلُّ واحدٍ من هذه الأربعة يسمُّونه: الإنجيل، وبينها من التَّفاوُتِ والزيادة والنقصانِ ما يعلَمُه الواقفُ عليها.

وبين توراةِ السَّامِرَةِ واليهود والنَّصارى من ذلك ما يعلمه من وَقَفَ عليها. ١١٣، بتصرف.

٥٨- من صفات أهل الكتاب:

"أحدها": لَبْسُ الحقِّ بالباطل، وهو خَلْطُه به بحيث لا يتميَّزُ الحقُّ من الباطل.

"الثاني": كِتْمَانُ الحقِّ.

"الثالث": إخفاؤه. وهو قريبٌ من كِتْمَانِهِ.

"الرَّابع": تحريفُ الكَلِمِ عن مواضعه. وهو نوعان: تحريفُ لفظِهِ، وتحريفُ مَعْنَاهُ.

"الخامس": لَيُّ اللِّسان به، ليلبِّس على السَّامع اللفظ المُنَزَّل بغيره. ١١٥، بتصرف.

٥٩- ذكر ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) بأن العلم بأنه ﷺ مذكور في الكتب المتقدمة يعرف من اثني عشر وجها. انظر: ١٠٩.

٦٠- ما ذكر في الكتب المتقدمة عنه ﷺ وعن أمته يعرف من خلال تسعة وثلاثين وجها. انظر: ١١٩.

٦١- وشبَّه -سبحانه- نبوةَ موسى بمجيء الصُّبْح، ونبوةَ المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوةَ خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق. ووقع الأمر كما أخبر به سواء، فإنَّ الله -سبحانه- صَدَعَ بنبوةِ موسى لَيْلَ الكفر، فأضاء فجرُه بنبوتِه، وزاد الضياءُ والإشراقُ بنبوَّةِ المسيح، وكَمُلَ الضِّياءُ واسْتَعْلَنَ، وطبَّق الأرضَ بنبوة محمدٍ -صلوات الله وسلامه عليهم-. ١٢٣.

٦٢- ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [سورة التين: ١ - ٣].

فذَكَر أمكنةَ هؤلاء الأنبياءِ وأرضَهم التي خرجوا منها. والتِّيْن وَالزَّيْتُوْنُ: المراد بهما منبتُهما وأرضُهما، وهي الأرض المقدَّسة التي هي مَظْهَرُ المسيح.

وَطُورُ سِينِيْنَ: الجبل الذي كلَّم الله عليه موسي، فهو مظهر نبوَّتِه.

وهذا البَلَدُ الأَمِيْنُ: مكة حَرَمُ الله وأمْنُه، التي هي مظهر نبوَّة محمدٍ -صلوات الله وسلامه عليهم-. ١٢٣.

٦٣- قال عليٌّ ﷺ: حَدِّثوا النَّاسَ بما يعرفون، ودَعُوا ما يُنْكِرُونَ، أتريدونَ أن يكذب اللهُ ورسولُه . ١٣٥.

٦٤- قال ابن مسعود: ما مِنْ رجل يحدِّث قومًا بحديثٍ لا تبلُغُه عقولُهم إلا كان فتنةً لبعضهم. ١٣٥.

٦٥- ليس في الإنجيل من صفات الله تعالي وصفات مَلَكُوتِه وصفاتِ اليوم الآخر إلا أمورٌ مُجْمَلَة، وكذلك التوراة؛ ليس فيها من ذِكْر اليوم الآخر إلا أمور مجملة. ١٣٦.

٦٦- قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]. أي: ما نُطْقُه إلا وحيٌ يُوحَي. ١٤٠.

٦٧- والله تعالي أمره أن يبلِّغ ما أُنزل إليه، وضمِنَ له العصمةَ في تبليغ رسالاته، فلهذا

أرشد الناس إلي جميع الحقِّ وألقَي للناس ما لم يمكن غيرَه من الأنبياء إلقاؤه خوفًا أن يقتله قومه. ١٤٠.

٦٨- ومحمد ﷺ أيَّده الله -سبحانه- تأييدًا لم يؤيِّده لغيره: فَعَصَمَه من الناس حتي لم يَخَفْ من شيءٍ يقوله، وأعطاه من البيان والعلم ما لم يؤتهِ غيرَه، وأيَّد أمته تأييدًا أطاقتْ به حَمْلَ ما ألقاه إليهم، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: "إن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تستطيعون حَمْلَه". ١٤٠.

٦٩- ولا ريب أن أمة محمدٍ ﷺ أكْمَلُ عقولًا، وأعْظمُ إيمانًا، وأَتمُّ تصديقًا وجهادًا، ولهذا كانت علومُهم وأعمالُهم القلبية وإيمانُهم أعْظَمَ، وكانت العباداتُ البدنيَّة لغيرهم أعظم. ١٤٠.

٧٠- ولم يشهد أحدٌ للمسيحِ شهادةً سمعها عامَّةُ الناس إلا محمد ﷺ، فإنه أظْهَرَ أمْرَ المسيحِ، وشهِدَ له بالحقِّ حتي سمع شهادتَهُ له عامةُ أهلِ الأرض، وعلموا أنَّه صدَّقَ المسيح ونزَّهه عمَّا افترته عليه اليهود وما غَلَتْ فيه النصاري، فهو الذي شهد له بالحقِّ. ١٤١.

٧١- وجعل الله أمةَ محمدٍ ﷺ شُهَدَاءَ علي النَّاسِ، شهدوا عليهم بما علموا من الحقِّ، إذْ كانوا وَسَطًا عدولًا، لا يشهدون بباطلٍ، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلًا، بخلاف مَنْ جارَ في شهادتِه فزادَ علي الحقِّ، أو نَقَصَ منه، كشهادة اليهود للنصاري في المسيح. ١٤١.

٧٢- وهو صاحبُ لواءِ الحَمْد، والحمدُ مفتاح خطبتِه ومفتاحُ صلاتِه، ولمَّا كان حمَّادًا سُمِّي بمثل وَصْفِه، فهو محمَّد -وزن مكرَّم ومعظَّم ومقدَّس- وهو الذي يُحْمَدُ

أكثرَ ممَّا يحمد غيره ويستحقُّ ذلك، فلمَّا كان حَمَّادًا لله كان محمدًا. وفي شعر حَسَّان:

٧٣- أَغَرُّ عليـــه للنُّبوَّةِ خَاتَـــمٌ مِنَ اللهِ مَيْمُونٌ يَلُوحُ ويَشْهَـــدُ
وضَمَّ الإلهُ اسمَ النَّبيِّ إلي اسْمِهِ إذَا قالَ في الخمس المؤذِّنُ أشْهَدُ
وشَقَّ له مِن اسْمِـــهِ لِيُجِلَّـــهُ فَذُو العَرْشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ. ١٤١.

٧٤- فلفظُ "محمَّد" يقتضي زيادةً في الكميَّة، ولفظ "أحمد" يقتضي زيادةً في الكيفيَّة. ١٤٢.

٧٥- ولم يَبْقَ بأيدي النَّصاري إلا دينٌ باطِلُه أضعافُ أضعافِ حقِّه، وحقُّه منسوخٌ بما بَعَثَ اللهُ به محمدًا ﷺ. ١٤٦.

٧٦- قال تعالي: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

وهذه بشارةٌ بأنَّ المسلمين لا يزالونَ فوق النَّصاري إلي يوم القيامة؛ فإن المسلمين هم أتباعُ المرسلين في الحقيقة، وأتباعُ جميع الأنبياء، لا أعداؤه. وأعداؤه عُبَّادُ الصليب الذين رَضُوا أنْ يكونَ إلَهًا مصفوعًا مصلُوبًا مقتولًا، ولم يَرْضَوا أن يكونَ نبيًّا عبدًا لله، وجيها عنده، مقرَّبًا لديه. فهؤلاء أعداؤه حقًّا، والمسلمون أتباعُه حقًّا. ١٤٩.

٧٧- بشارة المسيح بالنبيِّ ﷺ فوقَ كلِّ بشارةٍ، لمَّا كان أقربَ الأنبياءِ إليه، وأَوْلاهُمْ به، وليس بينه وبينه نبيٌّ (مرسل صاحب شريعة وكتاب) . ١٤٩.

٧٨- وتأمَّلْ قول المسيح: "إن أُرْكُون العالَم سيأتي"، وأُركون العالم: هو سيِّد العالم وعظيمه، ومَنِ الذي سادَ العالَم، وأطاعه العالَمُ بعد المسيح = غيرُ النبيِّ ﷺ؟!. ١٤٩.

٧٩- وتأمل قولَ النبيِّ ﷺ -وقد سئل ما أول أمرك؟ قال-: "أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشْري عيسي" . وطابِقْ بين هذا وبين هذه البشارات التي ذكرها المسيح. فمن الذي ساد العالَم باطنًا وظاهرًا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأُطِيْع في السرِّ والعلانية، في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار، وأفضلِ الأقاليم والأمصار، وسارت دعوته مَسِيرَ الشَّمس، وبلغ دينُه ما بلغ الليلُ والنَّهار، وخَرَّتْ لمجيئه الأُمم علي الأذقان، وبَطلتْ به عبادةُ الأوثان، وقامت به دعوةُ الرحمن، واضمحلَّت به دعوة الشيطان، وأذلَّ الكافرين والجاحدين، وأعزَّ المؤمنين وجاء بالحقِّ وصدَّق المرسلين، حتي أعلن بالتوحيد علي رؤوس الأشهاد، وعُبدَ اللهُ وحدَه لا شريك له، في كلِّ حاضرٍ وباد، وامتلأتْ به الأرضُ تحَميدًا وتكبيرًا لله وتهليلًا، وتسبيحًا، واكتستْ به -بعد الظُّلْمِ والظَّلامِ- عَدْلًا ونُورًا. ١٤٩.

٨٠- وطابقْ بين قولِ المسيح: "إن أُركون العالم سيأتيكم"، وقولِ أخيه محمَّدٍ ﷺ: "أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم ولا فَخر، آدم فمن دونه تحت لوائي، وأنا خطيبُ الأنبياء إذا وَفَدُوا، وإمامُهُم إذا اجتمعوا، ومبشِّرُهم إذا أَيِسُوا، لواءُ الحمدِ بيدي، وأنا أكرمُ ولدِ آدمَ علي ربيِّ" . ١٥٠.

٨١- فإنَّ محمدًا ﷺ ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها أعْظَمَ مما ظهر بالكتابين المتقدِّمَيْن، كما يظهر نور الشمس في مشارق الأرض ومغاربها إذا استعلنت وتوسَّطتِ السماءَ ، ولهذا سمَّاه الله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦]. وسمى الشمس: ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣] والخَلْقُ يحتاجون إلي السراج المنير أعْظَمَ من حاجتهم إلي السراج الوهَّاج، فإن هذا يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وأمَّا السراج المنير فيحتاجون إليه كلَّ وقت، وفي كل مكان، ليلًا

ونهارًا، سرًّا وعلانيةً. ١٥٧.

٨٢- ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ١ - ٣]:

وأمَّا القرآن فإنَّه أقسم بها تعظيمًا لشأنها وإظهارًا لقدرته وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها علي وجه التدريج درجةً بعد درجةً، فبدأ بالعالي، ثم انتقل إلى أعلي منه، ثم أعلي منهما، فإنَّ أشرفَ الكتب القرآنُ، ثم التوراة، ثم الإنجيل. وكذلك الأنبياء الثلاثة. ١٥٧، بتصرف.

٨٣- اليهود يَجْمعون الناس بالبُوق، والنَّصاري بالناقوس، وأما تكبيرُ الله بأصوات مرتفعة، فشعار محمدِ بنِ عبد الله وأمَّتِه. ١٦٤.

٨٤- وليس متقلِّد السيف بعد داود من الأنبياء سوي محمد ﷺ، وهو الذي خرَّتِ الأمم تحته، وقُرِنَتْ شرائعه بالهيبة: إمَّا القبول وإما الجزية، وإما السيف. وهذا مطابقٌ لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعب مَسِيْرَةَ شهرٍ». ١٦٥.

٨٥- وصاحب الحمار عندنا وعند النصارى هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد صلوات الله وسلامه عليهما، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار، وبمحمد ﷺ سقطت أصنام بابل لا بالمسيح، ولم يزل في إقليم بابل من يعبد الأوثان من عهد إبراهيم الخليل إلى أنْ سقطتْ بمحمد ﷺ. ١٦٨.

٨٦- فصِهْيَوْن هي مكة عند أهل الكتاب. (وكذا كُلُّ بيتٍ بني للصلاة. وصهيون أيضًا: الأرض المقدسة). وهذا الحجر الأسود الذي يُقَبِّله الملوك فمن دونهم، وهو مما اختصَّ به محمد وأمته. ١٧٣.

٨٧- وبنو قيدار هم العرب؛ لأن قيدار هو ابن إسماعيل بإجماع الناس. ١٧٣.

٨٨- قالت عائشة ﵂: "ما رأيت رسولَ الله ﷺ ضاحكًا حتى تَبْدُوَ لَهَواتُه، إنَّما كان

يتبسم تبسُّمًا"؛ وهذا لأنَّ كثرة الضحك من خفة الروح ونقصان العقل، بخلاف التبسُّم فإنه من حُسْنِ الخُلُق وكمال الإدراك. ١٧٥.

٨٩- فَتَرْكُ الضَّحِك بالكليّة مِنَ الكِبْر والتَّجبُّر وسُوء الخلُق. وكثرتُه مِنَ الخِفَّة والطَّيْش، والاعتدالُ بين ذلك . ١٧٥.

٩٠- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النحل: ٢]. وقوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: ١٥]. فسمَّى الوحي روحًا؛ لأن حياة القلوب والأرواح به، كما أنَّ حياة الأبدان بالأرواح. ١٧٦.

٩١- ففتح الله بمحمد ﷺ الأعْيُنَ العُمْيَ فأبصرتْ بالله، والآذانَ الصُّمَّ فسَمِعتْ عن الله، والقلوبَ الغُلْفَ فعقلتْ عن الله، فانقادت لطاعته عقلًا وقولًا وعملًا، وسلكتْ سبل مرضاته ذُللًا. ١٧٧.

٩٢- أعطي نبينا محمد ﷺ ما لم يعط أحد من الأنبياء قبله، ومن ذلك:

أنه بعث إلى الخلق كافة، وما آتاه من العلم والشجاعة والصبر، والعبادات القلبية، والمعارف الإلهية، واقتران اسمه باسمه، وأُعطي من اليقين والإيمان والصبر والثبات والقوة في أمر الله والعزيمة على تنفيذ أوامره، والرضى عنه والشكر له، والقنوع في مرضاته وطاعته ظاهرًا وباطنًا سرًا وعلانيةً، في نفسه وفي الخلق = ما لم يُعْطه نبي قَبْله. ١٧٧، بتصرف.

٩٣- ومَنْ تأمَّل سيرتَه وحروبَه عَلِمَ أنّه لم يطرق العالَمَ أشجعُ منه ولا أثبت ولا أصبر، وكان أصحابُه -مع أنَّهم أشجعُ الأمم- إذا حَمِي البَأْسُ واشتدَّ الحرب اتَّقوا به

وتترَّسُوا به فكان أقربُهم إلى العدو، وأشجَعُهم هو الذي يكون قريبًا منه . ١٨٠.

٩٤- قال عن نبينا محمد ﷺ:

كان أَبْعَدَ الناس من اللهو واللعب، بل أمْرُه كلّه جد وحزم وعزم، مجلسه مجلس حياءٍ وكَرَمٍ وعلمٍ وإيمان ووقار وسكينة. ١٨٠.

٩٥- فإنَّ مَنْ تأمل سيرته وجده أعْظَم الناس تواضعًا للصغير والكبير والمسكين والأرملة والحر والعبد؛ يجلس معهم على التراب، ويُجيب دعوتَهم، ويَسمع كلامَهم، ويَنطلق مع أحدهمِ في حاجته، ويأخذ له حقَّه ممَّن لا يستطيع أن يُطالبه به، (ويَخْصِف نَعْله، ويَخِيط ثوبه). ١٨١.

٩٦- فإنَّ لفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور: يُرَاد به الكتب المعيَّنة تارةً، ويُراد به الجنس تارةً. فيعبَّر بلفظ القرآن عن الزبور، وبلفظ التوراة عن القرآن، وبلفظ الإنجيل عن القرآن أيضًا. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: "خُفِّفَ على دَاوُدَ عليه السلام القُرآنُ فكانَ مَا بينَ أنْ تُسْرَجَ دَابتُه إلى أنْ يَرْكَبَها يقرأ القُرْآنَ" فالمراد به: قرآنه، وهو الزَّبُور. ١٨٣.

٩٧- وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ﷺ ولا تصلح إلا له ولا تنزل إلا عليه، فمن حاول صَرْفَها عنه فقد حاول صَرْفَ الأنهارِ العظيمة عن مجراها، وحَبْسَها عن غايتها ومنتهاها، وهيهات ما يروم المبطلون والجاحدون، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون. ١٨٨.

٩٨- فمن الذي امتلأتِ الأرضُ من حَمْدِه وحَمْدِ أمته لله في صلواتهم وخُطَبِهم وأدبار صلواتِهم وعلى السرَّاءِ والضرَّاءِ وجميع الأحوال سواء، حتى سماهم الله قبل ظهورهم الحمادين! ١٨٨.

٩٩- ومن الذي كان وجهه كأن الشمس والقمر يجريان فيه في ضيائه ونوره؟!

١٠٠- قَدْ عَوَّدَ الطيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كلِّ مُرْتَحَلِ

لَوْ لَمْ يَقُلْ إِنِّي رسولٌ أتى شاهدُه في وَجْهِهِ يَنْطِقُ. ١٨٨.

١٠١- ومن الذي سارت المنايا أمامه وصحبت سِباعُ الطير جنودَهُ لعلمها بما يقرب من ذبح الكفار لله الواحد القهار؟!

يَتَطَايَرُونَ بقُرْبِهِ قربانهم بِدماءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكفَّارِ

١٠٢- ومن الذي تَضَعْضَعَتْ له الجبالُ وانخفضتْ له الرَّوابي، وداس الأُمم ودوَّخ العالم، وانتقضتْ بنبوته الممالِكُ، وخلَّص الأمة من الشرك والكفر والجهل والظلم سوى محمد؟! ١٨٨، بتصرف.

١٠٣- فأهلُ الأرضِ كلُّهم في ظلمات الجهلِ والغيِّ إلا من أَشْرَق عليه نورُ النبوة، كما في "المسند" وغيره من حديث عبدِ الله بنِ عَمْرو، عن النبيِّ ﷺ قال: "إنَّ الله خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلْمةٍ وألْقَى عليهم من نوره، فَمَنْ أصابَهُ من ذلك النُّور: اهتدى، ومَنْ أخطأه: ضَلَّ، فلذلك أقول: جَفَّ القَلم على عِلْمِ اللهِ". ٤٤٨.

١٠٤-ولذلك بَعَثَ اللهُ رُسُلَه (لِيُخْرِجُوا النَّاسَ) من الظُّلماتِ إلى النُّور، فمَنْ أجابهم: خرجَ إلى الفَضَاءِ والنُّورِ والضِّياءِ، ومَنْ لم يُجبْهم: بَقِيَ في الضِّيق والظُّلْمَةِ التي خُلِق فيها، وهي: ظلمة الطَّبْع، وَظلمة الجهلِ، وظلمة الهوى، وظلمة الغَفْلة عن نفسه وكمالها، وما تسعد به في معاشِهَا ومَعَادِهَا. ٤٤٩.

١٠٥-من أخطأ نور النبوة؛ لو أشْرَقَ له شيءٌ من نور النبوَّة لكان بمنزلة إشراقِ الشمس على بصر الخُفَّاش

بَصَائِرُ أَعْشَاهَا النَّهارُ بِضَوئِهِ وَلَاءمها قِطْعٌ من الليل مظلمُ

يَكَادُ نُورُ النبوَّة يُعْمِي تلك البصائر ويَخْطَفُها لشدَّتِه وضَعْفِها، فتهرب إلى الظلمات لموافقتها لها وملاءمتها إيَّاها. ٤٤٩، بتصرف.

١٠٦- والمؤمنُ: عَمَلُه نورٌ، وقولُه نورٌ، ومدخلُه نورٌ، ومخرجُه نورٌ، وقَصْدُه نورٌ، فهو يتقلَّب في النور في جميع أحواله.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ .

ثم ذَكَرَ حالَ الكُفَّار وأعمالَهم وتَقَلُّبَهُم في الظُّلمات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩ - ٤٠]. ٤٥٠.

الخاتمـــة

تم بحمد الله ختم نقل الشذرات والفوائد والدرر من (تراث ابن القيم) عليه رحمة الله في عصر يوم الجمعة، بتاريخ ١٤٤٣/١٠/١٢هـ، في طيبة المطيبة، المدينة المنورة، المدينة المصطفوية، طابة، مأوى الحبيب، ومثوى النبي الكريم – عليه أفضل صلاة وأتم تسليم –، دار الهجرة والنصرة، ولله الحمد والمنة والفضل والإحسان.

وأمامي ثلاثة كتب، لم أنقل منها؛ لاكتمال عدد الصفحات، وهي كالتالي:

١- مدارج السالكين في منازل السائرين.

٢- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٣- أحكام أهل الذمة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

فهرس المصادر والمراجع

م	اسم الكتاب
١	**اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: زائد بن أحمد النشيري راجعه: محمد أجمل الإصلاحي - سعود بن العزيز العريفي الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢	**أعلام الموقعين عن رب العالمين** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق (محمد أجمل الإصلاحي)، راجعه (سليمان بن عبد الله العمير - عبد الرحمن بن صالح السديس) الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثانية، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٣	**إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - جديع بن جديع الجديع الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

م	اسم الكتاب
٤	**التبيان في أيمان القرآن** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: عبد الله بن سالم البطاطي راجعه: محمد أجمل الإصلاحي - عبد الرحمن بن معاضة الشهري الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٥	**الداء والدواء** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: محمد أجمل الإصلاحي. الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٦	**الرسالة التبوكية** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: محمد عزير شمس راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - جديع بن جديع الجديع الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٧	**الروح** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: محمد أجمل أيوب الإصلاحي راجعه: سعود بن عبد العزيز العريفي - جديع بن محمد الجديع الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

م	اسم الكتاب
٨	**الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق: حسين بن عكاشة بن رمضان راجعه: محمد أجمل الإصلاحي - سعود بن عبد العزيز العريفي الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الأولى (لدار ابن حزم)، ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠م
٩	**الفروسية المحمدية** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: زائد بن أحمد النشيري راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - علي بن محمد العمران الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٠	**الفوائد** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: محمد عزير شمس راجعه: جديع بن محمد الجديع - محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، عدد الأجزاء: ١
١١	**الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق: محمد بن عبد الرحمن العريفي، ناصر بن يحي الحنيني، عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل، فهد بن علي المساعد راجعه: محمد عزير شمس - سعود بن عبد العزيز العريفي الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

م	اسم الكتاب
١٢	**الكلام على مسألة السماع** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) المحقق: محمد عزير شمس راجعه: محمد أجمل الإصلاحي، عبد الرحمن بن حسن بن قائد الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٣	**المنار المنيف في الصحيح والضعيف** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: يحيى بن عبد الله الثمالي راجعه: أنيس بن أحمد بن طاهر الأندُونيسي - يحيى بن عبد الله الشَّهري الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٤	**الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد راجعه: حاتم بن عارف الشريف - يحيى بن عبد الله الثمالي الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٥	**بدائع الفوائد** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) المحقق: علي بن محمّد العمران، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير (جـ١ - ٥)، محمد أجمل الإصلاحي (جـ١ - ٢)، جديع بن محمد الجديع (جـ١ - ٥) الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، عدد الأجزاء: ٥

م	اسم الكتاب
١٦	**تحفة المودود بأحكام المولود** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: عثمان بن جمعة ضميرية راجعه: خلدون بن محمد الأحدب - محمد أجمل الإصلاحي - سليمان بن عبد الله العمير الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٧	**تهذيب سنن أبي داوود وإيضاح علله ومشكلاته** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) جـ١: تحقيق (علي بن محمد العمران)، راجعه (جديع بن جديع الجديع - عبد الرحمن بن صالح السديس)، جـ٢، ٣: تحقيق (نبيل بن نصار السندي)، راجعه (محمد أجمل الإصلاحي - عمر بن سَعدِي) الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثانية، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٨	**جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: زائد بن أحمد النشيري، راجعه: حاتم بن عارف الشريف - أحمد جاح عثمان الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
١٩	**حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: زائد بن أحمد النشيري راجعه: يحي بن عبد الله الثُّمالي - علي بن محمّد العمران الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

م	اسم الكتاب
٢٠	**رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: عبد الله بن محمد المديفر راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - جديع بن جديع الجديع الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢١	**رسالة في صيغ الحمد** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - جديع بن جديع الجديع الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢٢	**رفع اليدين في الصلاة** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: علي بن محمد العمران راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - محمد أجمل الإصلاحي الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢٣	**روضة المحبين ونزهة المشتاقين** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: محمد عزير شمس راجعه: سليمان بن عبد الله العمير- محمد أجمل الإصلاحي الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

م	اسم الكتاب
٢٤	**زاد المعاد في هدي خير العباد** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢٥	**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق: زاهر بن سالم بَلفقيه راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - أحمد حاج عثمان الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢٦	**طريق الهجرتين وباب السعادتين** المؤلف: الإمام أبي عبد اللَّه محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: محمد أجمل الإصلاحي راجعه: سعود بن عبد العزيز العريفي - علي بن محمد العمران الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم) عدد الأجزاء: ٢ .
٢٧	**عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: إسماعيل بن غازي مرحبا راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

م	اسم الكتاب
٢٨	**كتاب الصلاة** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: عدنان بن صفاخان البخاري راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٢٩	**مفتاح دار السعادة** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد راجعه: محمد أجمل الإصلاحي- سليمان بن عبد الله العمير الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، عدد الأجزاء: ٣.
٣٠	**هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى** المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: عثمان جمعة ضميرية راجعه: محمد أجمل الإصلاحي - سعود بن عبد العزيز العريفي - عبد الله بن محمد القرني الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)

فهرس المحتويات

الإهداء ٣
المقـــدمة ٥
[١] (الوابل الصيب) ١١
[٢] (الداء والدواء) ٢٢
[٣] (الفوائد) ٣٥
[٤] (كتاب الصلاة) ٤٧
[٥] (الرسالة التبوكية) ٦٣
[٦] (رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه) ٧٦
[٧] (رسالة في صيغ الحمد) ٨١
[٨] (إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان) ٨٣
[٩] (زاد المعاد في هدي خير العباد) ٨٨
[١٠] (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) ١٠٤
[١١] (التبيان في أيمان القرآن) ١١٨
[١٢] (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) ١٣٤
[١٣] (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) ١٤٣
[١٤] (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) ١٦٣
[١٥] (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام) ١٧٨
[١٦] (أعلام الموقعين عن رب العالمين) ١٩٣

[١٧] (تحفة المودود بأحكام المولود) ٢١٥
[١٨] (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) ٢٣٣
[١٩] (رفع اليدين في الصلاة) ٢٤٨
[٢٠] (تهذيب سنن أبي داوود) ٢٦٣
[٢١] (الكلام على مسألة السماع) ٢٦٧
[٢٢] (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية) ٢٨٢
[٢٣] (الفروسية المحمدية) ٢٨٤
[٢٤] (بدائع الفوائد) ٢٨٦
[٢٥] (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) ٢٨٨
[٢٦] (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) ٢٩١
[٢٧] (الروح) ٢٩٣
[٢٨] (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) ٢٩٦
[٢٩] (طريق الهجرتين وباب السعادتين) ٢٩٩
[٣٠] (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) ٣١٩
الخاتمة ٣٤١
فهرس المصادر والمراجع ٣٤٣
فهرس المحتويات ٣٥١